تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ، عربي ، فارسي)

الدبلوماسية الإسلامية

(دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر)

الدكتور
سهيل حسين الفتلاوي

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافي)

www. iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

269,151

الفتلاوي . سهيل حسين

الدبلوماسية الإسلامية / سهيل حسين الفتلاوي

عمان : دار الثقافة . 2005

رقم الإيداع : (2005/8/1995)

الواصفات : / الدبلوماسية// أهل الذمة// الشورى/الإسلام// السياسة الخارجية// العلاقات الدولية/

● تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-16-101-6

Copyright ©

All right reserved

جميع حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى / الإصدار الأول

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي وجه، أو بأية طريقة إلكترونية كانت، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة مقدماً

All rights reserved no part of this book may be reproduced or transmitted in any means electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage retieval system without the prior permission in writing of the publisher

دار الثقافة للنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: عمان - وسط البلد - قرب الجامع الحسيني - عمارة الحجيري

هاتف 4646361 6 962+ - فاكس 4610291 6 962+ - ص.ب 1532 عمان 11118 الأردن

فرع الجامعة : شارع الملكة رانيا العبدالله (الجامعة سابقاً) - مقابل بوابة العلوم - مجمع عربيات التجاري

تلفون - 5341929 6 962+ - فاكس 5344929 6 962+ ص.ب 20412 عمان 11118 الأردن

www.daralthaqafa.com

E-mail : info@daralthaqafa.com

تصميم وإخراج

مكتب دار الثقافة للتصميم والإخراج

الدبلوماسية الإسلامية

(دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر)

الدكتور
سهيل حسين الفتلاوي

دار الثقافة
للنشر والتوزيع
2006

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ
آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة ـ الآية 151)

المقدمة

لم يقم الإسلام على أنقاض حضارة سابقة له . بل إنه بذرة جديدة وحدث تاريخي متميز وتغيير جذري لحياة البشر يصلح للجميع في أي زمان ومكان. ذلك لأنه أنشأ حضارة ومؤسسة متكاملة وأصيلة غير مقتبسة من حضارة أخرى. ونظم حياة البشر بأدق تفاصيلها وفي مختلف المجالات .

ولما كان الإسلام قد جاء بأحكام تفصيلية دقيقة في العبادات والمعاملات والسلوك الإنساني فإن فهم هذه الأحكام يتطلب من المخاطبين بها الوعي والإدراك وتوافر قدر من الاستقرار والتقبل ليتمكنوا من معرفتها وتطبيقها على الوجه المطلوب.

وقد كلف الله رسوله النبي محمداً ﷺ بنقل هذه الأحكام إلى العرب، الذين تولوا نقلها إلى الناس كافة. وان فهم هذه الأحكام لا يستقيم مع القوة والشدة والعنف ولا يأتلف وطبيعة الدعوة الإسلامية التي جاءت من أجل إنقاذ البشر من التخلف والظلم والضلالة والعبودية. بل لابد من استخدام الأساليب الهادئة السلمية التي تضمن إيصال أحكام الشريعة كما نزلت من الله تعالى. فالإسلام يخاطب عقول البشر. ومخاطبة العقول تنأى بطبيعتها عن استخدام السيف والعنف.

ومن أسرار نجاح الدعوة الإسلامية ان الإسلام جاء بالأحكام التفصيلية لإسعاد البشر وبالوسيلة التي توصل إليهم هذه الأحكام. فاستخدمت النصيحة والمحاججة والجدل والتفاوض لإيصال الدعوة الإسلامية للناس كافة.

وعندما تمكن النبي ﷺ من إنشاء دولة المدينة كان لزاما عليه ان يوطد الأمن والاستقرار فيها من أجل التفرغ لنشر الدعوة الإسلامية فعقد معاهدة سلام مع سكان المدينة من اليهود والمشركين. وبعد ذلك بدأت البعثات الدبلوماسية تنتشر في الوطن العربي والدول المجاورة لنشر الدعوة الإسلامية بالوسائل الدبلوماسية.

وقد تمكن الخلفاء الراشدون من اقتفاء أثر النبي ﷺ في نشر الرسالة وإيصال الدعوة الإسلامية. وبعد انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم، أصبحت الدولة الإسلامية تجاور العديد من الدول والأقوام الأمر الذي فرض على خلفاء الدولتين الأموية والعباسية وسلاطين الدولة العثمانية أن يقيموا علاقات دبلوماسية مع هذه الدول لتنظيم العلاقات الدولية بينها وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية.

ورغم أنَّ اللغة العربية لا تعرف مصطلح الدبلوماسية لأنه مصطلح لاتيني، إلا ان العرب قد عرفوا مفهوم الدبلوماسية وقواعدها بقيمهم وأخلاقهم الإنسانية قبل ان تظهر في أوروبا بقرون عديدة. وللشريعة الإسلامية مصطلحاتها الخاصة بها، وقد آثرنا ان نستخدم مصطلح الدبلوماسية لتقريب الموضوع إلى ذهن القارئ الكريم ولأنه هو المصطلح المتداول في الوقت الحاضر بين جميع الدول بما فيها الدول العربية والإسلامية.

ولشخصية النبي ﷺ الدور الكبير في نشر الرسالة الإسلامية، نظرا لما اتصف به من صفات جذبت الناس إليه وجعلتهم يولونه ثقتهم لصدقه وأمانته وحزمه وصبره وعدله وعفته وحسن مظهره، لدرجة ان البعض منهم دخل الإسلام قبل ان يقرأ القران أو يكتمل نزوله. ولهذا فإننا سنعتمد على شخصية النبي ﷺ بوصفه نموذج المسلمين وقدوتهم.

وبالنظر إلى ان فائدة أية دراسة علمية لابد من مقارنتها مع ما هو موجود فعلا على سبيل التطبيق العلمي، فقد وجدنا من الضرورة ان تكون هذه الدراسة مقارنة مع قواعد القانون الدولي المعاصر لنثبت بالدليل الملموس مدى البون الشاسع بين الدبلوماسية التي جاء بها الإسلام القائمة على الأخلاق والفضيلة، والدبلوماسية الغربية القائمة على المراوغة والخداع والتضليل.

ان الهدف من هذا الكتاب، هو فهم واستيعاب الأسلوب الذي اتبعه المسلمون في نشر الإسلام وكيفية التعامل مع المشاكل والمصاعب التي كانت تعترضه، وحالات الشدة واللين التي استخدموها من اجل إيصال رسالة الإسلام إلى الناس كافة. لتكون لنا منارة نهتدي بها في التعامل الدولي والإنساني. ونحن أحوج ما نكون إليها في الوقت الحاضر.

وبناء على ذلك فإننا سنتناول الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وخلفاء الدولتين الأموية والعباسية وما طبقه السلاطين العثمانيون في هذا الصدد، وهو ما تتضمنه الأبواب الآتية:

المؤلف

الباب الأول

الدبلـوماسـية الإسـلاميـة

في عهد النبي محمدﷺ

الباب الأول

الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي محمد ﷺ

وضع النبي ﷺ أصول الدبلوماسية الإسلامية بسبب ما نزل عليه من أحكام سماوية ولما يتمتع به من شخصية فذه كان لها الأثر الكبير في نشر الدعوة الإسلامية، ولما يتمتع به من قيم وأخلاق عالية فرضت احترامها على الجميع، ولما يحمله من أحكام سماوية لإسعاد البشر وتنقية المفاهيم السائدة وتوحيد الأمة.

وكان للصفات التي يتحلى بها النبي ﷺ والتي تجسمت في الرسالة التي يحملها من الله إلى البشر الأثر الكبير في وضع دستور لتنظيم حياة العرب وجمعهم تحت راية واحدة جعلتهم في مصاف الأمم الراقية وتتقدم عليها في المجالات كافة.

وبعد ان استقر النبي ﷺ في المدينة وعقد معاهدة بين الأنصار والمهاجرين وسكان المدينة الآخرين من اليهود وغيرهم. بدأ العمل الدبلوماسي بدعوة ملوك الروم والفرس وملوك العرب وأمرائهم وشيوخ القبائل، للدخول في الإسلام بأسلوب حضاري متقدم يدل على عمق الدعوة الإسلامية وقدرتها على تطبيق القيم والمبادئ الحضارية .

وقد كان رسل النبي ﷺ يجوبون الصحارى والوديان من اجل إيصال الدعوة الإسلامية للعالم المتحضر. وقد اختار رسله ممن كانوا على درجة من الوعي الحقيقي بقيم الإسلام ولهم شخصية مؤثرة ومعرفة بلغة وعادات وتقاليد القوم المرسلين إليهم.

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية العديد من القواعد الدبلوماسية القائمة على الأخلاق والقيم الإنسانية التي تهدف إلى نشر الإسلام بأسلوب حضاري.

يتضمن هذا الباب الدبلوماسية الإسلامية والدبلوماسي والعلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد النبي ﷺ وذلك في الفصول الآتية:

الفصل الأول : مفهوم الدبلوماسية الإسلامية ومصادرها في عهد النبي ﷺ .

الفصل الثاني : العلاقات الدبلوملسية الدولية في عهد النبي ﷺ .

الفصل الثالث : الشخصية الدبلوماسية ومهامها في عهد النبي ﷺ .

الفصل الأول

مفهوم الدبلوماسية الإسلامية و مصادرها في عهد النبي ﷺ

لكل شريعة أو قانون مصادره الخاصة. ويقصد بمصادر الدبلوماسية الإسلامية تلك المنابع التي ساهمت في تكوين الدبلوماسية الإسلامية، وهي بالتأكيد منابع تاريخية وبيئية ووراثية اكتسبتها الدبلوماسية الإسلامية من الشخصية العربية السائدة قبل الإسلام، والمنابع السماوية التي جسدها الله تعالى في القرآن والسنة. وشخصية النبي ﷺ، وهي مجموعة المميزات والصفات التي تميز بها عن غيره كونه نبيا يتمتع بصفات النبوة الخاصة به، وبصفته رسولا اصطفاه الله تعالى ليحمل الرسالة للعالم اجمع، وما يتطلبه ذلك منه من قدرة وصفات مميزة من اجل إيصال الرسالة للمرسل إليهم وهم الناس كافة على اختلاف لغاتهم ومعتقداتهم وثقافاتهم، ومدى استجاباتهم، وتأثر مصالحهم إلى غير ذلك من الاختلافات القائمة بين أبناء البشر. وان يجمعهم في ظل رسالة سماوية واحدة تتضمن أحكاما موحدة تنطبق عليهم جميعا في الزمان والمكان. وهو أمر يتطلب ممن يحمل هذه الرسالة ان يتصف بصفات معينة تؤهله لاستيعابها والقدرة على إيصالها إلى الناس كافة كما أنزلها الله تعالى.

ومن الواضح، ان النبي ﷺ استمد قدرته الدبلوماسية من عوامل تاريخية اقترنت بطبيعة شبه الجزيرة العربية التي تميزت بحالة اجتماعية خاصة قائمة على النظام القبلي الذي عَد القبيلة نظاما سياسيا وقانونيا مستقلا قائما بذاته، تتمتع فيه القبيلة بسيادة كاملة على أفرادها والأرض التي يقيمون عليها.

ولشخصية النبي ﷺ الدور الكبير في نشر الدين الإسلامي بالوسائل الدبلوماسية لما امتلكه من صفات متميزة لم يتصف بها غيره. فكانت شخصيته أنموذجا مشعا دفعت الكثيرين إلى الإيمان به حتى قبل ان تنزل الرسالة أو يكتمل نزولها.

ومن الأمور التي كونت شخصية النبي ﷺ الدبلوماسية، أحكام الشريعة الإسلامية التي وضعت نظاما دبلوماسيا متقدما، حرص النبي ﷺ على ان يكون الأسوة الحسنة في تطبيقها على نفسه أولا، وان يكون آمينا في نقلها للناس كافة.

وسنتناول مفهوم الدبلوماسية الإسلامية ومصادرها في المباحث الآتية :

المبحث الأول : مفهوم الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ .

المبحث الثاني : مصادر الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ .

المبحث الثالث : أعمال النبي ﷺ بصفته رئيس الدولة .

المبحث الأول
مفهوم الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ

الدبلوماسية مصطلح غربي لم تعرفه اللغة العربية. وعندما عقدت معاهدة فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961، أخذت بمصطلح Diplomacy اليوناني الأصل. وبعد تعريب الاتفاقية إلى اللغة العربية، لم يعرب هذا المصطلح. وإنما استخدم المصطلح الغربي "الدبلوماسية". واصبح هو المتداول بين الدول العربية والإسلامية .

ومصطلح الدبلوماسية مختلف عليه في الفقه الغربي[1]. غير ان المفهوم الأكثر تداولا، هو ذلك الذي يحددها بأنها فن توجيه العلاقات الدولية والسياسة الخارجية للدول، والمفاوضات القانونية الدولية بين الأشخاص، وفن تمثيل الدول ورعاية مصالحها الوطنية في وقت السلم. كما تعني أيضا المهمة التي يضطلع بها المبعوث الدبلوماسي كحلقة وصل بين دولته والدولة المعتمد لديها.

وإذا كانت الدبلوماسية في مفهوم القانون الدبلوماسي تعني إدارة العلاقات الدولية في وقت السلم وفن تمثيل الدول وإجراء المفاوضات، فما هو موقف فقهاء الشريعة الإسلامية من هذا المفهوم ؟

لم يستخدم فقهاء الشريعة الإسلامية مصطلح الدبلوماسية، ويطلقون على القواعد التي تنظم العلاقات الدولية في وقت السلم وإرسال الرسل واستقبالهم اسم قواعد السير.

فيقولون السيرة أو السيرة النبوية، أو كتب السير، وهي تعني سياسة الرسول ﷺ الراشدة أو قيادته الحكيمة أو تصرفاته الكريمة في السلم والحرب، مع الأصدقاء

---

(1) Diplomacy يوناني الأصل، وهو مشتق من كلمة Diplum ومعناها يطوي. ثم اطلق الرومان كلمة Diplom على وثيقة السفر المدنية المختومة والمطوية الصادرة عن الرؤساء السياسيين للمدن التي يتكون منها المجتمع الإغريقي القديم. يراجع:

Ser Ernest, Satow. Aguide Diplomatic Practice, London 1957, p.2.

وقد اختلف فقهاء القانون الدبلوماسي في تحديد معنى الدبلوماسية، فمنهم من عرفها بأنها فن توجيه العلاقات الدولية. وعرفها آخرون بانها السياسة الخارجية للدول وقت السلم. ومنهم من وجد بأنها فن المفاوضات. ومنهم من حددها بأنها علم وفن تمثيل الدول يراجع:

Wesley L. Gould.An Introduction to International Law. New York 1957.p104 .

والاعداء، واخلاقه ومعاملته لأصحابه وكياسته مع الرسل، واختياره لهم وعلمه وعدله ورحمته[1].

وتتضمن كذلك الذكاء والخبرة التي يتمتع بها النبي ﷺ في أسلوب نشر الإسلام ومدى تأثير شخصيته في إدارة الإسلام، في زمن السلم والحرب، واختياره الرسل لحمل رسائله للملوك والأمراء وشيوخ القبائل. وكيفية استقباله الرسل وطريقة التفاوض معهم ومنحهم الامتيازات والحصانات الدبلوماسية، وعقد الصلح والهدنة والتحالف مع الآخرين وتسوية المنازعات بالوسائل السلمية، وتبادل التهاني والتعازي وقبول الهدايا وإرسالها لمن يراه أهلا لها. واختياره الولاة والقضاة في المدن الإسلامية. ودوره في إدارة العلاقات الدولية في وقتي السلم والحرب والعلاقة مع الأعداء "دار الحرب" والعهد للمستأمنين وأهل الذمة[2].

ونلاحظ ان مصطلح السير في الفقه الإسلامي أوسع بكثير من مصطلح الدبلوماسية اليوناني المستخدم حاليا. فالسير تعني إدارة سياسة الدولة الداخلية والخارجية، بينما تعني الدبلوماسية إدارة سياسة الدولة الخارجية.

وإذا كان القانون الدولي العام هو مجموعة القواعد التي تنظم العلاقات بين الأشخاص القانونية الدولية في وقتي السلم والحرب، فان فقهاء الشريعة الإسلامية يطلقون على هذه القواعد " بالسير والمغازي ". فالسير تلك القواعد التي تنظم العلاقات في وقت السلم، أما المغازي فهي القواعد التي تنظم العلاقات في وقت الحرب. وهي القواعد التي يجب تطبيقها في وقت الحرب[3].

والسير والمغازي يقصد بها الصفحة الجهادية الأولى من تاريخ الأمة العربية الإسلامية ، المتمثلة في إقامة صرح الإسلام وجمع العرب تحت لواء النبي ﷺ، إضافة

---

(1) يراجع المبسوط لشمس الدين للسرخسي ج10 مطبعة السعادة مصر 1324 وهو الجزء الخاص بكتاب السير.
ويراجع ايضا : الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية في ضوء القران والسنة، القاهرة 1970ص 12.

(2) المبسوط لشمس الدين السرخسي، ، مصدر سابق، ص 2.

(3) وينظم قانون الحرب القواعد المتعلقة بالمنازعات المسلحة كإعلان الحرب والأشخاص الذين يحق لهم الاشتراك في العمليات العسكرية والأسلحة التي يجوز استخدامها والأسلحة المحرمة دوليا والأشخاص والأهداف التي يجوز الهجوم عليها والتي تتمتع بحماية دولية وحالات وقف القتال والهدنة والصلح. يراجع كتابنا ، قانون الحرب، دار القادسية، بغداد 1984 ص15.

إلى ما يتعلق بنشأته وذكر آبائه وما سبق من أحداث لها صلة بشأنه وحياة أصحابه الذين حملوا لواء الإسلام[1] .

وبناء على تحديد الفقه الإسلامي لهذه العلاقة فإنها تتفق بصورة أساسية مع المفهوم الدبلوماسي الحديث، من حيث الشكل . لأن العلاقة الدبلوماسية في القانون الدبلوماسي المعاصر تقوم على العلاقة بين المرسل والرسول والمرسل إليه والرسالة، ولكنها تختلف من حيث الجوهر.

فالمرسل في القانون السماوي هو الله تعالى بينما المرسل في القانون الدبلوماسي هو الملك أو الأمير أو أيُّ شخص آخر ، وان الرسول في القانون السماوي هو النبي المرسل بينما الرسول في القانون الدبلوماسي هو إنسان عادي وان اتصف بمميزات معينة.

والمرسل إليهم في القانون السماوي هم الناس كافة، بينما المرسل إليه في القانون الدبلوماسي هو شخص معين أو مجموعة من الأشخاص.

والرسالة في القانون السماوي مصلحة عامة، هدفها هداية الناس إلى طريق الحق، بينما الرسالة في القانون الدبلوماسي مصلحة خاصة .

ومع اختلاف صفة المرسل والرسول إلا أن هذه العلاقة تتصف بما نطلق عليه في الوقت الحاضر بالعلاقات الدبلوماسية لأنها تتضمن مرسلاً ورسولاً مكلفاً بحمل رسالة للمرسل إليهم. وان إيصال هذه الرسالة يتفق ومفهوم المبادئ الدبلوماسية الإنسانية القائمة على الأخلاق والفضيلة.

(1) تراجع مقدمة كتاب السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون. القسم الأول الجزاين الاول والثاني، ط 2 مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1955ص3.

المبحث الثاني

مصادر الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ

يقصد بمصطلح "المصادر" في فقه القانون الدولي، الوسائل والعوامل التي أنشأت القاعدة القانونية الدولية والتي تطبق على الوقائع. وهي متدرجة بحسب قوتها[1].

ويقابل مصطلح المصادر في القانون الدولي مصطلح " أدلة الأحكام " في الشريعة الإسلامية. وهي بصورة عامة، ما نزل به الوحي المتمثل في نصوص القران الكريم والسنة النبوية الشريفة. وما أضافه فقهاء الشريعة من أدلة جديدة لمواجهة التطورات الجديدة وهي الإجماع والقياس والاستحسان والاستصحاب والعرف وما شرع من قبلنا ومذهب الصحابي[2]. أمّا في عهد النبي ﷺ فان المصادر الرئيسة للشريعة كانت القرآن والسنة النبوية فقط . وتتضمن السنة النبوية أحاديث وأفعال النبي ﷺ . وكذلك شخصيته الخاصة وما طبقه من قواعد دبلوماسية في تعامله فإنها تعد أيضا من التشريع الواجب اتباعه وتطبيقه . وسنتناول ذلك بشئ من الإيجاز:

---

(1) وفي مجال القانون الداخلي يحدد دستور كل دولة وسائل إنشاء القواعد القانونية داخلها . أما في مجال القانون الدولي فالمنظمات الدولية والمعاهدات الدولية تحدد وتضع القواعد المنظمة للعلاقات الدولية. ولما كان الأساس الذي يقوم عليه القانون الدولي العام هو الرضاء العام بقبول القواعد القانونية. وهذا الرضاء يعبر عنه صراحة او ضمنا فانه من الطبيعي ان تتعدد مصادر القانون الدولي العام بتعدد وسائل التعبير عن الرضاء.

Hans Kelsen , Principles of International Law. Second ed. New York,1966,p.437 .

والدكتور عبد الواحد محمد الفار، القانون الدولي العام، جامعة اسيوط 1989 ،ص50.

ولما كان القانون الدبلوماسي احد فروع القانون الدولي العام، فان المصادر التي يستمد منها احكامه هي ذات المصادر التي يستمد القانون الدولي العام احكامه منها . وهي مصادر اصلية، كالعرف والمعاهدات ،ومصادر مشتقة وهي أحكام المحاكم والفقه ومبادئ القانون العامة ومبادئ العدل والإنصاف.

الدكتور محمد سعيد الدقاق، القانون الدولي، المصادر والأشخاص،ط2 بيروت 1983 ص41. والدكتور عبد الحسين القطيفي، القانون الدولي العام، بغداد 1972ص،397.

(2) شرح البدخشي، مناهج العقول، للإمام محمد بن الحسن البدخشي، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، ج1 194 و ج2 ص3. كذلك يراجع :

الدكتور عبد الواحد عبد الرحمن، الأنموذج في أصول الفقه، جامعة بغداد 1987ص 69.

أولاً : القرآن الكريم

كل كلمة وردت في القران الكريم إنما هي تعبر عن حالة دبلوماسية. بما في ذلك القواعد المتعلقة بتنظيم القتال والحرب، فقد وردت محاطة بالعفو والرحمة والشفقة وإحقاق الحق وتطبيق العدل. ومن الصعوبة تفسير جميع النصوص الواردة في القرآن الكريم في هذا المجال. ذلك لأن الهدف الذي جاء به القران الكريم لا يمكن تطبيقه إلا باتباع السبل الدبلوماسية. فالقران الكريم كله رسالة يخاطب الله فيها البشر جميعا وهم المرسل إليهم، وحامل الرسالة هو رسول من الله إلى البشر ليبلغهم جميعا بهذه الرسالة. وهذا هو جوهر القانون الدبلوماسي في الوقت الحاضر. فهو ينظم العلاقة بين المرسل والرسول والمرسل إليه وحقوق وامتيازات الرسول الذي يحمل هذه الرسالة .

فقد أطلق القرآن الكريم مصطلح "الرسول" على مهمة النبي ﷺ. وورد هذا المصطلح في العديد من الآيات. وهو ينطبق على الشخص الذي يقوم بمهمة حمل رسالة إلى شخص آخر. ويتولى الرسول التعبير عن مرسله. فكل ما يقوله أو يعبر عنه، لا ينسب إليه وإنما لمرسله.

وكان اختيار الله تعالى لهذا المصطلح تقديرا لنظرة العرب للرسول كونه مكلفاً بحمل رسالة، وان احترامه وتقديره واجبان نظراً للمهمة التي يقوم بها. فلا يجوز الاعتداء عليه. بل لابد من احترامه وتقديره.

ولما كان الإسلام لا يتحدد بالإيمان بالله وحده، لأنه عقيدة متكاملة تنظم سلوك الحياة، فان إيصال هذه القواعد للناس لا يتحقق إلا باتباع أسلوب التفهيم والإقناع لإزالة ما علق بعقولهم من أدران ومعتقدات، ومن ثم غرس القواعد الجديدة في التوحيد والسلوك الإنساني المتضمنة للعبادات والمعاملات في النفوس . ولمّا كانت جميع الآيات التي جاءت في القران الكريم نصوصا دبلوماسية تحدد الإيمان بالله وقواعد السلوك الإنساني للناس كافة، فان إيصال هذه القواعد لا يمكن ان يتحقق إلا باتباع الأسلوب الدبلوماسي أيضا. ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [1].

---

(1) سورة النحل الآية 125.

وقد جاءت القواعد الدبلوماسية في القرآن بحق النبي ﷺ على ثلاثة أنواع :

1. قواعد دبلوماسية جاءت بحق النبي ﷺ، ولكنها تعد تشريعا لجميع المسلمين منها قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾[1]فهذه الآية جاءت بحق النبي محمد ﷺ إلا إنها تعد تشريعا لجميع المسلمين.

2. ما جاء للمسلمين بصورة عامة، وشمل النبي ﷺ من باب أولى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[2]. فهذه الآية موجهة للمسلمين عموما إلا ان النبي ﷺ أولى بتطبيقها.

3. ما جاء للنبي ﷺ خاصة . من قواعد دبلوماسية خاصة به وحده . كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾[3].

ثانيا : السنة النبوية

وهي كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. وتعد جميع أقواله وأفعاله قواعد دبلوماسية سواء تلك التي نزل بها الوحي أو المتعلقة بشخصه بصفة خاصة، أي المتعلقة بشخصه كانسان ،ذلك ان الأحكام التي جاءت بحق النبي ﷺ تضمنت الأنواع الآتية:

1. الأحاديث والأعمال الواردة عن النبي ﷺ والتي تعد تشريعا للمسلمين أيضا كونه انموذجا للبشر لقوله تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4] ومنها الأحاديث والأعمال المتعلقة بالدبلوماسية كاختياره للرسل النين أرسلهم للملوك والأمراء. واستقباله الرسل الأجانب وطريقة معاملته لهم. فهذه الأحاديث والأعمال التي قام بها النبي ﷺ تعد تشريعا للمسلمين جميعا.

(1) سورة عبس الآية 1و2.
(2) سورة الأحزاب الآية 70.
(3) سورة الأحزاب الآية 50.
(4) سورة الأحزاب الآية 21.

2. الأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ والموجهة للمسلمين جميعا، فانه ملزم بتطبيقها هو قبل غيره. ومن ذلك قوله: " إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه "[1]. فهذا الحديث عام يحدد سلوك المسلم في موضوع معين. كما انه في الوقت نفسه يشمل النبي ﷺ بوصفه الأسوة الحسنة. وقد يطبقه بصورة اكثر مما يطبقه المسلم المخاطب. فقد روي عنه انه لم يتثاءب قط. ولم يطلب من المسلمين إلا ما ورد لهم من تشريع لدفع الحرج عنهم. ومثل هذا الحديث يطبق على الدبلوماسي بشكل خاص، لأنه اجدر بتطبيقه.
3. الأمور الخاصة به كانسان. مثل أكله ولبسه وخصوصياته، فهذه لا تعد تشريعا للمسلمين وإنما هي من الأمور الخاصة به .

ثالثا : الأعراف والتقاليد الدولية السائدة في عهد النبي ﷺ

إن الأعراف والتقاليد الدولية السائدة في عهد النبي ﷺ والتي لم يحرمها الإسلام تعد تشريعا للدبلوماسي. خاصة تلك التي طبقها النبي ﷺ في تعامله مع الدول كختم المذكرات والأمان بالنسبة للرسل ومعاملتهم معاملة حسنة. فقد جاء بكتاب السير " فان الرسول آمن من الجانبين، هكذا جرى الرسل في الجاهلية "[2]. وهذا يعني ان الرسل كانوا يتمتعون بالحماية قبل الإسلام. إضافة إلى القاعدة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية " الأصل في الأشياء الإباحة "

ومن ذلك أيضا الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء لما فيها من قواعد دبلوماسية كأسلوب التخاطب وطريقة كتابة الرسائل وأصول المجاملات الدولية، التي كانت سائدة بين العرب والدول المجاورة[3].

أما أدلة الأحكام الأخرى كالإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها من الأدلة الأخرى، فان هذه الأدلة لم تكن موجودة في عهد النبي ﷺ. وقد

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ج1 ص314.

(2) السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء احمد السرخسي ج1 تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة مصر القاهرة 1958، ص 296.

(3) كانت الإتصالات سائدة بين ملوك وامراء الجزيرة العربية والدول المجاورة. يراجع : الدكتور جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، بغداد، ص 171.

ظهرت بعد وفاته، بعد ان اتسعت الدولة الإسلامية. وهذه الأدلة تخرج عن موضوع دراستنا هذه لأنها محددة بدارسة الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ.

وإذا ما أجرينا مقارنة بين مصادر الدبلوماسية الواردة في القانون الدولي المعاصر ومصادر الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ نجد ما يأتي:

1. ان مصادر الدبلوماسية الثابتة في الشريعة الإسلامية هي القران والسنة النبوية والعرف الدولي السائد في عهد النبي ﷺ. أما مصادر الدبلوماسية الثابتة في القانون الدولي المعاصر فهي الاتفاقيات الدولية والعرف الدولي.
2. تتصف مصادر الدبلوماسية في الشريعة الإسلامية بكونها نافذة وملزمة للجميع. لكونها تعد تشريعا سماويا حتى ما كان منها من الأعراف السائدة ما دام النبي ﷺ قد أقرها وعمل بها. ويترتب على مخالفتها عقاب الله تعالى. أما مصادر الدبلوماسية في القانون الدولي المعاصر فإنها قائمة على إرادة الدولة، وإنها تتصف بكونها ملزمة غير نافذة بسبب فقدانها لعنصر الجزاء. ولهذا نجد ان الدول غالبا ما تنتهك قواعد الدبلوماسية.

رابعا : الشخصية الدبلوماسية للنبي ﷺ

للشخصية الدبلوماسية أهمية كبيرة في التأثير على الآخرين. وكسب ودهم، وتنطلق الشخصية الدبلوماسية الإسلامية من شخصية النبي ﷺ التي تعد من المصادر الرئيسة للدبلوماسية الإسلامية. فقد حظي بتربية خاصة كانت انعكاسا للوضع الاجتماعي والسياسي القائم في مكة. كما ان عراقة نسبه الشريف وانتماءه إلى قبيلة عربية معروفة بأصالتها العربية ودورها الريادي القيادي للقبائل العربية الأخرى، كلها من الأمور التي ساعدت على بناء شخصيته الدبلوماسية، وتأصيل القيم الأخلاقية لخلق قيادة سياسية واجتماعية وعسكرية تهيء الواقع العربي المتحضر ليقود أمة بكل ما فيها من تناقضات وصراعات، وينقلها إلى التوحيد والوحدة والنظام والعدالة والعالمية. ويوصل الرسالة المكلف بحملها إلى الناس كافة بأمان.

ومن المؤكد ان نشأة النبي ﷺ ونسبه الشريف قد ساهما في تكوين هذه الشخصية الفذة بالشكل الذي أهلته لأداء المهمة المكلف بها.

وتحرص بعض الدول منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر على اختيار الأشخاص الموهوبين ورعايتهم منذ صغرهم ليكونوا رسلا وممثلين لها لدى الملوك والأمراء، وتعمل على تربيتهم تربية خاصة وتوفر لهم كافة المستلزمات الضرورية من اجل ان ينشؤوا نشأة خاصة تؤهلهم إلى جانب ما يتصفون به من صفات حميدة لكسب مودة الآخرين والتأثير فيهم. وتعد بعض الدول مدارس خاصة للأطفال الموهوبين ممن يتمتعون بقدرات عقلية وبدنية وخلقية وأخلاقية خاصة، تحت إشراف علماء متخصصين يتولون تربيتهم وتدريسهم مختلف العلوم واللغات، وتعمل على بث الروح الوطنية والإخلاص فيهم والتفاني في العمل وتربيهم على الصبر، والعمل في مختلف البيئات الاجتماعية، وتحمل مختلف المصاعب ليكونوا قادرين على التأثير بالآخرين دون التأثر بهم.

وقد وجد من العرب قبل الإسلام ممن اتصفوا بهذه الصفات. فكانوا يجوبون الصحارى والبوادي ويتنقلون بين الملوك والأمراء ليطفئوا نار الحرب والفتنة ويقيموا الصلح والوئام بين الناس، ناذرين أنفسهم من اجل خدمة الإنسانية.

ومن اشهر هؤلاء أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميمي والحارث بن عبدة البكري وعبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان بمثابة وزير خارجية حكومة الملأ في مكة قبل الإسلام. حيث وضع هؤلاء قواعد دبلوماسية رفيعة قائمة على الفضيلة والأخلاق لا تزال موضع احترام وتقدير حتى يومنا هذا.

وقد وضع العرب شروطا معينة للمبعوث الدبلوماسي. ومن ذلك ما ورد عن أكثم بن صيفي بقوله " اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومهماتك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا حصيفا بليغا قليل الغفلة منتهز الفرصة، ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد فطنا للطائف التدبير ومستقلا لما ترجو وتحاول بالحزم وإصابة الرأي. ومتعقبا بالحذر والتمييز، ساميا إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعك. ان حاول جر أمر

احسن اعتلاقه، وان رام دفعه احسن اعتلاقه مبرما لما نقض، ناقضا لما ابرم يجيل الباطل في شخص الحق، والحق في شخص الباطل ..." [1].

وأكثم بن صيفي من الحكماء الذين دعاهم النبي ﷺ للإسلام فجاء لإعلان إسلامه وتوفي في الطريق ونزلت فيه الآية الكريمة ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [2].

في هذه الأجواء ولد النبي ﷺ في سنة 570م، عام الفيل. في دار جده عبد المطلب بمكة[3]. فأخذته حليمة السعدية لترضعه، وذهبت به إلى البادية، فأقام عندها. فلم يبلغ العامين حتى تعلم خشونة البادية، وكان في هواء الصحراء ما يسرع نموه، ويزيد في وسامة خلقه، وحسن تكوينه. ولما آن فصاله قدمت به حليمة إلى أمه وهي في اشد الحرص على مكوثه عندها لما وجدته فيه من بركة. وعندما كلمت أمه وافقت على رده معها للتخلص من وباء مكة. فرجعت به إلى الصحراء، وأقام فيها سنتين أخريين[4].

وقد كان من عادة العرب، إذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة من غير قبيلته ليكون أنجب وأفصح . وقد قيل أن السبب في ذلك لأنهم كانوا يرون انه عار على المرأة ان ترضع ولدها أي تستقل برضاعته. وهذا ما كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات. وقد نقل عن عبد الملك بن مروان انه كان يقول اضر بنا حب الوليد، يعني ولده لأنه لمحبته أبقاه مع أمه ولم يسترضعه في البادية مع الأعرابيات، فصار لحانا لا عربية له. وأخوه سليمان استرضع في البادية فصار عربيا غير لحان[5].

وقد أرضعت النبي ﷺ ثمان من النساء وقيل عشرة[6]. وكانت حليمة السعدية تأخذه إلى سوق عكاظ وسوق ذي المجاز وهي أسواق في الجاهلية كانت العرب إذا

---

(1) ابو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء، رسائل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت 1972ص33ويرجع ايضا كتابنا:

تطور الدبلوماسية عند العرب، دار القادسية بغداد 1985ص35.

(2) سورة النساء الآية 100.

(3) قرني طلبة بدوي، جواهر السيرة النبوية، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ص14.

(4) ابو محمد عبد الملك بن هشام، سيرة النبي، ج1 ص 171.

(5) الإمام برهان الدين الحلبي الشافعي ، السيرة الحلبية ، ج1 ، المكتبة الإسلامية ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت ، ص 89. والوفا بأحوال المصطفى ج1 ص108 والسيرة النبوية لابن هشام، مصدر سابق، ص 163.

(6) السيرة الحلبية، مصدر سابق، ص 84.

حجت اقامت بها لإنشاد الشعر والتفاخر [1]. وكان دخوله هذه الأسواق في سن مبكرة قد أذكى فيه حب اللغة العربية فازداد فصاحةً . لان ما يشاهده الشخص منذ طفولته يبقى عالقا في الذهن مدة طويلة، خاصة وان مثل هذه الأسواق يحضرها الشعراء والأدباء والفرسان والكرماء.

وكان النبي ﷺ يتفاخر بانه نشأ في بني سعد، ويعزي فصاحة لغته إلى ذلك وهذا ما سنتناوله عند الكلام عن فصاحته اللغوية .

وعندما توفيت أمه كفله جده عبد المطلب، ولم يتعلق به كثيرا لأنه فارق الحياة بعد سنتين من رعايته له. وكان عبد المطلب دبلوماسيا رفيعا يجيد مخاطبة الملوك والأمراء بكلام يليق بهم. فعندما تمكن سيف بن ذي يزن من طرد الأحباش من اليمن واستقر له الأمر جاءت العرب من كل مكان لتهنئته . وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب، وكان سيف بن ذي يزن في قصره بصنعاء والتاج على رأسه وسيفه بين يديه، وملوك حمير عن يمينه وشماله، فأذن لهم فدخلوا عليه ودنا منه عبد المطلب واستأذنه في الكلام. فقال له : ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك، فقد أذنا لك، فقال : ان الله عز وجل احلك أيها الملك محلا رفيعا شامخا باذخا منيعا. وأنبتك نباتا طالت أرومته وعظمت جرثومته وثبت اصله وبسق فرعه في أطيب موضع واكرم معدن، وأنت أبيت اللعن ربيع العرب الذي به تخصب، وعمودها الذي عليه العماد وكهفها الذي تلجأ إليه العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا فيهم خير خلف، فلن يهلك ذكر من أنت خلفه، ولن يخمل ذكر من انت سلفه، نحن اهل حرم الله وسدنة بيته أشخاصا ، (أي أحضرنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا). فنحن وفد التهنئة لا وفد الترزئة (التعزية) فعند ذلك قال له الملك من أنت أيها المتكلم، قال عبد المطلب بن هاشم، فقال ابن اختنا ، لان عبد المطلب من الخزرج وهم من اليمن[2].

يتضح من ذلك ان عبد المطلب كان دبلوماسيا رفيعا فريدا في مخاطبة الملوك يعجز أي دبلوماسي في الوقت الحاضر ان يتكلم بأسلوبه. ويبدو انه كان متميزا في فن الخطابة الدبلوماسية. ذلك ان وفد قريش كان يضم عظماء شعراء وخطباء مكة ممن

---

(1) مصدر سابق، ص 95.

(2) السيرة الحلبية ج1 ، مصدر سابق، ص 114. والوفا باحوال المصطفى ج1 ، مصدر سابق، ص 122 والخصائص الكبرى، مصدر سابق، ص 203.

هم اكبر منه سنا وأفضل إدارة في حكومة الملأ. وإذا كان النبي ﷺ قد تربى في هذا الحجر فانه من الطبيعي ان يتأثر به.

وكان عبد المطلب لا يعامل النبي ﷺ معاملة عادية بل يعامله معاملة الشخص المعد لقيادة الأمة. فقد كان لعبد المطلب مفرش في مجلسه لا يجلس عليه أحد. وكان حرب بن أمية ومن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون فراش. فجاء النبي ﷺ يوما وهو غلام لم يبلغ الحلم، فجلس على الفراش فجذبه رجل، فبكى فقال عبد المطلب ارى بني يبكي، قالوا أراد ان يجلس على الفراش فمنعوه، فقال عبد المطلب، دعوا ابني يجلس عليه، فانه يحس بشرف نفسه وارجو ان يبلغ من الشرف ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده. فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه، سواء حضر عبد المطلب أو غاب وفي رواية ان عبد المطلب قال، دعوا ابني ليؤنس ملكا أي يعلم من نفسه ان له ملكا[1].

وبعد وفاة عمه عبد المطلب انتقل إلى حجر عمه أبي طالب الذي انكب عليه يرعاه ويحميه ويذود عنه، فيصحبه في حله وترحاله ويحرص على إسعاده أكثر مما يحرص على أولاده[2].

وإذا جاءت الأشهر الحرم ظل النبي ﷺ بمكة مع أهله أو خرج معهم إلى الأسواق المجاورة لها وهي عكاظ ومجنة وذي المجاز، يستمع إلى إنشاد الشعراء وخطب الخطباء، تتلقى أذناه بلاغتهم في غزلهم وفخرهم وذكر أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم[3].

وكان لتربية النبي ﷺ في بني سعد والمدينة وخروجه إلى الأسواق الادبية، اثر في إكسابه شخصية متميزة، فقد عاش قساوة البادية، فأكسبته الصبر والشجاعة والوقوف أمام المصاعب بقوة وايمان، والتأقلم مع أجوائها، فغرست فيه المنطق السليم وأفهمته أصول اللغة العربية. وتعلم من المدينة أسلوب الحضارة والتقدم والرفاهية وحركة الأسواق التجارية، وأسلوب إدارة الدولة، وإدارة العلاقات الخارجية، وطرق تسوية المنازعات الدولية ، وعقد الأحلاف ومعاهدات الصلح .

فقد كانت حياته انعكاسا مزدوجا للبادية والتحضر، فاخذ منهما الجيد المفيد، ونبذ السيء البغيض. وهذا الانعكاس منحه القدرة بعد نزول الرسالة على أن

---

(1) السيرة الحلبية ج1، مصدر سابق، ص 108.

(2) قرني طلبه بدوي، مصدر سابق ص23.

(3) محمد لطفي جمعة، ثورة الإسلام وبطل الانبياء، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1958، ص 276.

يتعامل مع أهل المدن وأهل البادية كل حسب موقعه وبيئته. فتعامل مع أهل البادية وكأنه ابن البادية، وتعامل مع أهل المدينة بصفته منهم .

وعمل النبي ﷺ في التجارة قبل نزول الرسالة عليه. وقد مكنته هذه المهنة من ان يطلع على الأسواق التجارية وكيفية التعامل مع الناس .

ان اختلاف ظروف تربية النبي ﷺ وتعدد ألوان حياته من البادية إلى المدينة ومن أمه إلى جده ثم عمه ومن رعي الغنم إلى التجارة والاطلاع على أسواق الشعر والخطابة. وسفره مع القوافل التي مكنته من الاطلاع على جنوب الجزيرة وما فيها من أنظمة سياسية متطورة في اليمن، والإطلاع على نظام الحكم الروماني الذي كان يحتل الشام، هذه العوامل المختلفة قد أدت إلى اتساع مداركه ونمو قابلياته، والتكيف مع هذه الظروف والتفاعل معها والإفادة منها، وخلقت منه روحا طيعة مرنه قابلة للتغييرات والمجابهات والقناعة بما يفرضه الزمن من ظروف وملابسات. وبناء شخصيته المتميزة المستقلة، والاطلاع على أرجاء الوطن العربي وأحوال المعيشة فيه. وهذا ما مكنه بعد نزول الرسالة من الإعتماد على معرفته وقدراته دون استخدام المستشارين لمعرفة ذلك.

فقد نهل النبي ﷺ من جيد تراث الأمة العربية فتكونت شخصيته الدبلوماسية بشكل اصبح معه أنموذجا وأسوة حسنة ينبغي على كل من يعمل في المجال الدبلوماسي ان يتبعها لكي يكون قدوة المسلمين في تعامله لنشر الحق والعدل في العالم.

خامساً : أعمال النبي ﷺ بصفته الشخصية

للنبي ﷺ، كأي نبي أو رئيس دولة حياته الخاصة. وهذه الحياة لا تخرج عن أصول الدين، وبعضها متصل بالرسالة ويعد تشريعا للمسلمين والآخر خاص به وحده لا يعد تشريعا .

وهناك ثلاثة أنواع من الصفات الشخصية تتعلق بالنبي ﷺ لا تعد تشريعا لغيره. الأول: تعد تشريعا للنبي ﷺ ولا تعد تشريعا لغيره وان نزل بها التشريع، فهي خاصة به كالنبوة ونزول الوحي وتعدد زوجاته بأكثر من أربعة. فهذه الأمور خاصة به فلا يجوز لغيره في حياته أو بعد مماته ان يتبعها أو ان يقوم بها. والثاني : الأقوال والأعمال الخاصة به كانسان كالأكل والملبس والمشرب وما يحب منها وما يكره. وساعات نومه. وكل

عمل خاص به لم ينزل به التشريع. فان مثل هذه الأمور تعد جزءاً خاصاً من شخصه ولا تعد تشريعا واجبا على المسلمين. غير إننا نشير بهذه المناسبة إلى ان قيام النبي ﷺ باستقبال الرسل بملابس نظيفة وشكل جميل إنما يعد تشريعا للرسل وللخلفاء المسلمين الذين عليهم ان يقتدوا به.

أما النوع الثالث فهو الأقوال والأعمال المستندة إلى شخصه وتعامله العادي مع المسلمين ولم ينزل بها تشريع. وهي ما تعلق بأمور الحياة العادية، فهذه الأمور لا تعد تشريعا للمسلمين.

فقد روي عن موسى بن طلحة عن أبيه، قال مررت مع رسول الله بقوم على رؤوس النخل. فقال ما يصنع هؤلاء، فقالوا يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح. فقال النبي ﷺ: " ما أظن يغني ذلك شيئا" قال فلما اخبروا بذلك تركوا. فاخبر النبي ﷺ فقال: " ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تواخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن اكذب على الله عز وجل "[1]، وقيل عن ذلك قوله :" إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من راي فإنما انا بشر". وقيل انه قال :" انتم اعلم بأمر دنياكم"[2].

ومن الأمور الشخصية التي لا تعد تشريعا للمسلمين هي انفعالات وأحاسيس البشر في الأمور اليومية. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها بأنه دخل على النبي ﷺ رجلان فكلماه بشيء فأغضباه فلعنهما وسبهما. فلما خرجا قالت عائشة، يا رسول الله من أصاب من الخير ما أصاب هذان. قال " وما ذاك " قلت لعنتهما وسببتهما، قال النبي ﷺ" أوما علمت ما شارطت عليه ربي ؟ " قلت " اللهم إنما أنا بشر فاي من المسلمين لعنته أو سببته فاجعل له زكاة وأجرا " [3]. وروي أيضا عن النبي ﷺ انه قال " اللهم إنما أنا بشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته فاجعلها له زكاة ورحمة "[4].

(1) صحيح مسلم ج4 ص 1835.

(2) صحيح مسلم ج4 ص 1836.

(3) صحيح مسلم ج4 ص2007.

(4) صحيح مسلم ج4 ص 2009.

ومن الأمور التي لا تعد تشريعا تلك التي تتعلق بالحرب ولم ينزل بها تشريع. والتي تعتمد على استشارة النبي ﷺ للصحابة. فقد أمر الله تعالى نبيه ان يستشير الصحابة في أمور الحرب .لقوله تعالى :﴿وشاورهم في الأمر﴾[1]. اي شاورهم في أمور الحرب ونحوه، مما لم ينزل به وحي ليستنير برأيهم، ولما فيه من تطييب لنفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضي الله عنه انه قال: قد علم الله انه ما له بهم من حاجة، ولكنه أراد ان يستن به من بعده. وعن النبي ﷺ قوله " ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم ". وعن أبي هريرة انه قال: " ما رايت أحدا أكثر مشاورة من أصحاب الرسول ﷺ ". وقيل كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالراي دونهم[2].

وفي غزوة بدر عندما خرج النبي ﷺ لم يبادر إلى عيون الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به. فقال الحباب بن المنذر بن الجموع، يا رسول الله ارايت هذا المنزل امنزل انزله الله ليس لنا ان نتقدمه او نتاخره، أم الراي والحرب والمكيدة، قال بل هو الراي والحرب والمكيدة. فقال يا رسول الله فان هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تاتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما سوراه من القلب ثم تبني عليه حوضا فتملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال النبي ﷺ لقد أشرت بالراي فنهض ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم امر ببناء حوض على القليب الذي نزل عنده فملئ ماءا ثم قذفوا فيه الآنية[3].

وقد استشار النبي ﷺ بعض الصحابة في معالجة موضوع أسرى بدر. فقد روي انه أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب، فاستشار أبا بكر رضي الله عنه فيهم فقال: قومك واهلك استبقيتهم ولعل الله ان يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك. وقال عمر رضي الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم

---

(1) سورة ال عمران الآية 159.

(2) الكشاف، المجلد الأول، مصدر سابق، ص 474.

(3) تاريخ الطبري ص 144.

فان هؤلاء أئمة الكفر، وان الله أغناك عن الفداء. مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس. ومكني من فلان لنسب له فنضرب أعناقهم. فقال النبي ﷺ : " ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وان الله ليشدد قلوب الرجال حتى تكون اشد من الحجارة، وان مثلك يا ابا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم. ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. ثم قال لأصحابه : انتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق " وروي انه قال لهم : " ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم ؟ فقالوا بل نأخذ الفداء"[1]. وروي انهم لما اخذوا الفداء نزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وقد عالج النبي ﷺ الخلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بحكمة دبلوماسية فائقة. فلم يسفه رأي أي منهما، بل اسند أقوالهما إلى ممارسة نبي من الأنبياء. وترك الامر في النهاية إلى حكم الله عز وجل.

وقد وردت العديد من الأحاديث النبوية التي تؤكد على الاستشارة. منها قوله ﷺ:"استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا" والعاقل هو كامل العقل، وطالبوا العاقل بالإرشاد وإصابة الصواب يحصل الإنصاف بالرشد والسداد. ويختلف الحال باختلاف الأمر المطلوب. فالتشاور في أمور الدين وشؤون الآخرة للذين عقلوا الأمر والنهي.. وهناك من جرب أمور الدنيا ومارس المحبوب والمحذور. ولا تعصوه فيما يرشدكم إليه فتصبحوا على ما فعلتم نادمين. وقال الحكماء من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول. وقال بعضهم لا تصلح الأمور إلا براي أولي الألباب. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : " نعم الموازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد"[3]

(1) الكشاف المجلد الثاني، مصدر سابق، ص 168.

(2) سورة الانفال الآية 67.

(3) فيض القدير، شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي، مصدر سابق، ص 490.

ولأهمية الاستشارة كان النبي ﷺ يستشير الصحابة في أمور الدنيا وخصوصا في امور الحرب مما لم ينزل به تشريع .

ومن الأمور التي تعد جزءاً من شخصية النبي ﷺ تقديره الأمور والوقائع التي تحتمل الصحيح من الخطأ. فقد يتخاصم أمامه متخاصمان، فيكون أحدهم اقدر من الآخر على عرض مطلبه، وقد يخفي أشياء ويظهر أخرى مما يجعل الحكم لصالحه، فيحكم النبي ﷺ لصالحه. فقد روي عنه انه قال : " إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلي ولعل أحدكم ان يكون ألحن بحجته فاقضي له على نحو ما اسمع فمن قضيت له بحق من أخيه شيئا فلا يأخذه إنما اقطع له قطعة من نار"[1].

وإذا كان النبي ﷺ يقضي في بعض الأمور بما نزل من الوحي إلا ان تقدير الوقائع مسألة شخصية لا ينزل فيها الوحي فهي لا تعد تشريعا للمسلمين.

يتضح من ذلك ان الاستشارة التي أوجبها النبي ﷺ والأمور الخاصة بشخصه التي لا تعد تشريعا، لها دور كبير في تطور الشريعة الإسلامية بعد وفاته وانقطاع الوحي. فقد تمكن فقهاء الشريعة الإسلامية من استنباط الأحكام من القران والسنة لمعالجة الحالات المتجددة التي لم ينزل بها التشريع. ولولا رأي النبي ﷺ واستشارته في عهده لانغلقت أحكام الشرع الإسلامي، كما انغلقت الديانة اليهودية فأصبحت حبيسة العصر والمكان الذي نزلت فيه ولم تواجه التطورات الجديدة. في حين ان الإسلام دين لكل زمان ومكان.

وإذا كان ما يقوم به النبي ﷺ من أشياء خاصة به لا يعد تشريعا، فإن ما يقوم من أمور خاصة فيما يتعلق باستقبال الرسل وحسن منظره وكرمه واختيار الرسل تكون ملزمة بالنسبة للخلفاء ورؤساء الدول.

---

(1) محمد لطفي جمعة، مصدر سابق، ص 575.

المبحث الثالث
أعمال النبي ﷺ بصفته رئيس الدولة

رغم أن النبي ﷺ هو رسول الله لكنه ايضا يتمتع بصفة سياسية وهي أنه رئيس دولة المدينة وله صلاحيات على المسلمين وغير المسلمين فيها. وسنتناول صفة النبي ﷺ بوصفه رئيس دولة والصلاحيات التي يتمتع بها استنادا لهذه الصفة ومدى قوتها التشريعية على المسلمين. وهو ما سنتناوله في النقطتين الآتيتين :

أولا : صفة رئيس دولة

تعد أعمال النبي ﷺ وتصرفاته بصفته رئيس دولة، من المصادر الدبلوماسية التي يتطلب من المسلمين تطبيقها. وقد أقام النبي ﷺ دولة المدينة. وكان هو رئيسها الأعلى. وكانت لتصرفاته وأعماله فيما يتعلق بإدارة الدولة صفة تشريعية ملزمة للمسلمين.

ومصطلح الدولة من المصطلحات الحديثة التي دخلت الوطن العربي في القرن التاسع عشر. فقد عربت كلمة State إلى مصطلح الدولة. ولم يستخدم هذا المصطلح قبل الإسلام وبعده . رغم ان مفهوم الدولة عرف لأول مرة في الوطن العربي. ويطلق عليها أسماء مختلفة، كالمملكة مثل مملكة بابل ويلقب رئيسها بـ " الملك "، ومملكة سبأ ويلقب رئيسها بـ" المكرب " أو " قيل "، والأمارة ويلقب رئيسها بـ " الأمير "، والسلطنة ويلقب رئيسها بالسلطان، والقبيلة ويلقب رئيسها بـ" بشيخ القبيلة ". وإذا كانت المملكة تتكون من عدة مقاطعات فيطلق على رئيس المقاطعة بـ" ذي " والجمع " الأذواء"، ولهؤلاء سلطة على مقاطعاتهم، ولكنهم يخضعون لملك واحد[1]. غير ان هذه الأنظمة لم يطلق عليها مصطلح الدولة. فهذا المصطلح حديث لم يعرفه العرب.

---

(1) يراجع كتابنا : تاريخ النظم القانونية، دار الفكر المعاصر بيروت 1994 ص 256.

ومن اشهر الممالك التي ظهرت في الوطن العربي قبل الإسلام : مملكات سومر بابل واشور والمناذرة في العراق ومملكة سبأ وحمير والقرويين ومعين وقتبان في اليمن ومملكات البحرين وعمان في الخليج العربي، ومملكة الغساسنة في الشام.

فقد عرف العرب كلمة الدولة بمعنى التداول وليس كنظام سياسي كما هو معروف في الوقت الحاضر.

ولم يتمكن النبي ﷺ من إقامة دولة في مكة بسبب عزوف قريش عنه ومحاربتهم له. وكانت الهجرة للمدينة الخطوة الأولى في تأسيس النواة الأولى للدولة الإسلامية. فأقام دولة المدينة التي أصبحت بعد ذلك عاصمة الدولة الإسلامية. ولم يتخذ للمدينة لقباً من ألقاب الدول ، بل اعتمد مصطلح الإسلام عنوانا لدولة المسلمين، فالإسلام دولة ودين وعنوان، وشعبه شعب المسلمين.

طبقا لقواعد القانون الدولي المعاصر فإن رئيس الدولة هو رأس السلطة العامة فيها . ينوب عنها أصيلا ومباشرة في إدارة شؤونها سواء في الداخل أو في الخارج. وهو الممثل الأعلى لدولته في المحيط الدولي وفي علاقاتها الدولية ، وتثبت الصفة الدبلوماسية لرئيس الدولة بمجرد توليته منصبه أيا كان نظام الحكم في الدولة وبغض النظر عن طبيعة قوانينها[1]. ويشترط فيه ان يكون شخصا معلوما.

ويحدد دستور كل دولة صفة رئيس الدولة ولقبه. فيطلق عليه الإمبراطور أو الملك أو رئيس الجمهورية أو المستشار أو الأمير. أما في العلاقات الدولية فان هذه الألقاب متساوية ولا فرق بينها، فالكل يطلق عليهم رؤساء دول[2].

وقد جرى العرف الدولي عند ذكر أسماء رؤساء الدول أو مخاطبتهم أن يصحب ذلك ما يناسبهم من عبارات التبجيل والتفخيم والتكريم [3]. ويتمتع رئيس الدولة بنوعين من الحصانة، الأولى الحصانة من القوانين الداخلية التي يحدد نطاقها دستور الدولة، وحصانة دولية تحددها قواعد القانون الدولي[4]

(1) الدكتور علي صادق أبو هيف، القانون الدولي العام، القاهرة، ص 35.

(2) الدكتور احمد إبراهيم حلمي، الدبلوماسية، عالم الكتاب، القاهرة ص 174.

(3) فيخاطب البابا بصاحب القداسة والسلطان بصاحب العظمة والملك بصاحب الجلالة والأمير بصاحب السمو ورئيس الجمهورية بصاحب الفخامة.

(4) الدكتور مصطفى سلامة حسين، العلاقات الدولية، الإسكندرية 1984 ص 25.

أما الوضع القانوني للنبي ﷺ في المدينة، فهو بالإضافة إلى كونه النبي والرسول فهو الرئيس الأعلى في المدينة. غير انه لم يطلق على نفسه لقب الملك، كما كان أنبياء بني إسرائيل يطلقون على أنفسهم. فيطلق على داود عليه السلام لقب النبي والملك[1]. ولم يلقب النبي ﷺ بلقب الملك رغم ان هذا اللقب متداول ومعروف في زمانه عند العرب وغير العرب. على أساس ان الملك لله. وقد وردت العديد من الآيات في ذلك منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[2]. وقد وضح القران الكريم ان النبي ﷺ هو رسول والله تعالى هو الملك، لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3].

وإذا كان النبي ﷺ أعلى سلطة في المدينة وليس ملكا، ولا شيخ قبيلة، فما هو لقب السلطة التي يلقب بها أو يتمتع بها بالإضافة إلى النبي والرسول ؟ وبعبارة أوضح، ان النبي يقود المسلمين بحكم النبوة والرسالة التي آمنوا بها. وبالإضافة إلى المسلمين فانه يقود المشركين واليهود والنصارى في المدينة وهو المسؤول عن الأمن والاستقرار وحل المنازعات بين الأفراد والجماعات في المدينة. فالنبوة والرسالة تحكمان المسلمين ولا تحكمان غيرهم. وغيرهم محكوم بأوامر (محمد) فما هي الصفة التي يحكم بها (محمد) هؤلاء جميعا ؟.

وقد وجدنا أنه في العديد من الآيات قد وردت عبارة "الولي" منها قوله تعالى :﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾[4]. ومعنى الولي : مالك أو متولي أموركم[5]. فولي الناس هو الله تعالى ورسوله والمؤمنون على التوالي. لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

---

(1) تراجع: اسفار الملوك من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الرابع.

(2) سورة آل عمران الآية 189. وسورة المائدة الآية 17، والآية 18 وبالمعنى الآية 40، و120، وسورة التوبة الآية 116، وسورة النور الآية 42.

(3) سورة الأعراف الآية 158.

(4) سورة البقرة الآية 107.

(5) الشيخ حسنين محمد مخلوف صفوة البيان لمعاني القران، تفسير الكويت 1987، ص 27.

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1]. ومعنى ذلك وجوب اختصاصهم بالموالاة. واصل الكلام إنما وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الاصالة، ثم نظم في سلك إثباتها لرسول الله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع[2].

وبتقريب هذا المعنى نجد ان الولاية العليا على الناس هي لله ومن ثم للرسول ومن بعده للمؤمنين . وهي ليست في أمور الدين بل إنها تشمل أمور القيادة. لذلك منع الله تعالى ان يكون المسلم تحت قيادة غير المسلم. فقد وردت العديد من الآيات التي تؤكد ذلك. منها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]. فالمنع الوارد في هذه الآية ليس ان يتبع المؤمن الكافر في أمور الدين لان ذلك مفروغ منه، إنما المنع هو ان يقود الكافر المؤمن. والعكس جائز.

من ذلك ان النبي ﷺ يتمتع بحق الولاية العامة على المسلمين وغير المسلمين في الأقاليم الخاضعة لسلطته. وهذا ما نعتقد انه جعل العلاقة بين الأب وابنه القاصر تسمى بالولاية والأب يسمى بالولي، وهي ليست ولاية دينية يتولى فيها الولي أداء الواجبات الدينية عن ابنه، وإنما هي رعاية الولي لابنه القاصر في أمور الحياة. وهذا ما يفسر لنا إطلاق وصف الولاة على الحكام الذين بعث بهم النبي ﷺ إلى الأقاليم الإسلامية، ولكنها ولاية خاصة بالإقليم الخاضع للحاكم.

وبناء على ذلك فان النبي ﷺ يتمتع بالإضافة إلى صفة النبي والرسول بصفة الولاية العامة في المدينة وهو ما يطابق وصف رئيس الدولة في الوقت الحاضر. فالدولة طبقا للقانون الدولي تتكون من ثلاثة أركان، هي الشعب والأرض والنظام السياسي والقانوني الذي يتولى إدارتها[4]. وتنطبق هذه الأركان على المدينة، ففيها الشعب والأرض والنظام السياسي والقانوني الذي يتولى النبي ﷺ إدارته .

---

(1) سورة المائدة الآية 55.

(2) الكشاف المجلد الأول، مصدر سابق، ص 623.

(3) سورة النساء الآية 144.

(4) يراجع عن اركان الدولة : J.G. Starke,opcit.p.101

ومجتمع المدينة وما يتبعها من مدن ومقاطعات، تعد دولة في المفهوم الحديث للدولة طبقا للقانون الدولي المعاصر. ولما كان لكل دولة رئيسها، فان النبي ﷺ هو رئيس دولة إضافة إلى صفتي النبي والرسول. وتختلف سلطة النبي والرسول عن سلطة الولاية أو ما سميناه بالمفهوم الحديث برئيس الدولة. ذلك ان كلاً من سلطتي النبوة والرسول مستمدتان من الله تعالى. بينما تستمد سلطة الولاية من قبول الناس، من مسلمين وغير مسلمين. من اجل تنظيم أمورهم. وبدون هذه السلطة لا يمكن ان تستقر الأمور.

وإذا كان النبي يحمل صفة رسول الله بالنسبة للمسلمين والولي للجميع بوصفه رئيس دولة للمسلمين وغير المسلمين. فإن من جاء من بعده أطلق عليهم لقب الخلفاء . أي انهم خلفاء الرسول في السلطتين الخاصة بالمسلمين وهما الاستمرار بتطبيق الرسالة التي نزلت على النبي ﷺ والولاية التي يخضع لها الجميع.

ثانياً : اختصاصات النبي ﷺ بصفته رئيس الدولة

يتمتع رئيس الدولة بعدة اختصاصات في الوقت الحاضر. ويتمتع النبي ﷺ بصفته رئيس الدولة بهذه الاختصاصات. ومنها:

1 ـ إصدار الأوامر والتعليمات

يعد رئيس الدولة أعلى سلطة في الدولة الحديثة، فهو الرئيس الأعلى للسلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية. حيث تنص غالبية دساتير الدول على ان القوانين لا تصدر من الدولة إلا بعد التوقيع عليها من قبله كما انه هو الذي يعين الوزراء وأعضاء السلطة التنفيذية ويعين القضاة.

ويعد النبي ﷺ المصدر الأول الذي تنزل عليه القوانين من الله تعالى وهو الذي يبلغها للناس كافة. وهو الذي يعين الولاة والعمال والقضاة. وان اختلفت من حيث الموضوع إلا إنها من الناحية الشكلية تعد اختصاصات متقاربة من اختصاصات رئيس الدولة الحديثة.

2 ـ تعيين المحافظين والولاة

يختص رئيس الدولة بتعيين ممثلين له في المدن والمقاطعات لإدارة شؤونها نيابة عنه. ويختلف اسم هؤلاء من دولة لدولة فقد يطلق عليه حاكم الولاية او المحافظ او رئيس البلدية أو الوالي بحسب دستور كل دولة .

وكان النبي ﷺ يعين ممثلين له في المدن والأمصار التابعة للدولة الإسلامية في عهده ويطلق عليهم لقب الوالي أو القاضي أو العامل. فقد ورد عن أبي موسى الاشعري انه قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين يا رسول الله، امرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل. وقال الآخر مثل ذلك، فقال النبي ﷺ : " إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأله ولا أحدا حرص عليه "[1].

وكان اختيار الولاة لا ينم عن القدرة والفهم في أمور الدين فحسب، بل القدرة على الإدارة وقوة الشخصية. فقد روي عن أبي ذر الغفاري رحمه الله، انه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟. قال فضرب النبي صلى الله عليه وسلم على منكبيه وقال: " يا أبا ذرّ انك ضعيف وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها "[2].

وبعد وفاة النبي ﷺ ظهر مصطلح الخلافة ولقب الرئيس من قريش بالخليفة أو أمير المؤمنين ، كالخلافة الأموية والخلافة العباسية في الأندلس. وعندما كانوا يقومون بتعيين ممثلين لهم في أقاليم الدولة الإسلامية يطلقون عليهم لقب الولاة أو العمال. كما استخدم مصطلح السلطنة كالسلطنة العثمانية.

3 ـ ضمان الأمن والاستقرار

من واجبات رئيس الدول ان يوطد الأمن والاستقرار في دولته. ذلك ان المواطن عندما يشعر بالطمأنينة والاستقرار يشعر بأنه في ظل نظام يحميه ويضمن له الحياة

(1) صحيح مسلم ج3 ص1456.

(2) صحيح مسلم ج3 ص 1457.

المستقرة الكريمة، وان تطبيق سيادة القانون وتحقيق الوحدة الوطنية وفرض أجواء الأمن والاستقرار مظهر من مظاهر الدولة الحديثة.

عندما كان النبي ﷺ في مكة لم يعقد سوى معاهدتين سريتين مع أهل المدينة. وأولى تلك المعاهدتين، المعاهدة المعقودة قبل سنتين من الهجرة النبوية للمدينة، عندما جاء وفد من "يثرب" إلى مكة وقابلوا النبي ﷺ سرا. وعقدوا معه معاهدة تحالف، واستقر الراي على الهجرة إلى "يثرب". وقد طلب من أهل "يثرب" ان يكتموا الأمر وأخبرهم أنه سيلحق بهم في وقت قريب[1]. وفي الموسم الثاني عقد معاهدة مع الأوس والخزرج سميت ببيعة العقبة الثانية. وقد طلب بعضهم عهدا من النبي ﷺ بأن لا يدعهم إذا اظهره الله[2]. وعندما حالفهم قال لهم :"الدم الدم والهدم الهدم، انتم مني وانا منكم، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم"[3].

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، لم تكن أحوال المدينة مثل ما كانت عليه أحوال مكة. فلم يكن فيها حكومة مشابهة لحكومة الملأ في مكة، ولا سلطة سياسية قادرة على فرض إرادتها على سكان المدينة ولا جيش منظم يحميها. وكان أهلها ينقسمون إلى أربعة أقسام. هم الأنصار من الاوس والخزرج الذين نصروا النبي ﷺ وآمنوا به وتناسوا ما كان بينهم من عداوة، والمهاجرون الذين جاءوا معه من أهل مكة، والمنافقون الذين ظلوا يترددون بين الإسلام والشرك، واليهود . وقد آخى النبيﷺ بين المهاجرين والأنصار. ووفّق إلى ما هو اعظم من ذلك عندما عقد حلفا بين جميع سكان المدينة من المسلمين واليهود والمشركين.

وقد ظهرت قدرة النبي ﷺ كرئيس دولة على التوفيق بين الأضداد المتصارعة. فقد تمكن من تحقيق الوحدة الوطنية قبل ان يحقق الوحدة الدينية .فعقد حلفا بين

---

(1) نصري سهلب، مصدر سابق، ص 156.

وللتفاصيل حول المعاهدات التي عقدها النبي محمد صلى الله عليه وسلم يراجع على حسينعلي الاحمدي، مصدر سابق، ص 41.

(2) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول صورة مقتبسة في القران الكريم، ج2 مطبعة الاستقامة ص4.

(3) ابن الأثير ج2، مرجع سابق، ص 98.

جميع سكان المدينة من المسلمين واليهود والمشركين. وأصبحت له سلطة الحكم، وقام بمهام رئيس الدولة. ولم تكن سلطته على المسلمين فحسب بل إنها شملت كل الفئات الموجودة داخل المدينة. ومن هذه الزاوية نقول ان النبي ﷺ كان يحكم الجميع لا بصفته نبياً أو رسولاً وإنما كرئيس دولة. لان النبوة والرسالة لا تحكمان إلا المسلمين، بينما سلطة رئيس الدولة كانت تحكم الجميع من مسلمين ومشركين ويهود[1] والمؤلفة قلوبهم[2]. لا فرضا عليهم وإنما باختيارهم. ويمكن ان نقول ان سلطة النبي ﷺ كرئيس دولة جاءت عن طريق الاختيار، أو ما نطلق عليه في المفهوم الحديث، جاءت عن طريق الانتخاب.

وبذلك فقد استطاع النبي ﷺ ان يحول المدينة إلى دولة نموذجية فيها قرابة الإيمان بين المسلمين بدلاً من قرابة الرحم[3]، وقرابة الوطن لجميع السكان بمختلف أديانهم بدلا من قرابة الدم. والنجاح الذي أحرزه في الوحدة الوطنية لا تقل أهميته عن نجاحه في تحويل العرب من عبادة الأصنام إلى عبادة الله. فكانت رسالته لا تقتصر على نشر الدين الجديد فحسب، بل إنها تهدف إلى إنشاء نظام جديد ودولة جديدة على أساس وحدة الوطن، ينضوي تحت لوائها جميع الناس بمختلف انتماءاتهم القبلية والدينية، ويعيشون في ظل نظام سياسي واجتماعي واقتصادي متكامل. فأصبحت دولة المدينة مركزا للانطلاق في سبيل نشر الدين الإسلامي وأنموذجا وطنيا تتآخى فيها الأضداد

---

(1) وقد وجد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ان لليهود ثقلا سياسيا وماليا وعسكريا في المدينة ولهم تحالفات مع القبائل العربية. فتلطف معهم ووادعهم وعاهدهم واقرهم على دينهم واموالهم. يراجع : محمد لطفي جمعة، مصدر سابق، ص 75.

(2) وقد اعطى النبي محمد صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنائم وكانوا اشرافا من الناس يتألفهم ويتألف قلوبهم. يراجع : عبد السلام هارون، مصدر سابق، ص 421.

(3) وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قائمة على أساس الدين والتوارث بينهم بعد الممات بحيث يكون اثر الاخوة الإسلامية في ذلك اقوى من اثر قرابة الرحم. وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة إلى موقعة بدر الكبرى حيث نزلت الآية الكريمة : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة الأنفال الآية 75. ويراجع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مصدر سابق، ص 155.

لتكون مجتمعا جديدا رياديا تتوجه إليه أنظار العرب، وتنهل من معينه، لتكون أمة العرب أمة يحسب لها حساب لا مجرّدَ أمة بين الأمم القائمة في ذلك الوقت فحسب، بل في مقدمتها لتقودها نحو الأفضل ولتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وقد نجح النبي ﷺ في مهمته هذه نجاحا كبيرا لما يمتلكه من خبرة واسعة، فهو لم يخدم مصلحة غير مصلحة الدين والجماعة. وكان يقبل المعارضة من غير ملل أو تبرم، ويبتسم لعدوه، ويجادله في مداراة واتقاء من غير نفاق ولا رياء، وكان يفهم سياسة الفرد والجماعة على أنها قضية من القضايا التي تحل على أساس المنطق والعدل، وكان سلاحه الماضي في حلها الصراحة والحق. واقتبس الحلول السياسية من القضايا التي فصل فيها أثناء حياته. فصاحب الحق في نظره يجب ان يأخذ الحق كاملا وعلى غاصبه أن يرده غير منقوص[1] .

وبعد أن هاجر النبي ﷺ إلى "يثرب" فان أول عمل قام به هو انه وحد بين الأوس والخزرج وربطهم بمعاهدة قوية ووحدة اجتماعية وأطلق عليهم جميعا لقب الأنصار لأنهم نصروه. وبذلك فقد طوى صفحات قديمة من الصراع المسلح الذي كان قائما بين الاوس والخزرج. وتمكن من ربطهم برابطة الدين الذي وحدهم وقضى على الفتن التي كانت تعصف بمجتمع يثرب وتمزقه. والتي كان اليهود وراءها، كما قضى على التشرذم والحروب الدامية التي كانت مستمرة بين الاوس والخزرج والتي كان اليهود يؤججونها كي يتمكنوا من السيطرة على الطرفين وإضعاف قوتهم.

وقد كانت وحدة الاوس والخزرج أول معاهدة يضعها النبي ﷺ بعد دخوله يثرب. ونحن نطلق على هذا العمل اسم المعاهدة رغم ان المعاهدة لا تعقد إلا بين شخصين قانونيين دوليين، ذلك لأن القبائل لها شخصية قانونية مستقلة وهي من الناحية القانونية والسياسية والعملية تمثل دولا مستقلة. فالتعاقد بين القبائل العربية إنما يمثل التعاقد بين دول مستقلة.

---

(1) محمد لطفي جمعة، مصدر سابق، ص 661.

وقد وجد النبي ﷺ ان اليهود في المدينة لهم شان كبير، وانهم احسنوا استقباله املا في استدراجه إلى صفوفهم. ولهذا فقد بادر إلى رد تحيتهم بمثلها وتوثيق صلاته بهم لأنهم الطبقة المثقفة في يثرب. وبحكم ذلك ينبغي عليهم ان يتفهموا حكم الشرع الإسلامي وأن يكونوا أول من يؤمن به، لأنهم أهل الكتاب الموحدون، ولان الديانة اليهودية ديانة مغلقة على بني إسرائيل لا تعتمد التبشير كوسيلة لنشرها بين القبائل العربية الساكنة في يثرب، فان النبي ﷺ لم يخش اليهود وفضل التقرب إليهم أملا في إمكانية كسبهم.

وبناء على ذلك فقد وثق النبي ﷺ صلاته باليهود وتقرب إلى رؤسائهم وتقرب إلى كبرائهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة. وورد انه كان يصوم يوم صومهم وكانت قبلته في الصلاة ما تزال بيت المقدس التي هي قبلتهم. وما كانت الأيام إلاّ لتزيد اليهود له مودة وقربى. كما ان سيرته وعظم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه ، وبره بالفقير والبائس والمحروم وما حصل عليه من قوة، وسلطان على أهل يثرب. كل هذه الأمور خلقت روابط سياسية بينه وبينهم نُظمت بوثائق ثابتة[1].

وبناء على ذلك فقد نظم النبي ﷺ الوضع السياسي والاجتماعي داخل المدينة وخلق تحالفا ووحدة اجتماعية وسياسية بين سكان المدينة وعقد معاهدة بين الاوس والخزرج ووادع اليهود فيها واقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم[2].

وبذلك فقد حول النبي ﷺ مجتمع المدينة من مجتمع مكون من مجموعات سياسية وقانونية منفصلة عن بعضها، كل مجموعة تمثل وحدة سياسية وقانونية واجتماعية منفصلة لها مقومات الدولة المستقلة إلى مجتمع موحد يخضع لإدارة سياسية وقانونية موحدة تتمتع بوحدة الدولة الواحدة. ويمكن ان نسمي هذا التجمع الذي وحده النبي ﷺ بالتجمع العربي في المدينة. أما اليهود فعلى الرغم من وجود موادعة معهم إلا انهم ليسوا ضمن نطاق التجمع العربي الموحد في المدينة، لأنهم لم يكونوا شركاء أو أطرافا في المعاهدة التي عقدت بين الاوس والخزرج، وإنما كانوا خارج هذا التحالف،

(1) محمد حسن هيكل، مصدر سابق، ص 224.

(2) الدكتور محمد حميد الله، مصدر سابق، ص 44.

لان الموادعة شيء والمعاهدة شيء آخر ﷺ لم يعقد حلفاً مع اليهود وإنما وادعهم فقط. كما أن اليهود كانوا مستقلين بديانتهم وتجمعاتهم السكانية وتحالفاتهم وأعمالهم وكان لهم قضاء مستقل ومرجعية قبلية وسياسية مستقلة عن المسلمين. إلا انهم توادعوا مع النبي ﷺ واتفقوا في أمور معينة وحصلوا على بعض مظاهر الاستقلال.

وقد جاء بالمعاهدة التي عقدها النبي ﷺ في المدينة ما يأتي: "ومن تبعنا من يهود فان لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ... وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته... وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ... وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لاتجار حرمة إلا بأذن أهلها ... وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثا او يؤويه وان نصره أو آواه ...".

ومن هنا يتضح ان وضع اليهود في المدينة لم يكن كوضع الاوس والخزرج من مسلمين وغير مسلمين. وهذه المعاهدة لم يكن اليهود طرفا فيها، ولهذا فإنها وادعت اليهود ومنحتهم وضعا قانونيا خاصا بهم لم يدمجهم بمجتمع المدينة. وعلى الرغم من ان اليهود لم يكونوا طرفا في هذه المعاهدة إلا انهم ملتزمون بتطبيق أحكامها، لان وضعهم داخل المدينة يعد وضعا شاذا، فهم ليسوا من السكان الأصليين وعليهم القبول بما يقرره أهل المدينة من أحكام.

ان المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ مع أهل المدينة تعد معاهدة دولية من الناحية القانونية، لأنها عقدت بين شخصيات قانونية مستقلة اتفقت على الانضمام إلى دولة موحدة تخضع لرئيس دولة مع المحافظة على حقوق الآخرين. وبذلك فقد حولت هذه المعاهدة المدينة إلى مجتمع دولة واحدة. وهذه المعاهدة تعد بمثابة دستور دولة نظم

السلطة وإدارتها وحقوق أطرافها، وحددت حقوق والتزامات كل الأطرف فيها وحقوق الآخرين الساكنين فيها.

وقد اتسمت المعاهدة بين الاوس والخزرج بالعدالة وتحقيق الأمن والاستقرار والتضامن بين جميع سكان المدينة بمختلف الطوائف والأديان[1].

ومن المنجزات التي حققتها المعاهدة ما يأتي :

1. العرب أمة واحدة في مواجهة الآخرين، بعد ان كانوا منقسمين إلى فئتين هما الأوس والخزرج.
2. لا ينصر كافر على أهل المدينة.
3. تفرغ النبي ﷺ لتنظيم العلاقة بين المسلمين وخلق روابط المحبة والألفة بينهم.
4. تفرغ النبي ﷺ لنشر الرسالة الإسلامية داخل المدينة وخارجها في عهد جديد بدون خوف أو إرهاب.
5. أمن المسلمون على أموالهم وذراريهم.
6. جاءت المعاهدة بفكرة الحياد. فقد حيدت المعاهدة اليهود، فكان عليهم الاّ يكونوا معه أو ضده، ولا يلزمهم الدفاع عنه أو الهجوم معه، ولا يشاركون من يحاربه[2].

ولما رأى اليهود نجاح الدعوة الإسلامية وان النبي ﷺ قد مضى في نشر رسالته وان قوة الدين قد زادت، بدأوا يتهربون من تطبيق أحكام العهد، وراحوا يعملون على التفرقة بين المسلمين وتعاونوا مع قريش وغيرها ضد المسلمين في المدينة، مما جعلهم بأفعالهم هذه ينقضون دستور المدينة الأمر الذي دفع النبي ﷺ إلى طردهم من المدينة، فبدأ ببني قينقاع ومن بعدهم بني قريظة ثم بني النضير[3].

---

(1) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مصدر سابق، ص 161.

(2) محمد لطفي جمعة، مصدر سابق، ص 709.

(3) محمد رضا، مصدر سابق، ص 181.

ان الإجراءات القانونية التي اتخذها النبي ﷺ لتكوين نواة الدولة في المدينة ، تعد إجراءات قانونية سليمة من ناحية القانون الدولي المعاصر. ذلك ان بعض الدول تكونت نتيجة عقد معاهدات بين دول متعددة لتكوين دولة كبيرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول. وكان اليهود أول من وافق على هذا الإجراء ولم يعترضوا عليه عند قيام دولة المدينة. لذلك كانت المعاهدة التي عقدها النبي ﷺ بين أطراف سكان المدينة الأصليين لها قيمة قانونية كبيرة. وبما أن إنشاء الدولة في المدينة كان سليما ، فان لها الحق في ان تتجه صوب الدول الأخرى وتخاطبهم.

4 ـ الزواج السياسي

من الأمور المتبعة بين رؤساء الدول منذ القدم هو الزواج السياسي أو المصاهرة السياسية. وهو ان يتزوج رئيس دولة من إحدى نساء دولة أخرى من اجل إقامة علاقات سياسية جيدة بينهما وكسب الود بين الشعبين. وقد كانت هذه الحالة إلى وقت قريب مطبقة في أوروبا وأطلقوا عليها الزواج السياسي.

وكان تعدد زوجات النبي ﷺ لزيادة الروابط بينه وبين القبائل العربية ، وهو دليل على اتساع الإسلام ليشمل المسيحية واليهودية ، وانه دين غير منغلق على العرب أو المسلمين فحسب. مثل اليهودية التي حرمت التوراة فيها زواج اليهودي من غير اليهودية[1].

وكان من أسباب محاربة اليهود لسليمان هو انه تزوج من غير اليهوديات.

وقد كان لزواج النبي محمد بعدد من النساء من مختلف القبائل والمناطق الأثر الكبير في تمتين أواصر المودة والمحبة بينة وبين تلك القبائل والمناطق.

5 ـ مقر رئاسة الدولة

لكل رئيس دولة مقر يمارس فيه أعماله الرسمية. ويتفاخر رؤساء الدول ببناء القصور الشاهقة لمقار عملهم.

---

(1) يراجع سفر الخروج .

ومنذ ان وصل النبي ﷺ المدينة شرع ببناء أول مسجد في الإسلام ليكون للعبادة ومقرا سياسيا لإدارة الدولة الإسلامية ، حتى اصبح هذا المسجد مركزا لإدارة الدولة الإسلامية عموما. وكانت قرارات الدولة تصدر منه .

وفي الوقت الحاضر فإن رئيس الدولة يستقبل رؤساء البعثات الأجنبية في دولته والمبعوثين الدبلوماسيين في البعثات الخاصة. كما انه يرسل المبعوثين الذين يمثلونه إلى رؤساء الدول الأجانب لتمثيله لديهم .

وكان النبي ﷺ يستقبل المبعوثين المرسلين إليه من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. كما انه كان يختار المبعوثين الذين يمثلونه ويرسلهم للملوك والأمراء ورؤساء القبائل[1].

6 ـ علم الدولة

لكل دولة في الوقت الحاضر علم يميزها عن بقية الدول الأخرى. وتصدر الدول قوانين خاصة بتعيين ألوان العلم وأبعاده .

وقد اختار النبي ﷺ علما سماه العقاب ،أسود اللون مربع الأبعاد. وعلما آخر ابيض قيل أنه جعل عليه شيئا اسود ، وقيل علم ابيض مكتوب عليه " لا اله إلا الله محمد رسول الله "[2].وكان يختار لكل حملة عسكرية علما ليكون شعاراً لها .

7 – ضمان امن المنطقة

بعد ان أصبحت المدينة مقرا للحكومة الجديدة، كان لابد للنبي ﷺ ان يعمل على توفير أمن المنطقة واستقرار النظام فيها من اجل ان يتفرغ كليا لنشر الإسلام، فقام بتشكيل سرايا لاستطلاع المنطقة ، منها سرية عبيدة بن الحارث، وهي اول سرية

(1) سيرد تفصيل ذلك في الفصول اللاحقة.

(2) الشيخ عبد الحي كتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ج1 دار احياء التراث العربي ببروت، ص 85.

بعثها النبي ﷺ، وسرية حمزة إلى سيف البحر، وسرية سعد بن ابي وقاص وسرية عبد الله بن جحش[1].

ومن المشاكل التي واجهها النبي ﷺ مشكلة عرب نجد والقبائل المتحالفة مع قريش. فقد تميز عرب نجد بالخشونة والجرأة، وكانوا يشنون الغارات على المدينة، ورأى النبي ﷺ ان خير وسيلة هي مهاجمتهم عندما يشعر أنهم في وضع الاستعداد للغارة على المسلمين. وتعد هذه الوسيلة في عرف العسكريين سياسة دفاعية عملا بمبدأ " الهجوم خير وسيلة للدفاع ". فإذا سمع النبي ﷺ بتجمعهم جمع سراياه وهاجمهم وفرقهم[2].

أما بالنسبة للقبائل المتحالفة مع قريش، فقد حرصت هذه القبائل على بقاء تحالفها مع قريش. وكانت قريش تدفع هذه القبائل للصراع مع النبي ﷺ، وتهددها بقطع الملاقات معها. وقد استطاع النبي ﷺ ان يحيد بعض هذه القبائل، إلا ان البعض الآخر منها كان يغير بين الحين والآخر على المسلمين في المدينة. وكانت بعض هذه الغارات تصيب المسلمين بخسائر كبيرة .كما إنها كانت تمطل استعداد المسلمين لملاقاة قريش. لذا فقد عزم النبي ﷺ على مهاجمتها والتخلص من خطورتها. مما دفعها إلى اتخاذ موقف الحياد الدائم[3].

وعقد النبي ﷺ العديد من معاهدات حسن الجوار مع القوى الدينية او السياسية المجاورة للمدينة. ذلك ان الهدف من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة لم يكن من اجل إسلام أهلها فحسب، بل لتمتد الدعوة الإسلامية إلى جميع المخاطبين بها. وبعد ان استتب الأمر في المدينة بعد المعاهدة التي عقدها مع جميع الأطراف العربية التي يتكون منها مجتمع المدينة، اصبح من الضرورة ان يضمن منطقة أمان حول المدينة لكي يبعدها عن

---

(1) عبد السلام هارون، مصدر سابق، ص 186.

(2) محمد فرج، الاستراتيجية العسكرية الإسلامية. النظرية والتطبيق. منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1975ص125.

(3) يراجع محمد فرج، مصدر سابق، ص 124

احتمالات تحالفات الجوار مع أعداء المسلمين، وهذا يتطلب بالتأكيد ان تمتد الدعوة إلى المناطق القريبة والبعيدة من المدينة. ولهذا فقد اتجه إلى عقد العديد من المعاهدات مع القبائل القريبة أو المجاورة للمدينة. ومنها :

1. معاهدة مع بني ضمرة وينبع .
2. معاهدة مع أهل جرباء وأذرج .
3. معاهدة مع نصارى نجران .
4. تعهد لبني ثقيف .

ثالثاً: مكاتب رئيس الدولة وسجل التشريفات في عهد النبي محمد ﷺ

تعتمد المؤسسات السياسية والإدارية الحديثة مكاتب يطلق عليها المكاتب الخاصة أو شعبة التشريفات أو الاستقبال وغيرها من المسميات، وتضم هذه المكاتب مجموعة من المتخصصين والموظفين الأكفياء ممن اتصفوا بالأمانة وكتمان الأسرار والعمل بإخلاص وتفان، وهم يعملون تحت إدارة وتوجيه قائد المؤسسة بصورة مباشرة، ويؤتمنون على جميع القضايا والموضوعات والمذكرات والرسائل ولا يفشون أسرار الأعمال التي يطلعون عليها للغير.

وإذا كان المكتب الخاص والتشريفات عملا عصريا دأبت عليه الدول المتطورة، فإن النبي ﷺ قد سبق هذا التطور قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة. فشكل مكتبا خاصا متطورا يتبع له بصورة مباشرة وان لم يطلق عليه هذا الاسم. ويشمل هذا المكتب المؤسسات الآتية:

1 ـ ديوان الإنشاء

لم تكن مسألة إنشاء الدواوين معروفة عند العرب قبل الإسلام. وقد جمع النبيﷺ مجموعة من الصحابة من أصحاب المعرفة والخبرة والأمان ليعملوا تحت إشرافه بصورة مباشرة. وكان عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وزيرين للنبيﷺ [1].

وقيل أنه كان للنبي ﷺ خمسة وعشرون كاتبا وقيل اثنان وأربعون. وذكر بان له مائة غلام كل غلام يتكلم لغة خاصة[2]. وأول من كتب للنبي ﷺ هو أبيّ بن كعب[3]، وأخص من كتب له ولازمه معاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت والأرقم بن أبي الأرقم[4]. وكان يأمر الأرقم بان يكتب إلى بعض الملوك وان يختم المذكرات ويقرأها عليه لأمانته[5]. ويتولى معاوية كتابة المذكرات إلى البوادي[6].

وتعمل الدول في الوقت الحاضر على ترجمة المذكرات والوثائق من خلال موظفين من مواطنيها المقربين للدولة، ذلك ان ترجمة الوثائق قد تسرب المعلومات الواردة فيها، فالمترجمون غالبا ما يكونون هدفا للمخابرات الأجنبية.

أما بالنسبة للمذكرات المكتوبة بلغة غير العربية. فقد وجد النبي ﷺ ان ترجمتها أو تعريبها قد يؤديان إلى إفشاء الأسرار الواردة فيها. ولهذا فقد قال لزيد بن ثابت : " تأتيني كتب لا احب ان يقرأها كل احد فهل تستطيع ان تتعلم العبرانية " أو

(1) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 17.

(2) منهم على بن ابي طالب وابو بكر وعمر وعثمان وعامر بن فهير وعبد الله بن الأرقم وابي كعب وثابت بن قيس بن شماس وخالد بن سعيد بن العاص واخوه حبان وحنظلة بن ابي عامر الأسدي وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن أبي سلول والزبير بن العوام والمغيرة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص. يراجع : الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 115و395.

(3) ابن الأثير، مرجع سابق، ص 313.

(4) يوسف بن إسماعيل النبهاني، مصدر سابق، ص 165.

(5) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 121.

(6) المصدر السابق، ص122.

قال : " السريانية ". فقال زيد نعم فتعلمها في سبع عشرة ليلة[1]. وقيل انه تعلم العبرية والسريانية[2].

وكان الكتاب يعرفون ما الذي يرغب به النبي ﷺ وما لا يرغب به. وكان معاوية إذا رأى إعراضا من النبي ﷺ وضع القلم على الأرض فنظر إليه النبي ﷺ وقال له : " يا معاوية إذا كنت كاتبا فضع القلم على أذنك فإنه اذكر لك وللمملي ". وقال انس بن مالك، قال النبي ﷺ: " ضع القلم على أذنك فإنه اذكر لك[3].

وكان الإمام علي بن أبي طالب كاتب النبي ﷺ لمعاهدات ومواثيق الصلح وبعض الرسائل. وكان خالد بن سعيد بن العاص أول من كتب للنبي ﷺ. وأول من كتب " بسم الله الرحمن الرحيم". وأكثرهم كتابة الأرقم بن الأرقم. أما كعب بن أبي كعب فهو أول من كتب في آخر المذكرات " كتب فلان ".

ويضم المكتب الخاص سجلا للقضايا الدبلوماسية يطلق عليه " ديوان الإنشاء ". وهو أول ديوان وضع في الإسلام. يتضمن مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. ومعاهدات الهدنة مع قريش عام الحديبية وكتب الأمانات، وهذه الوثائق كلها متعلقة بديوان الإنشاء، بخلاف ديوان الجيش، فان أول من وضعه ورتبه هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4].

ويتألف المكتب الخاص من مجموعة من الكتبة المتخصصين الذين يقومون بكتابة الوثائق والمراسلات والعقود والعهود. وكان كل منهم متخصصاً في عمل محدد فمنهم من كان يهتم بتحرير المذكرات ومنهم من تخصص بتحرير المعاهدات والمداينات المالية والمنح والعطايا التي كانت تعطى إلى أمراء المقاتلين، ومنهم من كان

(1) الشيخ عبد الحي الكتاني ، المصدر السابق ، ص 120.

(2) محمود شيت خطاب، مصدر سابق، ص 245.

(3) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 125.

(4) المصدر السابق ، ص118.

يتولى كتابة قوائم المحاربين في الجيش ومقدار العطاء لكل محارب، وما يحتاجه لتجهيز نفسه للحرب من خيل وأدوات قتال[1].

ويضم المكتب الخاص عددا من المترجمين الذين يقومون بأعمال الكتابة باللغات غير العربية. وترجمة الرسائل التي ترد للنبي ﷺ. ويقومون بترجمة الأحاديث والخطب المتبادلة بين النبي ﷺ والوفود القادمة إليه[2].

2 ـ أمين السر

يتخذ كبار المسؤولين في الدولة شخصا يطلق عليه أمين السر أو مدير المكتب أو الحاجب أو السكرتير. وهو يتمتع بلباقة كبيرة ولياقة شخصية ومعرفة واسعة بالناس. ليكون واسطة بين الناس وبين المسؤول، ويتابع تنفيذ الأوامر الصادرة، ويقوم بالإتصال بالقادة والأمراء والتبليغ عن الإجتماعات، والتذكير بالمواعيد واللقاءات وغيرها من الأعمال المتصلة بالمسؤول.

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ وحاجبه ولا يسمح بدخول أي شخص إلا بإذن منه. وكان على باب النبي ﷺ كل من ابي موسى الأشعري وربيعة بن كعب الأسلمي[3].

وهذه الوظيفة في الواقع لا تعد تكبرا أو تعاليا وإنما تتطلبها ضرورة العمل خاصة وان النبي ﷺ يجمع الصفة الدينية والسياسية والاقتصادية وان كل شئ لا يعمل إلا بأمر منه، فلو سمح لكل من أراد بالوصول إليه لعمت الفوضى وانصرف إلى أمور جانبية وترك الأمور المهمة. ولهذا فقد فعل النبي ﷺ جيدا عندما وضع امين سر وحاجباً له.

(1) محمد عمارة، محمد اول دستور للدولة الاسلامية، مجلة محمد نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1972ص 94.

(2) المصدر نفسه ص 95.

(3) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 20.

3ـ مراسيم استقبال الوفود

لم يتفق العرف الدبلوماسي على طريقة محددة لاستقبال الوفود التي تأتي لمقابلة رؤساء الدول أو المسؤولين . فقد جرى العرف الدبلوماسي على أن تكون لكل دولة طريقتها الخاصة باستقبال المبعوثين الأجانب. ويطلق على طريقة استقبال الوفود الأجانب اسم " المراسيم ". وقد يكون المبعوث الأجنبي رئيس دولة أو مسؤولا كبيرا أو سفيرا أو مستشارا أو غير ذلك. ولكل من هؤلاء تضع الدول إجراءات خاصة لاستقبالهم بحسب درجاتهم في المسؤولية. وتتولى دائرة التشريفات في وزارة الخارجية تعليم أو تدريب الوفد على الكيفية التي سيتم استقباله بها من قبل رئيس الدولة أو رئيس الوزراء. فتحدد له ساعة دخوله وخروجه والطريق الذي سيسلكه وما سيقوم به من إجراءات والمكان الذي سيجلس فيه وطريقة السلام. ويبدو ان هذه المراسيم قديمة في التاريخ.

ولم يغب عن الدولة الإسلامية الفتية استخدام مراسيم الاستقبال. فقد كان للمسلمين مراسيم خاصة بهم. إذ كانوا يعلمون الوفود التي تأتي لمقابلة النبي محمدﷺ مراسيم استقباله. فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعلم الوفود كيفية استقبال النبي محمد ﷺ، والسلام عليه واعتماد الوقار والسكينة عند لقاء النبي محمد ﷺ[1].

ان اعتماد النبي محمد ﷺ مراسيم الاستقبال إنما يدل على ان المسلمين قد عرفوا الأساليب الدبلوماسية وخبروها رغم انهم لم يعيشوا في ظل دولة متطورة يقتبسون منها مثل هذه المراسيم.

(1) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 39.

4 ـ صالة الاستقبال واللقاءات

من المعروف ان رؤساء الدول وكبار المسؤولين في الدولة ومكاتب البعثات الدبلوماسية، لا يستقبلون الوفود التي تأتي إليهم في بيوتهم الخاصة. كما أنهم لا يستقبلونهم في مكاتبهم الرسمية نظراً لما قد تحتويه هذه المكاتب من أمور سرية. ولهذا فان الدول تحرص على ان تخصص اماكن للاستقبال يطلق عليها صالة الاستقبال أو الزوار أو الوفود تكون في مقدمة البناية التي ينتظر فيها الوفد إلى حين السماح له بالدخول لاستقباله من قبل المسؤول الذي سيقابله الوفد. وغالبا ما تكون القاعة التي يستقبل فيها المسؤول الوفد قاعة خاصة هي الأخرى وليس في مكتبه الخاص، وهي قاعة مخصصة للمقابلات. وتكون مؤثثة بصورة جيدة.

ونظراً لأن المؤسسة أو المقر الرسمي الذي كانت تدار منه الدولة الإسلامية هو المسجد الذي بناه النبي ﷺ، فإن استقبال المبعوثين كان يتم في مكان خاص بُنيت له دكة من طين. كان يجلس عليها الرسول ﷺ ويجلس أصحابه بجانبه، وتعرف هذه الدكة حتى الآن باسطوانة الوفود. وكانت تجلس عليها وفود العرب إذا جاءته[1]. وقيل ان الكرسي الذي كان يجلس عليه قوامه من حديد[2].

ونعتقد ان عدم اهتمام النبي ﷺ بمكان استقبال الوفود التي تأتي إليه من مختلف المناطق هو عدم وجود قدرة مالية لبناء مكان يليق بها. كما أن جميع الوفود التي كانت تأتي إليه هي من الملوك والقبائل العربية.

5 ـ دار الضيافة " الضيفان "

تستضيف الدول في الوقت الحاضر الوفود التي تأتي إليها بمهمات خاصة بدور تابعة لها، يطلق عليها غالباً "دور الضيافة"، خاصة عندما يكون الوفد مكلفاً بمهمة

(1) الشيخ عبد الحي كتاني ج2، مصدر سابق، ص 79.
(2) المصدر نفسه، ص97.

سرية تتطلب حمايته والمحافظة على سرية المهمة المكلف بها ، وإبعاده عن وسائل الإعلام وتوفير الراحة له والاهتمام به.

وقد راعى النبي ﷺ هذه الناحية. فقد روي انه كان يسكن الوفود التي تأتي إليه في دور الصحابة. ومن هذه الدور دار عبد الرحمن بن عوف التي يقال لها " الدار الكبرى ". وقد سميت بالدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحد المهاجرين بالمدينة. وكان عبد الرحمن يستضيف فيها وفود النبي ﷺ. وكانت تسمى "دار الضيفان " فسرق منها بعض الوفود فشكى ذلك عبد الرحمن إلى النبي ﷺ. وقد بنى فيها بيده. وكذلك اتخذت دار رملة بنت الحارث النجارية لإسكان الوفود ويقدم للجميع الضيافة من الأكل والشرب[1]. وبذلك فقد انتهج النبي ﷺ اعرق الأعراف الدبلوماسية باهتمامه بإسكان وضيافة الوفود التي تأتي إليه.

6 ـ التوديع الدبلوماسي

من الأمور التي سار عليها العرف الدبلوماسي في الوقت الحاضر أن يودع الدبلوماسي الذي تنتهي مدته جميع العاملين في الحقل الدبلوماسي في الدولة المعتمد لديها سواء من التابعين للدولة المعتمد لديها أو الأجانب العاملين فيها. فليس من اللياقة ان يترك الدبلوماسي عمله بعد انتهاء مهمته دون توديع الآخرين.

وقال النبي ﷺ: "إذا خرج أحدكم إلى سفر فليودع إخوانه. فان الله جاعل له في وداعه بركة ". ومهما كان السفر طويلاً أو قصيراً فان على الشخص ان يودع إخوانه في الدين ويبدأ بأقاربه وذوي الصلاح ويسألهم الدعاء له[2].

وإذا كانت هذه القاعدة توجب على جميع المسلمين أن يودعوا بعضهم البعض قبل السفر فإنها تتطبق على من يعملون بالحقل الدبلوماسي. لأنها قاعدة أخلاقية.

(1) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 445. ومحمد عمارة، مصدر سابق، ص 96.

(2) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج1 ص 333.

الفصل الثاني

العلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد النبي ﷺ

تعد العلاقات الدولية في الوقت الحاضر من أهم ما يتميز به القانون الدولي المعاصر. وقد أقام الإسلام علاقات دبلوماسية دولية متطورة. فقد تمكن النبي ﷺ من إقامة دولة عصرية متطورة. فجمع أوصالاً متفرقة ومتناحرة من القبائل العربية التي لم تكن هي الأخرى قد عهدت نظاما دوليا كما هو الشأن بالنسبة للدول القائمة في ذلك الوقت، كالدولة الرومانية والدولة الفارسية. وقد تمكن النبي ﷺ ان يستحدث دولة بنظام قانوني داخلي ودولي يضاهي الدول المعاصرة له.

ولما كان الإسلام قد جاء بأحكام تفصيلية، فإن نشرها يتطلب الفهم والإدراك والتعمق في معرفة أحكامه من قبل المخاطبين به، وهذا الأمر لا يأتلف واستخدام القوة المسلحة، بل لابد من تهيئة الأجواء المناسبة التي تساعد المخاطب على فهم أحكام الشريعة الإسلامية بالشكل الصحيح. ولهذا فقد وقف الإسلام من مسألة الحرب والعدوان موقفا معارضا . ووضع الوسائل الدبلوماسية لإيصال محتواه إلى المخاطبين به بسهولة ويسر.

وبناء على ذلك فقد اتجهت مخاطبات النبي ﷺ إلى الأمم المتطورة التي شهدت أديانا سماوية ومؤسسات دينية. ولم يبدأ بالأمم المتخلفة التي لم تعرف الأديان، فلم يستخدم ما يطلق عليه في الوقت الحاضر " نظرية ملء الفراغ "، فالإسلام خاتم الأديان السماوية، وفهمه وإدراكه يتطلبان الوعي والقدرة والعلم والثقافة، وهذه المتطلبات لا يمكن توافرها إلا في الأمم المتطورة. ولهذا فقد بدأ النبي ﷺ بمخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل الذين بلغوا مرحلة متقدمة من الإدراك والوعي لفهم الدين الجديد ومعرفة أحكامه كما أنزلت.

وبناء على ذلك سنتناول في هذا الفصل وسائل العلاقات الدولية، وهي المفاوضات والمذكرات الدبلوماسية ثم نتناول نماذج من العلاقات الدولية في عهد النبي ﷺ.

المبحث الأول

وسائل العلاقات الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ

من أهم الوسائل الدبلوماسية في الوقت الحاضر، المفاوضات المباشرة والمذكرات الدبلوماسية. حيث يتم التخاطب بين الدول عن طريق اللقاءات المباشرة. كما تستخدم المذكرات الدبلوماسية كوسيلة مباشرة بين الدول.

وعلى الرغم من ان مصطلح المفاوضات غير مستخدم في اللغة العربية إلا ان مفهومها متداول. فقد استخدم النبي ﷺ المحاججة والجدل والإيضاح والتبصير وغيرها من الوسائل المباشرة بينه وبين اليهود والمسيحيين والمشركين من اجل إيضاح الدعوة الإسلامية للناس كافة. ذلك ان طبيعة الدعوة الإسلامية لا يمكن إيصالها إلا عن طريق مخاطبة العقول والضمائر.

كما استخدم النبي ﷺ المذكرات الدبلوماسية بالصورة المعروفة في الوقت الحاضر، لمخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل.

وسنتناول وسائل العلاقات الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ وهي المفاوضات المباشرة والمذكرات الرسمية في المطالب الآتية:

أولاً: المفاوضات المباشرة

تعد المفاوضات المباشرة Negotiation من أهم موضوعات الدبلوماسية، بل ان بعضهم يعرف الدبلوماسية: " بأنها فن المفاوضة ". والمفاوضات من أولى الوسائل الدبلوماسية لتسوية المنازعات الدولية التي عرفتها البشرية، فهي اقدم الوسائل السلمية للتفاهم بين الدول. لأنها تضع الأطراف المتنازعة وجها لوجه لتسوية نزاعها بصورة

مباشرة دون تدخل أي طرف آخر. فهي التي تقرر التسوية التي ترضي الطرفين طبقاً لمصالحهما الخاصة، كما أنها تحيط مفاوضاتها بالسرية التامة[1].

والمفاوضات المباشرة تعد القاعدة الأساسية لجميع الوسائل الدبلوماسية الأخرى[2]. وقد أوجب ميثاق الأمم المتحدة الأخذ بالمفاوضات أولا قبل أية وسيلة أخرى[3].

ولم تستخدم كلمة المفاوضات بالمعنى الاصطلاحي الحالي في الشريعة الإسلامية. فقد عربت كلمة Negotiation إلى المفاوضة، وهي لا تعطي المعنى المطلوب لها حتى في القانون الدولي المعاصر.

وقد أوجب الله تعالى على النبي ﷺ ان يلجأ إلى الحوار والجدل. والحوار اصطلاحا هو : ان يتناول الحديث طرفان فاكثر عن طريق السؤال والجواب بشرط وحدة الموضوع أو الهدف مما يؤدي بالنتيجة إلى وضع لا يقع فيه أحدهما في لبس مع الآخر[4]. أما الحوار القرآني فهو أسلوب يحكي محاورة كلامية بين طرفين أو يخبر عنها، هادفا إلى بيان معان إسلامية مقصودة ومحددة[5].

وقد قام الحوار القرآني على الأسس الآتية :

1. استعمال الحجة العقلية أو الجدل العقلي.
2. الاهتمام بالحوار الأخروي أو الوصفي.
3. استعمال السؤال والجواب

(1)L. Oppenheim. International Law. Vol. Lengman. London 1971 p. 7.

(2)Wesly L. Gould. An Introduction to Intrnational Law. New York, 1959,p. 539.

(3) المادة (33) من ميثاق الأمم المتحدة.

(4) الحوار لغة مراجعة الكلام في المخاطبة. والجدل لغة : اللد في الخصومة والقدرة عليها ، ويقال رجل مجادل إذا كان اقوى في الخصام.

يراجع: لسان العرب لابن منظور ج1 ص751.

ويراجع ايضا الشيخ عبد الرحمن النحلاوي، اصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع، ص 18.

(5) إسماعيل إبراهيم علي محمد السامرائي، الحوار في القران الكريم، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة الإسلامية، جامعة بغداد 1989 ص29.

4. الاعتماد على الحوار القصصي[1].

والجدل اصطلاحا: دفع المرء خصمه لإفساد قوله بحجة أو شبهة، يقصد بها تصحيح كلامه ،وهو الخصومة في الحقيقة. وهو علم يقتدر به على إبطال الحق وإحقاق الباطل، وقد استخدم القران الكريم الجدل وقيده بالحسن ليميزه عن الجدل الباطل الخالي من هذا القيد[2].

أما المجادلة من الجدل وهو بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة واصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله كأن المتجادلين يفتل كل منهما صاحبه. وقد وردت سورة في القران الكريم سميت ب " سورة المجادلة ". ووردت كلمة المجادلة في مواضع متعددة من القران الكريم، وجميع هذه الآيات قد رسمت للنبي ﷺ قواعد وأصول المفاوضات مع الآخرين. ومن القواعد التي وردت في المفاوضات ما يأتي :

1. تجنب الإكثار من المفاوضات في الأمور الواضحة لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[3]. أي يأتي منه الجدل خصومة بالباطل وانتصابه على التمييز[4].
2. ان تكون المفاوضات قائمة على الحجة المقنعة وان تكون المفاوضات قائمة على الوعظ والإرشاد واستخدام اللين. لقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[5]. أي اطلب إلى من بعثت إليهم إلى الإسلام بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة والموعظة الحسنة: أي الحجج المقنعة والعبر النافعة فالأولى لدعوة خواص الأمة

(1) للتفاصيل يراجع المصدر السابق ص37.
(2) المصدر نفسه، ص 21.
(3) سورة الكهف الآية 54.
(4) تفسير البيضاوي، انوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين ابي سعيد الشيرازي البيضاوي، ج3 مؤسسة شعبان، بيروت ص 238.
(5) سورة النحل الآية 125.

الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم. وجادلهم: أي جادل معانديهم بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأكثر يُسراً والمقدمات التي هي اشهر فان ذلك انفع لإقناعهم [1].

وبذلك فان تفسير علماء المسلمين لهذه الاية، يوجب المفاوضة على المفاوض بالكلام الموثق، والحجج المقنعة، واللجوء إلى افضل الطرق والوسائل لإقناع الطرف الآخر بروح مليئة بالرفق واللين والوصول إليه بأيسر الطرق واسهلها، والعمل على تليين نفس المقابل وتخليه عن تعنته.

3. ومن صفات الجدل في الإسلام عدم الإطالة فيه، وعدم إعطاء الوعود التي يعجز عنها، لقوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2]. أي خاصمتنا فأكثرت جدالنا فأطلته أو أتيت بأنواعه فأتنا بما تعدنا من العذاب ان كنت من الصادقين في الدعوى والوعيد فان مناظرتك لا تؤثر فينا[3].

4. الامتناع عن مجادلة الأشخاص الذين لا يرجى منهم فائدة. وينبغي ان يكون التفاوض مؤثرا أي بالإمكان إقناع الطرف الآخر وان يستحق هذه المجادلة لقوله تعالى : ﴿ولا تجادل عن الذين يختانونَ أنفسهم ان الله لا يحب من كانَ خوّانا أثيما﴾[4]. أي لا تجادل عن الذين يخونون انفسهم بارتكاب المعاصي[5].

5. ان تكون المفاوضة بقدر أهمية الطرف الآخر وبحسب فهمه وإدراكه. ومعاملته ومقابلة الخشونة باللين والمودة لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا

---

(1) تفسير البيضاوي ج3، مرجع سابق، ص 194.

(2) سورة هود الآية 32.

(3) تفسير البيضاوي ج3، مرجع سابق، ص 108.

(4) سورة النساء الآية 107.

(5) صفوة البيان لمعاني القران، مرجع سابق، ص 129.

﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]. أي لا تجادلهم إلا بالتي هي احسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح[2]. وإرشاد المؤمنين إلى استخدام افضل الطرق في التفاوض مع أهل الكتاب، أي لا تحاجوهم إلا بالطريقة التي هي احسن الطرق وانفعها، والابتعاد عن الألفاظ الخشنة لأنها تحمل على الممانعة وتصد عن اتباع الحق[3].

6. إذا كان النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ومزوداً بالحجة والبرهان من الله فان ذلك لا يمنعه من ان يسمع ما يقوله الناس المرسل إليهم وعما إذا كانت لديهم حجة يسمعها. مع العلم مسبقا انهم لم يتمكنوا من إقناع النبي ﷺ بالرجوع عن رسالته وان ما يقولونه غير صحيح. ومع ذلك عليه ان يسمع حججهم وأقوالهم لا لإيمانه بها بل من اجل ان يردها ويقنعهم بان حججهم باطلة وغير صحيحة. ولهذا فقد أجاز الله تعالى ان يسمع قولهم لقوله تعالى :﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[4]. ذلك ان عدم سماع حججهم يثير عندهم التعصب والحنق ويجعلهم لا يستمعون للنبي ﷺ أو على الأقل فإن استماعه لهم يساعده على معرفة ما يجول في خواطرهم للرد عليهم.

وللأسلوب الدبلوماسي في التفاوض الدور الكبير في إيضاح الأفكار التي يقوم عليها التفاوض. وتحرص الدول على ان تجعل مفاوضيها ممن يمتلكون القدرة الكبيرة على المفاوضات، وان يتمتعوا بشخصية تفاوضية قادرة على إيصال المطلوب للطرف الاخر، وحمله على الاعتراف بحقوق المتفاوض.

(1) سورة العنكبوت الآية 46.

(2) تفسير البيضاوي ج4، مرجع سابق، ص 140.

(3) صفوة البيان لمعاني القران، مرجع سابق، ص 506.

(4) سورة الطور الآية 38.

وقد كان النبي ﷺ مفاوضا بارعا، وكانت له القدرة على إدارة المفاوضات. وقد اتسمت مفاوضاته بالآتي :

1. الكلام الهادئ البسيط البعيد عن التكلف بحيث لو سمعه السامع لتمكن من حفظه. فقد روي عن طريقة كلامه انه كان في ترتيل أو ترسل، أي تأنٍ وتمهل مع تبيين الحروف والحركات بحيث يتمكن السامع من عدها. والترسل كلاما فصل أي مفصل بين أجزائه وواضحٌ. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها إنها قالت كان كلام النبي ﷺ كلاما واضحاً يفهمه من يسمعه. وروي إنها قالت " كان النبي ﷺ يحدث حديثا لو عدّهُ العاد لأحصاه "[1].
2. كان تفاوض النبي ﷺ يبدأ بحمد الله . فقد ورد في الحديث: " كلُّ كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو اجذم ". والأجذم المقطوع اليد، أو مقطوعة البركة. وورد قوله أيضا : " كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء " ، واصل التشهد قول اشهد ان لا اله إلا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، ومن السنة عند ابتداء جميع الأمور الحسنة قول " بسم الله الرحمن الرحيم "[2].
3. كان النبي ﷺ لا يقاطع المتفاوض حتى يفرغ من كلامه وعند الانتهاء من كلامه يقول له هل فرغت من كلامك، ثم يبدا النبي ﷺ بالكلام.
4. عندما يتفاوض النبي ﷺ كان يدعم كلامه بالأدلة التي تقنع الآخرين. فقد اختير عتبة بن الربيع ليفاوض النبي ﷺ. فقال عتبة : يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وانك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت دينهم وكفرت به من مضى من آبائهم. . فاسمع مني : اعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال النبي ﷺ، قل يا أبا الوليد اسمع. . فقال

(1) صحيح البخاري ج5، مرجع سابق، ص 231. حاشية المعبود على سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 308.
(2) المرجع نفسه ص 309.

يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به شرفاً سيّدناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا فيصير لك الأمر والنهي، فهو أخص مما تقبله.

وبعد ان فرغ عتبة من كلامه والنبي ﷺ يسمع له. قال النبي ﷺ هل فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم. . قال فاسمع مني. قال افعل فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم (1) تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ ثم مضى النبي ﷺ فيها فقرأها عليه وقد أنصت عتبة له، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فامسك عتبة فمه.

وقال النبي ﷺ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت. فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. وقال لهم إني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، وقال: يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي. خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن الهول الذي سمعت منه نبأ فان تصبه العرب كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكهم ملككم وعزه عزكم وكنتم اسعد الناس به[1].

ويلاحظ من التفاوض المذكور ان النبي ﷺ استخدم القواعد الدبلوماسية مع عتبة بن الربيع، فاستمع إلى ما قاله دون ان يقاطعه رغم انه يعرف سلفاً الأهداف التي جاء من اجلها عتبة وانه غير مغول بقبولها ولكنه ملزم بسماعها لمعرفة حجته للرد عليها. فلم يقاطعه حتى فرغ من كلامه وسأله عما إذا كانت لديه أقوال أخرى ، ولم يدخل معه في مساجلة،

(1) السيرة الحلبية ج1، مرجع سابق، ص 302.

وإنما اخذ يقرأ عليه آيات من القران الكريم، واستغل هذه الفرصة ليسمع عتبة شيئا عن الإسلام. ولم يلتفت النبي ﷺ للمغريات التي جاء بها عتبة، فلم يضع الوقت بل استغله بما هو انفع من المساجلة.

ان هذا الأسلوب الدبلوماسي الرفيع قد مكن النبي ﷺ ان يؤثر فيمن اختارته قريش ممن يتصفون بالحصافة وقوة الكلام والثبات على المبدأ وان يدخله الإسلام بعد ان افرغ ما عنده واستمع للنبي ﷺ. فقد جاء عتبة لينقذ غيره فانقذه النبي ﷺ من معتقداته.

5. ثبات المفاوض على أهدافه وعليه مراجعة مرسله عن كل أمر لم يخول به. فقد يواجه المفاوض عروضا يحاول فيها الطرف الآخر التقليل من حدة الصراع، ويتطلب الأمر إذا كان بالإمكان التنازل عن بعض المطالب إلى الحد الذي يلتقي به الطرفان ومن ثم تتم تسوية النزاع وإجراء الصلح بين الطرفين. وهذه القاعدة هي الغالبة في المفاوضات في العلاقات الدولية المعاصرة. أما إذا كان أحد الأطراف يعتمد على حق شرعي، وان التنازل عن جزء يؤثر على طبيعة الحقوق التي يطالب بها فان على المتفاوض الا يتنازل عن أي جزء من حقوقه. وفي كل الأحوال عليه ان يراجع مرسله.

6. من أساليب المفاوضات الناجحة أن لا يجيب المتفاوض عن جميع الأسئلة التي توجه إليه وخاصة إذا كان فيها من الإحراج ما يعرض المتفاوض للانتقادات. فعندما سأل عتبة بن ربيعة النبي ﷺ: يا محمد انت خير أم عبد الله ؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال عتبة أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت النبي ﷺ. فقال فان كنت تزعم انك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك[1]. ونلاحظ ان الإجابة عن هذه الأسئلة محرجة. ولكن سكوت النبي ﷺ عن الإجابة عنها قد فوت الفرصة على الطرف الآخر. وقد روي عن النبي ﷺ انه قال: "أكثر خطايا ابن آدم في لسانه"وقوله"من صمت نجا"[2].

(1) الوفا باحوال المصطفى ج1، مرجع سابق، ص 201.

(2) الاحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الالباني، ج2 المكتب الاسلامي بيروت 1972 ص60.

وهذه القاعدة التي وضعها للمسلمين تصلح للمتفاوض من باب أولى عند تعرضه لمواقف محرجة.

7. ابتعاد المتفاوض عن استخدام عبارات الشتم والسب. وان يكون رفيعا مترفعا عن كل ما ينقص من شخصيته ويقلل قيمته، فقد يدفع إلى مواقف قد تقلل من اتزانه. فقد ورد عن النبي ﷺ انه قال : "اذا سبك رجل بما يعلم منك فلا تسبه بما تعلم منه فيكون اجر ذلك لك ووبالا له"[1]. وقال : " أربى الربا شتم الأعراض واشد الشتم الهجاء والراوية أحد الشاتمين"[2]، وقال : " ان من اكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه" قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه، قال : " يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب امه"[3]. وهذه القاعدة تشمل جميع المسلمين ومن باب أولى المفاوض.

8. جرى العمل الدبلوماسي على ان يكون المتفاوض بشوشا مبتسما أمام الجميع، فقد روي عن النبي ﷺ قوله : " تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ... "[4]. فالمتفاوض المبتسم يخلق جوا من الألفة والمحبة تزرع في نفس الطرف الآخر إحساساً ان الأمور سوف تجرى على ما يرام.

9. من المسلم به ان المفاوضات قد تنجح او تفشل، ولهذا فان على كل طرف أن يضع هذا الاحتمال والا يبالغ المتفاوض في مدح الطرف الآخر. فقد روي عن أبي موسى انه قال : سمع النبي ﷺ رجلا يثني على رجل ويطرحه في المدح فقال : " أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل"[5].

(1) فيض القدير ج1، مرجع سابق، ص 354.
(2) المرجع نفسه، ص 463.
(3) صحيح البخاري ج8، مرجع سابق، ص 9.
(4) سلسلة الاحاديث الصحيحة ج2، مرجع سابق، ص 87.
(5) صحيح بخاري ج8، مرجع سابق، ص 222.

10. ان يحصل المتفاوض على ثقة الطرف الآخر. لذلك عليه الابتعاد عن الكذب وان يحضر مواعيد المفاوضات بوقتها وان يوفي بعهده وألا يكون فاجراً في خصامه. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال : " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة النفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر "[1].

11. ان من ابرز مستلزمات المتفاوض الناجح ان يكون متسامحا لينا بعيدا عن العنف والتشدد. لقوله تعالى : ﴿ولو كنتَ فظًا غليظَ القلبِ لانفضوا من حولك﴾[2]. اي لو كنت سيئ الخلق جافيا قاسيا لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك[3]. وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : " ان شر الناس الحُطَمَةُ فإياك ان تكون منهم " والحطمة : العنيف[4]. ولكن ليس في كل حين

12. ان يبتعد المتفاوض عن الغضب. فقد يواجه المتفاوض حالات صعبة تثير غضبه مما قد يدفعه إلى الخروج عن الهدف الذي يفاوض من اجله، ويصبح حاد المزاج لا يستطيع السيطرة على نفسه، فلا بد من كتم الغيظ والتصرف بحكمة. فقد روي عن النبي ﷺ قوله : " ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "[5].

13. ان مهمة المتفاوض هي ان يختار ايسر الطرق وأسهلها للوصول إلى الغاية التي يهدف إليها. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فان كان إثما كان ابعد الناس منه "[6].

---

(1) فيض القدير ج1، مرجع سابق، ص 463.
(2) سورة ال عمران الآية 159.
(3) تفسير البيضاوي ج2، مرجع سابق، ص 50.
(4) صحيح مسلم ج3، مرجع سابق، ص 1461.
(5) المرجع نفسه ج2 ص 2014.
(6) المرجع نفسه ج 4 ص 1813.

14. قد يواجه المتفاوض سوء المعاملة لشخصه فقط، مع سير المفاوضات بصورة طبيعية، ففي هذه الحالة على المتفاوض ان يتحمل من اجل الهدف الذي يفاوض من اجله. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: " وما انتقم رسول الله لنفسه إلا ان تنتهك حرمة الله عز وجل "[1].

15. اذا كانت المفاوضات بين طرفين ولا تتعلق بالآخرين فعلى المفاوض عدم السماح للغير بالتدخل في المفاوضات. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " إذا كان اثنان يتناجيان فلا تدخل بينهما "[2].

16. إذا كانت المفاوضات تتعلق بالصلح بين الناس أو في أمور الحرب فلا بأس ان لا يعطي المتفاوض جميع المعلومات بصورة صحيحة. فقد روي ان النبيﷺ: " رخص الكذب في ثلاث في الحرب وفي إصلاح الناس وفي قول الرجل لامرأته "[3].

ومن ذلك يلاحظ ان النبي ﷺ وضع قواعد دبلوماسية للمفاوضات، لا تضاهيها قواعد أخرى، قائمة على المبادئ والقيم الأخلاقية مع الحفاظ على الهدف الذي من اجله تتم المفاوضات. وقد استطاع بهذه الطريقة كسب ود الناس وحبهم له نتيجة قدرته على إدارة المفاوضات بصورة حكيمة، وتمكنه من جمع الأضداد المتصارعة في شريعة واحدة جمعت بينهم مبادئ الدين فكان يتحين الفرص من اجل ان يلتقي بالناس وإذا بهم آمنوا بالإسلام. وهذا ما كان ليحدث لولا قدرة النبيﷺ على الإقناع وإدارة المفاوضات بشكل سليم، مما جعله يكوّن مجتمعاً موحداً.

وبهذه الوحدة التي كونها النبي ﷺ تمكن الإسلام ان يخرج من شبه جزيرة العرب لينير بأنواره العالم اجمع. وقد استهدى الصحابة من بعده بالأسلوب الذي جاء به في نشر الإسلام وتمكنوا من بعده ان يصبحوا أمة عظيمة تقف بقوة وصلابة امام الأمم

---

(1) المرجع نفسه ج4 ص1813.

(2) فيض القدير ج1 ص 426.

(3) الأحاديث الصحيحة ج2، مرجع سابق، ص 74.

الأخرى، لا بقوة السيف كما يزعم البعض، وإنما بقوة الإيمان والعقيدة وبالوسيلة التي جاء بها الإسلام لنشره بين أبناء البشر.

ثانيا: المذكرات الدبلوماسية

تعد المذكرات الدبلوماسية من الوسائل الدبلوماسية المهمة في العلاقات الدولية. وهي وثائق مكتوبة تعد حجة على من يحررها.

1- مفهوم المذكرة الدبلوماسية في الإسلام

يقصد بالمذكرات الدبلوماسية الخطابات المكتوبة المتبادلة بين الدول، التي توضح رأي الدولة في قضية معينة. وعربت كلمة (Note) الواردة في التعامل الغربي خطأ إلى كلمة المذكرة. وهو تعريب غير موفق. والمذكرة من فعل ذكر، والذكر الصيت والثناء. وسيف مذكر أي ذو ماء[1]. وكان المفروض ان تعرب إلى كلمة كتاب أو رسالة فهي اقرب إلى الواقع.

ولم يستخدم الإسلام مصطلح المذكرات الدبلوماسية، وانما استخدم مصطلح كتاب[2] او رسالة، وسمى الشخص الذي يتولى حملهما بالرسول[3] أو السفير[4]، في

---

(1) محمد محي الدين عبد الحميد ، محمد عبد اللطيف السبكي، المختار، ط5 المكتبة التجارية الكبرى مطبعة الاستقامة القاهرة 176.

(2) ورد مصطلح الكتاب في العديد من الآيات وبمعان مختلفة. يراجع :

ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل، المجلد الأول، دار الفكر العربي بيروت 108 وما بعدها.

(3) الرسالة بمعنى الرسول. ويقال تراسل القوم : ارسل بعضهم إلى بعض. وقال ابو بكر الانباري في قول المؤذن " اشهد ان محمدا رسول الله " اعلم وابين ان محمدا متابع للأخبار من الله عز وجل وسمي الرسول رسولا اي انه ذو رسالة والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة، ويقال أرسلت فلانا في رسالة فهو مرسل ورسول. يراجع :

لسان العرب المحيط للعلامة ابن منظور، طبعة دار لسان العرب بيروت ص 1165.

(4) والسفير: الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء وفي حديث علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لعثمان : " ان الناس استسفروني بينك وبينهم " أي جعلوني سفيرا. ويقال سفرت بين القوم إذا سعيت بينهم بالإصلاح. والسفرة الكتبة. وقيل سميت الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله والأنبياء. يراجع لسان العرب، مرجع سابق، ص 154.

وإذا كان الوفد الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم اكثر من شخص يطلق عليه بالسفارة.

يراجع محمود شيت خطاب، السفارات النبوية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد 1989ص1 وما بعدها.

عهد النبيﷺ وما بعده[1]. واستخدم النبي ﷺ مصطلح الكتاب في العديد من الرسائل التي أرسلها للملوك والأمراء وشيوخ القبائل. والكتاب من الفعل كتب. والكتاب الفرض والحكم والقدر ، والكاتب عند العرب العالم ومنه قوله تعالى: "أم عندهم الغيب فهم يكتبون". والكُتّاب: الكتبة. والكتاب والمكتب واحد والجمع الكتاتيب والمكاتب[2].

وسبق ان بينا ان السفرة تعني الكتبة، والسفر الكتاب الكبير. والرسول إذا كان يحمل رسالة مكتوبة فيطلق على هذه الرسالة إسم الكتاب لأنها مكتوبة، أما إذا لم يحمل كتابا فيطلق على ما يحمله بالرسالة.

وقد آثرنا ان نستخدم المذكرة الدبلوماسية رغم ان المصطلح العربي الإسلامي اكثر دقة، بسبب ان المذكرة الدبلوماسية هي المتداولة في الوقت الحاضر حتى بين الدول الإسلامية.

2 - اهمية مراسلات النبي ﷺ الدبلوماسية

اعتمد النبي ﷺ أسلوب المراسلات الدبلوماسية لمخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. واستخدم أسلوبا دبلوماسيا رفيعا في كتابة المذكرات الدبلوماسية، وهو ذات الأسلوب الحديث المستخدم في صياغة المذكرات الدبلوماسية في الوقت الحاضر.

ومنذ بداية ظهور الإسلام في المدينة لم يشغل الدولة الفتية مشاكلها ومعاناتها من اليهود والمنافقين والقبائل المحيطة بالمدينة وتهديد قريش والقبائل المتحالفة معها، عن تنظيم علاقاتها الدولية. فقد عملت الدولة الإسلامية على الإعلان عن نفسها منذ بداية قيامها بان قوة دولية جديدة قد ظهرت في المنطقة العربية في عالم تتجاذبه المصالح المادية وأنانية السيطرة والاستحواذ.

(1) جاء في تهذيب السيرة : "فبعث رسول الله رسلا من اصحابه وكتب معهم كتبا إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام".
انظر : عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، دار احياء التراث العربي بيروت 1972 ص 141.

(2) محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي، ، مرجع سابق، ص 445.

وقد أرادت الدولة الإسلامية ان تثبت للعالم بأنها دولة متحضرة لها قانونها السماوي وقوتها، وان أساس الحكم فيها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنها تهدف إلى تخليص الشعوب من الظلم والاستبداد والتخلف.

وكان الوطن العربي يضم العديد من الدول والقبائل ذات الإستقلال التام عن بعضها. والتي غالبا ما كانت تخضع لهيمنة الحماية الأجنبية. وتحيط بالوطن العربي كل من دولتي الفرس والروم وهما من الدول التي كانت متنفذة في العالم في ذلك الوقت وهما دولتان ذواتا تراث حضاري متطور وقوة عسكرية كبيرة. ولهما نفوذ داخل الوطن العربي وتحتلان أجزاء منه.

ولما كان نشر الدين الجديد والإعلان عن الدولة الإسلامية يتطلب إشعار الدول الأخرى بوجودها والتواصل معها. وهذه المهمة لا يمكن تحقيقها إلا بالطرق التي تعارفت عليها الدول المتطورة في ذلك الوقت، فقد لجأ النبي ﷺ إلى مراسلة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل بالمذكرات الدبلوماسية وبشكل يدلل على تطور وتقدم دولة المسلمين.

وقد كان النبي ﷺعلى علم وبينة بما كانت عليه القوى السياسية المتنفذة في العالم وما تعانيه من مشاكل وصراعات وأزمات أخلاقية ودينية، وما تمارسه من ظلم واضطهاد لرعاياها. ولهذا فقد وجد النبي ﷺ الفرصة مواتية وان الوقت قد حان لان يدعو حكامها إلى الايمان بالله وتطبيق العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبعد صلح الحديبية قرر النبي ﷺ إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل[1]، واستقبال الوفود والرسل في أواخر السنة السادسة للهجرة [2]. وقد كان واثقا من قوة دعوته وعلو رسالته ونصر الله له، فاقدم على مخاطبة هؤلاء بقلب ثابت وعزم صادق فتمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه ولابد من جس نبضهم ومعرفة موقفهم من الإسلام من اجل ان يضع سياسة واضحة للدين

(1) محمد رضا ، محمد رسول الله، ط5 دار إحياء الكتب، القاهرة 1966، ص 277 .

(2) ومن هذه الوفود وفود عبد القيس وبني حنيفة وفروة بن مسيك المرادي وعمرو بن معكرب ووفد كندة ورسول ملوك حمير : عبد السلام هارون، ، مصدر سابق، ص120 وما بعدها.

الجديد. وان يبدأ بالمبادرة وان يعرفوا الإسلام من المسلمين وتفويت الفرصة على أعداء المسلمين ومنعهم من الدس على الإسلام والمسلمين.

ولم يتجه النبي ﷺ إلى الأمم والشعوب المتخلفة البدائية لنشر رسالته، لان مقدار ما تفهمه هذه الأمم والشعوب لا يرقى إلى فهم أحكام الشريعة الإسلامية القائمة على المنطق والحجة والفهم الصحيح، فلم يبعث إلى الشعوب الأفريقية المتخلفة المجاورة رغم شمولها بحتمية الرسالة، بل انه فضل أرقى الحضارات المعاصرة له، لأنها تملك من الوعي والقدرة ما يؤهلها لفهم وإدراك محتوى الرسالة الإسلامية، واتجه إلى القمم وخاطبها ولم يبدأ بالقواعد العريضة، لأنه يدرك ان استجابة الملك أو الأمير تتبعها استجابة الدولة برمتها ومن ثم يحقق المطلوب.

وقد اكتسب النبي ﷺ هذه الخبرة أثناء معاناته في مكة عندما اتجه إلى القاعدة فنشر الإسلام فيها، لأنها القاعدة المظلومة والتي هي أساس الدين. فان ما أعاقه نشر الدين في مكة كان بسبب أصحاب السطوة والنفوذ الذي يتمتع به بعض المتنفذين الذين وجدوا في الدين الإسلامي ما يهدد مصالحهم، فقاموا بمحاربة الدين واتباعه[1].

وادرك النبي ﷺ أهمية المذكرات الدبلوماسية التي أرسلها للملوك والأمراء، وكان واثقا من نفسه وأصالة رسالته وعالما بان الأمم لا تقاس باتساع مساحات أرضها ولا بكثرة شعوبها أو قوتها المادية والعسكرية، إنما بما تملكه من قيم أخلاقية وروحية وأصالة المبادئ الإنسانية، فهذه لوحدها كافية لان تهز العروش وتقلعها من أساسها أو تضعها على جادة العدل والصواب. وكانت المذكرات التي بعثها تفيض بالقيم السماوية التي لا تعلوها قيمة وكان لها الأثر الكبير في إسلام العديد من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. وكان النبي ﷺ يدرك تماما ردود فعل بعض الملوك إلا انه اثر ان يخاطبهم لأسباب متعددة منها :

---

(1) يراجع عن الاضطهاد الذي عاناه النبي صلى الله عليه وسلم في مكة : الإمام برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، ج1 المكتبة الاسلامية، دارالفكر، لبنان بيروت.
وعبد السلام هارون، مرجع سابق، ص 82

1. ان الله لا يحاسب الفرد الذي لم يبلغ بالدعوة الإسلامية. ومخاطبة الملوك والأمراء تعني وضعهم أمام حساب الله. خاصة وان الرسالة الإسلامية للناس كافة والمطلوب هو إيصالها للجميع.
2. ان مخاطبة الملوك تقلل من حنقهم وحقدهم على الإسلام فهو وان كان له موقف ثابت فان عدم إشعارهم قد يفسرونه بعدم الاهتمام بهم. لذلك فان بعض الملوك رغم عدم إسلامهم إلا انهم اكرموا الرسل وردوا ردا جميلا وأرسلوا الهدايا للنبي ﷺ.
3. ان الملوك الذين وقفوا موقفا معاديا مثل كسرى ملك الفرس فان المذكرة التي أرسلت إليه قد فعلت فعلها، فقد أشعرته بان هناك قوة من داخل الوطن العربي تهدد نفوذه في المنطقة. خاصة وان للفرس خبرة بان الخطر يحدق بهم من ارض الوطن العربي عندما كان البابليون يهددون حكمهم.
4. أوضحت المذكرات الدبلوماسية ان الإسلام دين رسالة وسلام وليس هدفه تهديد الملك وإزالته وإنما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمذكرات أشعرت الملوك بان الإسلام لا ينازعهم في ملكهم. وإنما ينازعهم في معتقداتهم، فإذا ما اسلموا وحكموا بحكم الإسلام، فإنهم سوف يبقون على سلطتهم.
5. أوضحت المذكرات للملوك والأمراء بان الإسلام دين حضارة ومعاصرة ويستخدم الوسائل الدبلوماسية لمعالجة الأمور بين الدول وانه لم يلجأ للقوة العسكرية.
6. لقد شعر الملوك والأمراء ان الإسلام دخل إلى دولهم عن طريقهم، وهو الباب الصحيح الذي يستطيعون ترتيبه وتنظيمه بأنفسهم. فلو تجاهلهم الإسلام واتصل بالقواعد لكان لهم موقف معاد للإسلام.
7. تمكن النبي ﷺ بواسطة الرسل من معرفة أحوال الدول التي أرسل إليها المذكرات الدبلوماسية. واصبح لديه العلم والدراية بما يحيط به.

8. لقد حققت المذكرات الدبلوماسية انتشار الدين الإسلامي بصورة واسعة ونقله إلى أرجاء متعددة وبعيدة عن مركز الدولة الإسلامية في المدينة، والانتشار الذي حققته المذكرات الدبلوماسية لم تحققه أية وسيلة أخرى.
9. كان نقل المذكرات الدبلوماسية بواسطة الرسل قد وفر لهؤلاء الرسل خبرة عن الدول التي حملوا إليها الرسائل، مما تطلب من النبي ﷺ ان يعين بعض رسله ولاة عليها أو لإرشاد المسلمين في هذه الدول.
10. كان من نتيجة نجاح المذكرات الدبلوماسية في مخاطبة الملوك والأمراء ان استمر تبادل المذكرات الدبلوماسية حتى بعد دخولهم الإسلام، فأصبحت المذكرات الدبلوماسية الوسيلة الوحيدة للتوجيه ومعالجة الأمور.
11. ان استخدام المذكرات الدبلوماسية لنشر الإسلام خارج حدود المدينة يعني بدء مرحلة عالمية الإسلام. فلم يعد الإسلام دينا خاصا بالعرب وحدهم بل اصبح عالميا.

وبذلك فقد كان للمذكرات الدبلوماسية أهمية كبيرة في نشر الدين الإسلامي اكثر مما حققته الوسائل الأخرى. ووسيلة ناجعة في إدارة الدولة الإسلامية.

فقد استخدمت المذكرات الدبلوماسية في مخاطبة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل قبل إسلامهم وبعد إسلامهم. ذلك لأن هؤلاء رغم دخولهم الإسلام إلا انهم احتفظوا بشخصيتهم القانونية المستقلة. فكانوا يخاطبون النبي ﷺ قبل إسلامهم وبعد إسلامهم. وقد فعلت المذكرات الدبلوماسية فعلها في توجيه الملوك والأمراء وشيوخ القبائل من الناحية الدينية والمالية والإدارية والعسكرية.

3- أسلوب المذكرات الدبلوماسية

تعتمد الدول في الوقت الحاضر على استخدام المذكرات الدبلوماسية لمخاطبة بعضها الآخر، فهي الوسيلة الدبلوماسية الأكثر استخداما والأيسر عملا. لأنها وسيلة مباشرة تحدد الآراء والمواقف بصورة رسمية بعد دراسة جميع محتوياتها من قبل أجهزة الدولة المتخصصة.

والمذكرات الدبلوماسية وثائق رسمية مكتوبة يتم تبادلها بين الدول. تخضع لشكلية خاصة، حددها العرف الدبلوماسي منذ القدم.

وقد لجأت الدول إلى هذه الوسيلة منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ولا تزال تعد الوسيلة الدبلوماسية المتقدمة على الوسائل الدبلوماسية الأخرى لمعالجة وتسوية المنازعات بين الدول وتوطيد العلاقات الدولية.

وتعد مذكرات الدبلوماسية بأسلوب خاص لا يختلف من دولة لأخرى[1]. فعلى الرغم من ان الدول تختلف في النظم السياسية والقانونية والاقتصادية والأيدلوجية إلا ان أسلوب المذكرات الدبلوماسية واحد بين جميع الدول.

وقد اعتمد النبي ﷺ أسلوبا دبلوماسيا كان معروفاً بين الدول في ذلك الوقت، وهو الذي ما يزال معتمدا في الوقت الحاضر، من ناحية شكل المذكرات الدبلوماسية وأسلوب صياغتها.

وسنتناول أسلوب المذكرات الدبلوماسية في الفقرات الآتية :

أ- شعار المذكرات الدبلوماسية

تبدأ المذكرات الدبلوماسية بشعار الدولة الخاص بها والذي يميزها عن الدول الأخرى. فلكل دولة ان تضع شعارا على أوراقها الرسمية تختاره بما يناسبها. وغالبا ما يمثل هذا الشعار علامات أو عبارات يحددها قانون كل دولة، ويوضع في أعلى المذكرة. والغرض منه التعريف بالدولة. ومن حق الدولة ان تغير هذا الشعار حسب ما تراه .

وكان العرب قبل الإسلام يفتتحون مذكراتهم ومراسلاتهم بعبارة "باسمك اللهم" و " باسم اللات وباسم العزة ". وقد بدأ النبي ﷺ مذكراته بـ "باسمك اللهم". فكتب في ذلك أربع مذكرات دبلوماسية. ثم نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ فكتب عبارة "بسم الله"[2].

(1) احمد حلمي إبراهيم، الدبلوماسية، البرتوكول، الأتيكيت، المجاملة، عالم الكتاب، القاهرة 1976ص 169.

(2) سورة هود الآية 41.

وبعد ان نزلت ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[1]، بدأ يكتب في مذكراته الدبلوماسية ومراسلاته " بسم الله الرحمن ". وبعد ان نزلت ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[2] أصبحت جميع مذكراته الدبلوماسية ومراسلاته تفتتح بـ " بسم الله الرحمن الرحيم"[3].

وهذه العبارة أصبحت تبدأ بها جميع سور القران الكريم، وتتصدر الخطب. غير ان الإختلاف بين المذكرات الدبلوماسية والخطب، هو ان المذكرات الدبلوماسية تبدأ بعبارة " بسم الله الرحمن الرحيم ". أما الخطب فتبدأ "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين"[4]. أما الفعل فلا يعتد به شرعا ما لم يصدر باسمه تعالى. لقول النبي ﷺ : " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو ابتر"[5].

وعبارة بسم الله الرحمن الرحيم تكتب بطريقة خاصة. فقد روي عن معاوية انه كان يكتب للنبي ﷺ فقال له : " الق الدواة وحرف القلم وقم الباء وجر السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجر الرحيم"[6].

وقال النبي ﷺ : "إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمد الرحمن ". وفي رواية عن انس ان النبي ﷺ قال : "إذا كتبتم كتابا فجودوا بسم الله الرحمن الرحيم تُقض لكم الحوائج وفيها رضا الله ". وقال : "إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين منه "[7]. ويطلق على هذا الشعار البسملة.

---

(1) سورة الإسراء الآية 110.

(2) سورة النمل الآية 30.

والكلام عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم لا يتسع المجال لذكره هنا ولمن أراد المعنى مراجعة كتب التفاسير.

(3) يراجع علي بن حسين علي الأحمدي كتاب مكاتيب الرسول، دار المهاجر بيروت ص3. والشيخ عبد الحي الكتاني نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، ج1 و ج2 دار احياء التراث العربي بيروت، ص 140.

(4) ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، ج1، دار الفكر بيروت، ص 11.

(5) المصدر نفسه ج1 ص11.

(6) الشيخ عبد الحي الكتاني ، مصدر سابق، ص 127.

(7) العلامة المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير ج1 ، ص 433.

واستخدمت البسملة في مذكرات النبي ﷺ واستخدمها الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون والعثمانيون .

وعلى الرغم من ان الدول الإسلامية في الوقت الحاضر قد اتخذت شعارات خاصة بها، إلا إنها تضع عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" على مذكراتها الدبلوماسية عند التخاطب مع الدول، ليس لصفة الشعار وإنما لصفة الوجوب أو التبرك به ذلك ان كل دولة حددت شعارها الخاص بها بموجب قوانينها الخاصة.

ب – البدء بتعريف المرسل

لما كانت السيادة أحد عناصر الدول الثلاث الأساسية، فإن متطلبات تلك السيادة ان تظهر الدولة وكأنها صاحبة السلطة والسلطان، وإنها متقدمة على غيرها من الدول، بغض النظر عن كبر وصغر الدولة وقوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية[1]. والدولة عندما تريد ان تبرز ذلك فإنها تراعي من جانب آخر ألا تثير حفيظة الدول الأخرى التي تخاطبها، فتشير إلى تمسكها بسيادتها بأسلوب دبلوماسي عن طريق التحية في مذكراتها الدبلوماسية التي ترسلها إلى الدول الأخرى فتقول مثلا " تهدي الحكومة القطرية تحياتها إلى الحكومة الأردنية ". وبذلك تبدأ الدولة بذكر اسمها أولا ثم اسم المرسل إليه بحجة التحية.

ويقدم اسم الدولة ليس في المذكرات الدبلوماسية فحسب بل أيضا في المعاهدات الدولية فتحتفظ كل دولة بنسخة من المعاهدات التي تعقدها مع الدول الأخرى وفيها اسم الدولة مقدم على الطرف الآخر. كذلك تذكر الدولة اسمها أولا في المحافل الدولية وفي برقيات التهاني والتعازي التي ترسلها لرؤساء الدول وفي وسائل الإعلام التي تمتلكها بغض النظر عن كبرها أو صغرها .

وقد استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب في المذكرات التي أرسلها إلى الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. حيث بدأت تلك المذكرات بذكر اسمه وصفة النبوة. فجاء

---

(1) الدكتورة عائشة راتب، التنظيم الدبلوماسي والقنصلي، دار النهضة العربية القاهرة 1963ص 18.

بالمذكرات من محمد رسول الله إلى ...أو هذا كتاب من محمد النبي إلى ... أو هذا ما كتبه النبي لـ ...[1].

وبذلك فقد بدأ النبي ﷺ بتعريف نفسه أولا وببيان صفته. وبعد ذلك بذكر اسم المرسل إليه.

وقد عدّ النبي ﷺ ذكر اسم المرسل سنة واجبة على كل مسلم عند مخاطبته المرسل إليه. فقد روي عنه انه قال : " إذا كتب أحدكم إلى إنسان فليبدأ بنفسه ..."[2] وقيل أنه من السنة في كتابة المذكرات الدبلوماسية ان يبدأ الكاتب بنفسه[3].

وذكر النبي ﷺ اسمه اولا في المذكرات الدبلوماسية يقوم على الأسس الآتية :

أ. ان النبي ﷺ هو رئيس دولة وان هذه الصفة تعطيه هذا الامتياز. وقد أراد بذلك الإشعار بأنه يخاطب الدول باسم دولة المسلمين. فلو خاطبهم بأسمائهم أولا لما عبر عن صفة الدولة.

ب. ان النبي ﷺ هو نبي مرسل، وليس من المنطق ان يقدم أي شخص على اسمه مهما كانت صفته. فلو قدم اسم غيره كان هذا الغير هو اقدم ولهذا فقد حرص النبي ﷺ ان يكون اسمه أولا.

ج. أراد النبي ﷺ الإشعار بقوة الإسلام، وبأنه يعتمد الأسلوب الذي تنتهجه الدول.

ج – تحية المرسل إليه

تبدأ الدول في الوقت الحاضر مذكراتها الدبلوماسية بالتحية والسلام على المرسل إليه. وتكاد ان تكون التحية بصيغة موحدة بالشكل الآتي : "تهدي حكومة جمهورية العراق تحياتها للحكومة المصرية وتود ان تبين ..." وتنتهي المذكرة بالسلام

---

(1) علي حسين علي الاحمدي ، كتاب مكاتيب الرسول، دار المهاجر بيروت ص 6 فيض القدير شرح الجامع الصغير، مرجع سابق، ص 432. والشيخ عبد الحي الكتاني ، مصدر سابق، ص 137.

(2) فيض القدير شرح الجامع الصغير، مرجع سابق، ص 432.

(3) صحيح مسلم بشرح النووي ،ج2 ، ط2 دار الفكر بيروت 1972، ص 108.

بالشكل الآتي : " وتنتهز الحكومة العراقية هذه الفرصة للإعراب عن بالغ تحياتها للحكومة المصرية ".

وكان النبي ﷺ يبدأ مذكراته بالتحية. ولما كان غالبية المخاطبين من غير المسلمين، وصيغة السلام لا تكون إلا على المسلم، فان السلام الوارد في المذكرات الدبلوماسية موقوف على إسلامهم فكانت العبارة : "السلام على من اتبع الهدى" أو : "السلام على من آمن بالله" أي ان السلام يكون عند إسلام المرسل إليه فقط .

كذلك وردت التحية في المذكرات الدبلوماسية التي أرسلها النبيﷺ: "سلم أنت" او "السلام عليك" أو "احمد الله إليك" أو "احمد إليك الله "[1]. وعند الانتهاء من التحية يورد عبارة "اما بعد"[2].

إن البدء بالسلام على الرغم من انه من متطلبات المذكرات الدبلوماسية إلا انه يعد من قيم الأخلاق الفاضلة، فهو يهدئ نفوس المرسل إليهم ويخفف من الجفوة والتصلب ،ويلين النفوس المتصلبة ويطيب من خواطرها، ويشعر المرسل إليه انه يتعامل مع نبي ورسول كريم يجيد العادات والتقاليد الدولية المتبعة بين الدول.

د – المواد التي تكتب بها المذكرات

تكتب المذكرات الدبلوماسية في الوقت الحاضر بأحدث أنواع أجهزة الكتابة المتطورة وعلى أرقى أنواع الورق، من اجل ان تكون واضحة وسليمة من الأخطاء النحوية واللغوية.

وقد كانت مواد الكتابة في عهد الرسول بدائية وغير متطورة. وقد كتب القران الكريم على العسب "جريد النخل" والرقاع "الورق أو الجلد" والأضلاع "الرحل الصغير على قدر سنام البعير" واللخاف "حجر رقيق" وحفظ في صدور الرجال.

غير ان المذكرات النبوية لأهميتها وضرورة وصولها إلى الملوك والأمراء سالمة وبما يليق بمناصبهم يجب ان تكون خفيفة الوزن سهلة الحمل ومقاومةً للظروف الجوية

(1) الشيخ علي بن حسينعلي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 6. والشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 137.
(2) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 140.

خاصة وان إيصالها يتطلب مقاومتها فترة طويلة من الزمن، وتنقل على ظهور الحيوانات أو السير على الإقدام. ولهذه الأسباب فان افضل شئ تكتب فيه المذكرات الدبلوماسية هي جلود الحيوانات. وقد كانت مكة مشهورة بصناعة الجلود وتصدرها إلى الشام والحبشة، وهي تفي بالمتطلبات وتناسب الظروف والأحوال، وتعد وسيلة متقدمة في ذلك الوقت. ويطلق على الجلد الذي كتبت عليه مذكرات النبي ﷺ "الأدم"[1].

وقد استعمل الورق الناعم المصقول في مذكرات النبي ﷺ التي أرسلها للملوك والأمراء وشيوخ القبائل. واستعمل الحبر الأسود في كتابة المذكرات وفي ختم الختم. أما الحبر المستعمل في الكتابة فكان من النبات العليق الأسود أو مادة الكربون المستخلصة من الدخان المتراكم من إحراق الخشب وفضلات الحيوانات المجففة والذي يطلق عليه " السخام ". حيث يتم تجميع هذه المواد من مكان وجودها، وتخلط في الماء بمادة لزجة من اجل زيادة كثافتها وتماسكها.

والى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري كان الحبر المستعمل في أرجاء الوطن العربي حبرا محليا يصنع من النباتات وتكتب به المصاحف والكتب والرسائل والمعاملات. وقد كان الحبر القديم بطئ الجفاف، لذلك كان الكتاب يستعملون رملا خاصا دقيق الذرات ناعم الملمس لتجفيف الحبر بعد الانتهاء من الكتابة[2]. وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : "إذا كتب أحدكم إلى إنسان فليبدأ بنفسه، وإذا كتب فليترب كتابه فهو انجح "[3]. أي ان يترب الكاتب كتابه لأنه انجح لحاجته، أي ايسر واحمد لقضائها، وقيل الحكمة من التتريب ان التراب مطهر وخلق منه الإنسان واليه يعود واعتمادا على ربه في إيصاله مقصده[4].

---

(1) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 127.

(2) محمود شيت خطاب. الرسول القائد ، ط3 دار القلم بغداد 1964.، ص 252.

(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج1 ص432.

(4) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج1 ، مرجع سابق، ص 432.

إن تتريب المذكرات الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ ساعد على تجفيفها كي لا تمحى أو تتشوه الكتابة عند ملامستها لشئ آخر ، وكانوا يضعون التراب على آخر الكتاب ليجف لأنه احدث بالكتابة بخلاف أول الكتاب فانه قد جف عند الانتهاء من الكتابة[1].

ولا يزال حتى الوقت الحاضر يستخدم نوع من الورق يطلق عليه "النشاف".

أما الأقلام المستعملة في كتابة المذكرات الدبلوماسية، فقد كانت مصنوعة من القصب المسنن برؤوس دقيقة ناعمة. وقد عرف العرب هذا النوع من الأقلام، وسميت بأسماء مختلفة منها الأرقم والقلم والمرقم والمزبر والمدبر والملقط واليراع. وهذا النوع من الأقلام يعد أرقى أنواع الأقلام[2] ولا يزال هذا النوع من الأقلام افضل الأنواع التي تستخدم من قبل الخطاطين في الخط العربي.

وبالنظر لطبيعة ومتانة المواد التي كتبت بها مذكرات النبي ﷺ فان البعض منها لا يزال محفوظا في المتاحف العالمية.

هـ- اللغة التي كتبت بها المذكرات

كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الدبلوماسية السائدة في المراسلات بين الدول أو في حديثهم حتى القرن الثامن عشر. وكانت غالبية المعاهدات التي تعقد بين الدول حتى ذلك التاريخ تدون باللاتينية. وفي القرن الثامن عشر حاول الفرنسيون أن يجعلوا من لغتهم الفرنسية اللغة الدبلوماسية. غير ان الدول الأوروبية قاومت هذه المحاولات. وقد تمكنت فرنسا في مؤتمر فيينا عام 1815 ومؤتمر باريس عام 1856 من ان تفرض الفرنسية. وفي مؤتمر باريس عام 1918- 1919 جاء في الأحكام النهائية الخاصة بالتصديق في معاهدة فرساي " ان هذه المعاهدة التي يعتبر نصاها الفرنسي والانجليزي رسميين. " وهذا النص قد ساوى بين الفرنسية والإنكليزية[3].

(1) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 127.

(2) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 253.

(3) هارولد نيكولسون ، مصدر سابق، ص 196

وقد كان التنازع بين اللغتين الفرنسية والإنكليزية على المراسلات الدبلوماسية قد وصل اشده في المؤتمرات الدولية. غير ان ظهور مبدأ السيادة واستقلال العديد من الدول دفعها إلى ان تستخدم لغتها الرسمية.

وقد اصبح الاتجاه العام للدول في الوقت الحاضر ان تكتب المذكرات الدبلوماسية بلغتها الرسمية. وتفرض دولة المقر على البعثات الدبلوماسية ان تكتب المذكرات التي توجه إليها بلغتها الرسمية. وقد جرى العرف الدبلوماسي على ان تحرر المذكرات الدبلوماسية من قبل البعثات الدبلوماسية بلغة الدولة المعتمد لديها ولغة دولة السفارة.

كذلك تحرر المذكرات الدبلوماسية بالنسبة للبعثات الخاصة التي يحملها مبعوث خاص بلغتين، نسخة بلغة الدولة المرسلة ونسخة أخرى بلغة الدولة المرسل إليها.

ومن ذلك يتضح ان كتابة المذكرات الدبلوماسية بلغة الدولة المعتمد لديها يعد جزء من سيادتها. فكل دول تطبق لغتها الرسمية داخل أراضيها، ولما كانت البعثات الدبلوماسية تخاطب تلك الدولة فان عليها ان تخاطبها بلغتها.

وتحاول الدول المتنفذة ان تجعل لغتها الرسمية لغة عالمية، عن طريق المساعدة على تسهيل فهم لغتها. فتحاول الدول الناطقة بالإنكليزية والفرنسية والأسبانية ان تكون لغاتها عالمية وتتنافس في ذلك. وتأخذ بعض المنظمات بإحدى هذه اللغات أو أكثر .

وقد ثبت ان جميع المذكرات الدبلوماسية التي بعثها النبي ﷺ قد حررت باللغة العربية رغم ان عددا منها قد أرسلت إلى دول لا تتكلم العربية. وكان بالإمكان الكتابة بلغة الدول المرسل إليها، إلا ان النبي ﷺ آثر ان تكتب المذكرات التي أرسلها باللغة العربية.

وكان تدوين المذكرات التي أرسلها النبي ﷺ للملوك والأمراء باللغة العربية يعود للأسباب الآتية :

1- ان العرف الدبلوماسي كان يقضي بان ترسل الدول مذكراتها الدبلوماسية بلغتها الرسمية مع ترجمة لها بلغة الدولة المعتمد لديها. وان النبي ﷺ أراد

استخدام الأسلوب الذي اعتمدته الدول. فأرسل المذكرات الدبلوماسية باللغة العربية مع إرسال مبعوث يجيد لغة الدولة المعتمد لديها. وقد تولى هؤلاء شرح عبارات المذكرات وما تتضمنه من معنى. ولو أرسلت مذكرات مترجمة بلغة الدولة المرسل إليها لواجه المسلمون صعوبة في إيضاح ذلك.

2- إن الإسلام دين سماوي. وان لغة هذا الدين هي العربية وان القران قد نزل بهذه اللغة، وحرم ترجمة القران إلى لغة أخرى بسبب عدم قدرة أية لغة على التعبير عن المعنى الذي نزل به القرآن . ولكن يجوز بيان معناها بلغة أخرى. ولما كانت المذكرات التي أرسلت بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم على كتابه، فذلك يعني أن كلماتها قد أنزلت عن طريق الوحي وهو ما يجعل كلماتها لا تترجم إلى لغة الدولة المرسل إليها، وإنما أرسل من يقوم ببيان معناها.

3- إن الإسلام دين عالمي انزل للناس كافة. وان المنطق يقضي ان يفهم كل مسلم لغة هذا الدين حتى يكون إيمانه صادقا وكاملا سواء أكان المسلم عربيا أم غير عربي. وان المذكرات التي أرسلها النبي ﷺ يدعو فيها ملوكها وأمراءها وشيوخ القبائل وشعوبهم جميعا إلى الإسلام، فان الضرورة تتطلب إعطاء الأهمية للغة العربية منذ بداية الدعوة وإشعارهم ان لغة هذا الدين هي العربية.

4- ان اللغة العربية هي افضل اللغات التي كانت سائدة في ذلك الوقت ،وقد وصلت مرحلة من التطور لم تصلها أية لغة أخرى، وان التعبير بها يكون أدق للقصد المطلوب من أية لغة أخرى.

5- ان هيبة الدولة من احترامها للغتها، وان النبي ﷺ حرص على احترام دولة المسلمين باحترام لغتهم.

و – مضمون المذكرات الدبلوماسية

يطلق على مضمون المذكرات الدبلوماسية في العرف الدبلوماسي اللغة الدبلوماسية. وتستخدم اللغة الدبلوماسية للدلالة على أمور ثلاثة مختلفة، أولها اللغة بمعناها المعروف والمتداول التي يستخدمها الدبلوماسيون فيما بينهم في الحديث والمراسلة، كاللغة العربية والفرنسية والإنجليزية ، وثانيها: العبارات أو الجمل المتداولة أو الجمل الفنية، التي قد أصبحت على مر القرون جزءا من اللغة الدبلوماسية العادية. وثالثها وأكثرها عموماً وشيوعاً يستخدم لوصف تلك التوريات الرشيدة الحذرة التي تمكن الدبلوماسيين والوزراء من ان يقولوا لبعضهم أشياء لاذعة دون إثارة ودون تجاوز حدود الآداب.

والدبلوماسية في المعنى الأخير تكون تطبيق الذكاء وحسن التصرف في إدارة العلاقات الرسمية بين حكومات الدول المستقلة. والحاجة إلى حسن التصرف أدت بالدبلوماسيين إلى إيجاد أوراق تتداول عبارات متفق عليها، وهذه العبارات وان بدت لطيفة وأنيقة، فان لها قيمة تداولية معروفة ومتشابهة وإذا لم يتمكن رجال السياسة من معرفتها فقد يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة نتيجة جهلهم بهذه العبارات[1].

وسبق القول ان شكل المذكرات الدبلوماسية المتداولة بين الدول في الوقت الحاضر من حيث شعار الدولة المرسلة وذكر المرسل قبل المرسل إليه وأداء التحية وختام المذكرة تكاد ان تكون موحدة بين جميع الدول. لكن الاختلاف يكون في معالجة الموضوعات التي تتناولها المذكرات. وتتصف المذكرات الدبلوماسية بالاختصار والوضوح والدقة بالعبارات. وبأن ما يرد فيها من معلومات يعد وثيقة رسمية صادرة من الدولة.

---

(1) إن اللغة الدبلوماسية لها مصطلحاتها الخاصة فإذا ورد في مذكرة " ان الحكومة لا تستطيع ان تقف مكتوفة الأيدي" فيفهم بوضوح انها تعني ان الحكومة سوف تتدخل. وإذا ورد في مذكرة " ان الحكومة تنظر بقلق شديد" فان ذلك يعني ان الحكومة سوف تتخذ موقفا شديدا. وإذا ورد " ان الحكومة ترى نفسها مضطرة لإعادة النظر " فان ذلك يعني ان الصداقة أوشكت على ان تنقلب إلى عداء. هارولد نيكولسون ، مصدر سابق، ص 193.

وقد كانت المذكرات الدبلوماسية التي كتبها النبي ﷺ للملوك والأمراء وشيوخ القبائل تتصف بصفات الحضارة والنضوج المنطقي للأفكار التي يراد التعبير بها ؟

وقد اتسمت مذكرات النبي ﷺ بالصفات الآتية:

1- الاقتصار على القدر الضروري من أصول المطالب من النظر إلى فروعها. من غير تجزئة الأمور ومناقشة الأعمال الصغيرة.

2- دعوة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل للدخول في الإسلام، وتنظيم شؤون الدول التي دخلت الإسلام من الناحية الدينية والمالية وجمع الزكاة والصدقات والتهنئة والتعازي.

3- الاقتصار في ألفاظها على تقريب المعنى إلى المخاطبين بلا تكلف ولا تسجيع طويل. فقد كان العرب آنذاك يرون أن الإيجاز وحذف الفضول من الكلام من البلاغة، بل من أعلى طبقاتها ويمدحون بلاغة الرجل بحسن الإيجاز وترك الإسهاب، ويرون التطويل عيبا مخلا بالبلاغة، إلا إذا اقتضت الحاجة، وكانت رسائلهم قليلة اللفظ كثيرة المعنى. وكانت مذكرات النبي ﷺ على هذا النمط، وكان هم مذكراته إفهام الحاجة دون تكليف أو تسجيع أو تطويل.

4- استعمال الألفاظ الفخمه والعبارات الجزلة والأساليب البليغة إذا كان المرسل إليه عربيا، واستعمال الألفاظ الموجزة السهلة إذا كان المرسل إليه غير عربي[1].

5- تعبير النبي ﷺ عن نفسه باسمه وصفته "من محمد رسول الله" أو التكلم بضمير المتكلم "انا" و "لي" و "جاءني" و "وفد علي" وورد بلفظ الجمع مثل "بلغنا" و "جاءنا"[2].

(1) علي بن حسينعلي الاحمدي ، مصدر سابق، ص 11

(2) محمد رضا ، مصدر سابق، ص 263.

6- لم يطلب النبي ﷺ في مذكراته من الملوك والأمراء وشيوخ القبائل التخلي عن مناصبهم والتخلي عن أملاكهم والتنازل عن ممتلكاتهم، وإنما الإيمان بالله والدخول بدينه والحكم بما نزل عليه من أحكام. فلم تنازعهم المذكرات في مناصبهم وممتلكاتهم وإنما نازعتهم في معتقداتهم.

7- يعد الرسول الذي يحمل المذكرة مكملا لما تتضمنه المذكرة والإجابة عن الأسئلة والاستفسارات التي يوجهها المرسل إليه.

8- ان كل ما يحمله الرسول الذي يحمل المذكرة كان يعبر عن النبي ﷺ. فكان يجتمع بالرسل قبل إرسالهم للمرسل إليهم. ويوجههم ويوصيهم بالأمور التي يراها.

9- تضمنت غالبية المذكرات التي بعثها النبي ﷺخطاب اعتماد بأسماء الوفد ورئيسه .

10- طلبت غالبية المذكرات من المرسل إليهم الاهتمام بالرسل الذين يحملون مذكرات النبي ﷺ ورعايتهم ومنحهم الامتيازات والحصانات المطلوبة، وان لا يعودوا إلا وهم راضون. وتضمنت المذكرات عبارة دبلوماسية بان إرضاء الوفد هو إرضاء للمرسل الذي هو النبي ﷺ.

ز – وضع التاريخ على المذكرات

من الثابت ان التعامل الدولي المعاصر يوجب ان تورخ المذكرات الدبلوماسية. فلا تستلم المذكرة إلا إذا كانت تحمل تاريخا محددا عليها. ذلك ان المذكرات الدبلوماسية وثائق دولية لا تكون كاملة بدون ان يوضع عليها تاريخ محدد. والتاريخ المعتمد في الوقت الحاضر بالنسبة لجميع الدول هو التاريخ الميلادي إلا إذا كان للدولة تاريخ خاص بها فيوضع تاريخها الخاص إلى جانب التاريخ الميلادي.

والمعروف ان التاريخ الإسلامي هو التاريخ الهجري. غير ان المتعارف عليه ان هذا التاريخ وضع في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد ذكر بعض العلماء ان النبي ﷺ لما قدم المدينة في شهر ربيع الأول أمر بالتاريخ. وقد استشهد العلماء بالرسالة المرسلة لنصارى نجران، فقد أمر النبي ﷺ عليا ان يؤرخ ذلك لخمس من الهجرة. فالمؤرخ بهذا التاريخ هو النبي ﷺ وتبعه عمر رضي الله عنه[1].

وقد أيد الطبري ان النبي ﷺ عندما قدم المدينة أمر بالتاريخ[2].

ح – الخط الذي كتبت به المذكرات

تكتب المذكرات الدبلوماسية في الوقت الحاضر بأحدث الأجهزة الخاصة لتكون واضحة للمرسل إليه. وتتضمن هذه الأجهزة أنواعا متعددة من الخط، ويجب ان يختار افضل أنواع الخط المتعارف عليه بين الدول. ولا يعتد بجمالية الخط أو رونقه بقدر ما يعتد بوضوحه .

والرسائل العربية تكتب بالخط العربي. وأول من كتب بالخط العربي حمير بن سبأ. وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند. وسمي بالمسند لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام. وقد وجد هذا الخط في آثار أعالي الحجاز مدين والحجر. وفي العراق وبادية الشام والأحساء، وكان الخط العربي قبل الإسلام خاليا من الحركات والاعجام " النقط " لعدم حاجتهم اليها، لانهم فصحاء انطبعوا على ملكة الإعراب بالسليقة. وان تنقيط الحروف العربية لم يحدث إلا عند وقوع العرب في التصحيف. وان أول من وضع النقط على الحروف العربية هو أبو الأسود الدؤلي بتلقين من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[3].

---

(1) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 181.

(2) الطبري، مرجع سابق، ص 110.

(3) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 262.

وقد كان الخط العربي وبخاصة في المدينة ومكة دون نقط ولا تشكيل. وقيل ان المذكرات التي أرسلها النبي ﷺ كتبت بالخط المكي وزعم قسم آخر بأنها كتبت بالخط المدني، ورأي ثالث قال إنها كتبت بالخطين المكي والمدني. ومن الصعب ان يتضح الفرق بين الخطين. وأطلق على الخط هذا أيضا بالجزم، وقد سمي بالخط الكوفي بعد قيام الكوفة. وقد استخدم الخط العربي البسيط. وقد كتبت المذكرات في عهد النبي ﷺ من قبل عدة كتاب بخط واضح مقبول وبأسطر مستقيمة فيها التسلسل والمتابعة في خط واحد متكامل[1].

لقد استعمل النبي ﷺ عدة كتاب في كتابة مذكراته إلى الملوك والأمراء وكان هؤلاء من مكة والمدينة واليمن ومناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية. غير ان ما يلاحظ ان خط هذه المذكرات يكاد يكون واحدا متشابها[2].

ط - ختم المذكرات

تختلف الكتب الرسمية عن المذكرات الدبلوماسية. حيث تنتهي الكتب الرسمية بتوقيع الكتاب باسم المسؤول الإداري أو السياسي. بينما لا توقع المذكرات الدبلوماسية ولا يوضع اسم المسؤول عليها، وإنما تختم بختم الدائرة المرسلة.

ويبدو ان هذه الطريقة قديمة وسابقة لظهور التواقيع، واستعملت عندما كانت أسماء الأشخاص تكتب على اسطوانة دائرية ثم تطوى على الطين فيظهر طبعها عليه. وهي الطريقة المعول عليها بين المتراسلين من الأقوام القديمة التي سكنت في وادي الرافدين واليمن والنيل. ولا تزال المتاحف العربية تضم العديد من الأشكال الأسطوانية. ثم تطورت الأشكال الأسطوانية لتوضع على خاتم الشخص ليصبح اسمها الأختام الأسطوانية. حيث تنقش حروف أو رموز أو أسماء أشخاص أو رسوم معينة على خاتم الشخص، ويضعه في إصبعه ليكون معه ليل نهار ليحفظه من السرقة. وعند

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) محمود شيت خطاب . مصدر سابق. ص 255.

وجود نقش الختم على الطين أو الورق أو الجلد فان الشخص صاحب الختم يكون ملتزما بما ورد في ذلك. فقد كانت الرسائل والمعاهدات والمعاملات القانونية والأوامر الرسمية تختم بختم المسؤول عن إصدارها[1].

ويظهر ان هذه الطريقة كانت مستعملة في مكة والمدينة. فعندما أراد النبي ﷺ مراسلة الملوك والأمراء وشيوخ القبائل، قيل له يا رسول الله انهم لا يقرؤون كتابا إلا إذا كان مختوما. فقال النبي ﷺ للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انقش خاتمي هذا وهو فضة. فأتى الإمام علي كرم الله وجهه إلى النقاش وقال له انقش هذا النقش[2]. فنقش الكلمات الثلاثة "محمد رسول الله" وكانت الكلمات مرتبة بشكل مقلوب من الأسفل إلى الأعلى تكريما لاسم الجلالة سبحانه، فيكون اسم الله الأول ثم رسول وأخيرا محمد. وتختم المذكرات بهذا الختم منعا لها من التزوير. وتختم عند آخر كلمة فيها. ويبدو ان المذكرات كانت تطوى وتختم بعد الطي أيضا حتى لا تفتح إلا من قبل المرسل إليه. وعندما يطوون المذكرة يضعون عليها شيئا رطبا كالطين أو غيره فيختمون عليها فلا تقرأ إلا بعد فض الختم الخارجي[3].

وقد انتقل خاتم النبي ﷺ بعد وفاته إلى أبي بكر الصديق ثم إلى عمر بن الخطاب ثم إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهم ،وقيل ان الخاتم سقط من يد عثمان في بئر إدريس بالمدينة[4].

(1) الدكتور عامر سليمان، القانون في العراق القديم، جامعة الموصل 1977ص121،

(2) جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطي ج2، مرجع سابق، ص 314.

(3) علي بن حسينعلي الاحمدي، مصدر سابق، ص 31. ويوسف إسماعيل النبهاني، مصدر سابق، ص 165. ومحمد رضا ص 262.

(4) المصدر السابق.

المبحث الثاني

نماذج من العلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد النبي ﷺ

ينظم القانون الدولي العام المعاصر العلاقات بين الأشخاص القانونية الدولية وهي الدول. ثم أضيف إليها الفاتيكان والمنظمات الدولية. غير ان الدول وحدها تتمتع بالأهلية القانونية الدولية[1].

وقد واجه النبي ﷺ عند نزول الرسالة مشكلة التخاطب مع الملوك والأمراء وشيوخ القبائل. فخلال وجوده في مكة لم يتمتع بصفة سياسية تمكنه من مخاطبة هؤلاء بالنظر لموقف قريش من الدعوة الإسلامية. فكان لابد من البحث عن مكان رحب تكون له فيه سلطة سياسية.

ووجد النبي ﷺ ان افضل مكان يستطيع إقامة نظام سياسي وقانوني فيه هو يثرب "المدينة". لأسباب عديدة في مقدمتها وجود عدد من الأنصار المؤيدين له، لأن أهلها بحاجة إلى قوة عربية تقف ضد اليهود المهيمنين عليها، ولأنها في شبه الجزيرة العربية وقريبة من بيت الله الحرام. وان سكانها وما يحيط بها خليط من عدة قبائل وعدة أديان فيها كعبدة الأوثان واليهود والمسيحيين. فكل منها ترغب بطائفة جديدة لعلها تتحالف معها لتقوي من عضدها ضد الاخرين. وهذا الخليط والتعددية يمكن التعايش معه. فشد الرحال للمدينة مع مجموعة من صحبه سماهم "المهاجرين".

وفي المدينة التقى المهاجرون بالأنصار فكونوا الشعب الذي أعلن عن نفسه فانشأ نظاما قانونيا وسياسيا لإدارة المدينة. فكان لابد من تنظيم البيت السياسي للمدينة وتصفية مشاكلها.

وكانت أول مشكلة واجهها النبي ﷺ في المدينة هي وجود اليهود بما يمثلونه من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية وتحالفات مع القبائل المجاورة ومنها قبيلة قريش.

---

(1)Michael Akehurst , A Modern Introduction To International Law. Atherton Press. New York 1970. p.91.

وقد وجد ان الصراع مع اليهود ليس لصالحه خاصة وان دولة المدينة الفتية تتطلب الثبات والقوة والمنعة، وانه لابد له ان يتفرغ لنشر الدين الجديد ومخاطبة الملوك والأمراء.

وعلى الرغم من ان المسيحيين غير مؤثرين في حياة المدينة إلا ان تواجدهم في الجزيرة يتطلب خلق علاقة معينة.

ومن اجل ذلك كان لابد له من إقامة علاقة معينة مع اليهود والمسيحيين ومن ثم مخاطبة الملوك والأمراء.

وبناء على ذلك سنتناول علاقات النبي ﷺ مع القوى المجاورة وهم اليهود والمسيحيون والمجوس والمشركون في النقاط الآتية :

اولاً : العلاقات مع اليهود

بعد ان تمكن قورش الإخميني من احتلال بابل سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين، فعاد بعضهم وفضل البعض الآخر البقاء في بابل لما أصابه من ثروة وغنى . وبقي اليهود بين فلسطين والعراق.

أما وجود اليهود في المدينة فكان على اثر ضربة " هارديان " إمبراطور الروم وتشتيتهم في مناطق متعددة. وبعد ذلك لاذوا بالانطواء والعزلة وانكمشوا على أنفسهم، وعاشوا تاريخهم وتراثهم في أعماقهم وطي صدورهم. فبدوا وكانهم قد فقدوا ثقتهم بربهم " يهوه "، الذي لم يستطع ان يدافع عن مقره الوحيد في جبل " موريا " في أورشليم، لأنه لم يرد عنهم الضربات ويحميهم من الويلات والمصائب.

ومن جراء ذلك حصل تبدل وتطور في تفكيرهم ونفسهم فانتقلوا من مرحلة الدين إلى مرحلة القومية فلم تعد اليهودية ومعتقداتها دينا كما هو المفروض فيها. بل أصبحت قومية متزمتة متمسكة بالأمجاد الغابرة والذكريات المنطوية على نفسها، حاقدة على جميع البشر. فمن ذلك الزمن انتهت اليهودية كدين يخدم الله، وغدت قومية تخدم الجماعة التي تنتسب إليها[1].

---

(1) نصري سهلب ، مصدر سابق، ص 55.

وقد وفد اليهود إلى شبه الجزيرة العربية منذ فترة طويلة، فمنهم من سكن المدينة ومنهم من سكن في مناطق أخرى.

أ- العلاقة بيهود المدينة وما جاورها

بعد احتلال إمبراطور الروم " هارديان " للقدس سنة 150 م هاجر عدد من اليهود إلى يثرب، وسكنوا فيها وقاموا بزراعة أرضها. فغدوا أقوياء ذوي نفوذ وسلطان، أصحاب صناعات متعددة تدر عليهم أرباحا كبيرة. وامتد نفوذهم إلى خارج مدينة يثرب وأصبحوا يضطهدون الآخرين، وخاصة أهل مدينة يثرب. فلم يحتكروا الخيرات الدنيوية فحسب، بل أرادوا احتكار الإيمان والثروات الروحية. ووجدوا انهم افضل الناس وانهم شعب الله المختار دون سواهم في إطار مجتمع يشرك بالله ويعبد الأوثان والأنصاب وينتشر فيه الاستعباد والاستغلال.

وازدهرت ثلاث قبائل يهودية في يثرب، وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. وغدوا ذوي نفوذ ورأي وسلطة. وعندما وقعت الحرب بين الأوس والخزرج في يثرب كان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، لا لاقتناعهم بان الحق هنا أو هناك، بل لأنهم في الأصل كانوا على خلاف فيما بينهم ولربما أثاروا تلك الحروب بوسائلهم الخفية المبطنة لتتم لهم السيطرة[1].

وجعل اليهود من يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام. وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد وسعة الثروة والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية، والمكانة الدينية المستمدة من كونهم أصحاب كتاب سماوي ومن ذوي الصلة بالأنبياء والأمم القديمة. وكان لهم مركز المعلم والمرشد والمرجع، بل كانوا القضاة لسكان مدينة يثرب. فكانت لهم الحرمة والحصانة والقوة والنفوذ في حل المشاكل والتمتع بالكيان المتميز. وقد اندمجوا في الحياة العربية وارتبطوا بمواثيق الأحلاف مع القبائل المجاورة. وهذا ما زاد من مركزهم ورسوخ

---

(1) نصري سهلب ، مصدر سابق، ص 56.

قدمهم قوة وشدة[1]. وظهر منهم الحكماء والأدباء والشعراء. إلا ان هذا الاندماج في الحياة العربية لم يؤثر في عزلتهم في أماكن إقامتهم ولغتهم ودينهم. فبقوا كيانا مستقلا قائما بذاته يعيشون في قلاع محصنة منعزلة. وان اندماجهم ما هو إلا مظهر لتأمين مصالحهم.

وكان عدد من اليهود الذين عاصروا النبي ﷺ في يثرب واليمن وأنحاء أخرى من شبه الجزيرة العربية ينتظرون الزمن الذي يعودون فيه إلى صهيون وينتظرون مجيئ مسيحهم الذي وعد به الرب[2].

وبالرغم من ان بني إسرائيل ينتسبون إلى النبي إبراهيم عليه السلام، وان اليهودية دين سماوي، وان الغالبية من العرب كانوا يعبدون الأوثان والانصاب، فقد كان من المفروض ان يعتنق العرب هذا الدين. غير ان اليهودية لم تنتشر في شبه الجزيرة العربية[3] للأسباب الآتية :

1. إن اليهودية ليست دينا تبشيريا، وانما هي ديانة خاصة ببني إسرائيل، فلا يسمح لغير بني إسرائيل باعتناق اليهودية. وان من يعتنقها من غير بني إسرائيل، يطلق عليه بالمتهود. وهو في نظر اليهود لا يعد يهوديا.
2. من عادات اليهود الا يختلطوا مع الآخرين، فهم مجتمع منعزل ومنغلق على نفسه، ويعيشون في تجمعات سكنية منعزلة. ولا تزال هذه العادة عندهم حتى هذا اليوم.
3. مارس اليهود معتقداتهم وطقوسهم الدينية داخل معابد مغلقة. وان طبيعة العربي تأنف هذا الانعزال والانغلاق.

(1) محمد عزة دروزه، ج2 ، مصدر سابق، ص 49.

(2) نصري سهلب ، مصدر سابق، ص 56.

(3) تشير المصادر التاريخية إلى ان العرب الذين تهودوا منحوا ولاءهم لليهود وتخلوا عن عروبتهم عندما تخلوا عن قبائلهم العربية، ولم يبق لهؤلاء المتهودين إلا اللسان فقط.

يراجع بالدكتور هشام يحيى الملاح، موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة. سلسلة الموسوعة التاريخية، هيئة كتاب التاريخ ط1 مطبعة جامعة بغداد 1988ص18.

4. إن اليهود ينظرون للغير نظرة احتقار لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار. ولهذا فانه من غير المعقول ان يعمل اليهودي على إدخال العرب في ديانته.

5. مارس اليهود أعمالا وحرفا لا يحترمها العرب. فالعربي يحترم الزراعة والتجارة. ولا يحترم أصحاب الحرف.

6. مارس اليهود أعمالا غير مشروعة كالربا وإدارة الحانات والبغايا والرقيق. والعربي يحتقر مثل هذه الأعمال.

7. سلك اليهود مسلكا يحتقره العرب، كالغدر ونقض العهد والفتن وعدم الأمان.

8. اهتم النظام القبلي العربي بوحدة القبيلة. حيث كان لكل قبيلة آلهتها الخاصة، ولا ترغب بتفرقة أفراد القبيلة بتعدد الأديان.

ولهذه الأسباب لم تتمكن اليهودية من اقتلاع الوثنية من شبه الجزيرة العربية، بل إنها ساعدت على تقويمها وديمومتها.

وبعد هجرة النبي ﷺ إلى يثرب كان عليه ان يحسم أمر العلاقة مع اليهود، فوادعهم على دينهم من اجل ان يتفرغ لترتيب أوضاع المسلمين. ولكون اليهود موجودين في المدينة فان النبي ﷺ لم يراسلهم ولم يبعث لهم الرسل. وإنما كانت العلاقة معهم مباشرة.

وقد أثار النجاح الذي حققه الإسلام في يثرب حفيظة اليهود. فكانوا أول من اصطدم مع النبي ﷺ، لأنهم أول من أغرى المنافقين بالنفاق، وبثوا الريبة والشكوك وايقظوا فيهم روح التمرد والكيد وغذوا كل ما يحول دون تقدم الإسلام وانتشاره. وكان لليهود الدور الكبير في نماء المنافقين وقوتهم، والأذى البالغ والكيد الشديد والتحالف مع القرشيين، وتأليبهم ومظاهرتهم لهم حربيا وتثبيتهم إياهم في كفرهم أو في اضطلاعهم بأذى النبي ﷺ والمسلمين مباشرة وإقامة العثرات في طريقهم والكيد

والمكر والدس لهم والسخرية منهم فلم يكن ثمة من يد للنبي ﷺ إلا الدفاع عن الإسلام[1].

وقد كان ظن اليهود ان يجعلهم النبي ﷺ خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم اهدى من ان تشملهم دعوة الإسلام وامنع من ان يأمل النبي ﷺ دخولهم في دينة وانضوائهم تحت رايته. بل كانوا يرون ان من حقهم ان ينتظروا انضمامه إليهم لاسيما عندما رأوه متجهاً يصلي إلى قبلتهم ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القران ويجعل ذلك جزءا لا يتجزأ من دعوته.

غير ان ظنهم خاب عندما وجدوا ان النبي ﷺ يدعوهم بلسان القران للإسلام ويندد بهم لعدم إسراعهم في الإستجابة للدعوة، ولوقوفهم منه موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض. فكان هذا باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على النبي ﷺ منذ الخطوات الأولى. ثم رأوا الناس ينصرفون عنهم ويتخذون النبي ﷺ مرجعهم الأعلى ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع. فشعروا بالخطر الذي يحدق بمركزهم وبامتيازاتهم ومصالحهم[2].

ونتيجة لمواقف اليهود من الإسلام كان لابد للنبي ﷺ ان يحسم أمرهم. غير انه لم يتخذ منهم موقفا موحدا ومتزامنا، بل انه عمد إلى ان يتعامل بحسب خطورة كل فئة منهم. فتفرد بكل مجموعة منهم وبالشكل الآتي :

أ – يهود بني قينقاع

يعد يهود بني قينقاع أول يهود يثرب اللذين نقضوا ما بينهم وبين النبي ﷺ. وكانت بداية مشكلتهم عندما قدمت امرأة من العرب وجلست إلى صائغ من اليهود، فجعلوا يراودونها لكشف وجهها، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها. فلما

(1) محمد عزة دروزة ، مصدر سابق، ص 53.

يراجع ايضا : الدكتور هاشم يحيى الملاح، المنافقون في مدينة الرسول، مجلة كلية الدراسات الإسلامية العدد الخامس، بغداد 1973 ص471.

(2) محمد عزة دروزه ، مصدر سابق، ص 51.

قامت انكشفت عورتها فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم فغضب المسلمون، فوقع القتال بينهم وبين بني قينقاع،وانتهى الأمر بالنبي ﷺ إلى حصارهم حتى نزلوا على حكمه وأجلاهم عن المدينة إلى اذراعات وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف[1].

وبذلك تخلص المسلمون من اول فئة يهودية في يثرب. وكان المفروض من الفئات اليهودية الأخرى ان تأخذ العبرة من هذه الحالة إلا أنها أضمرت الشر للمسلمين.

ب- يهود بني النضير

بعد واقعة أُحد وقبل واقعة الخندق، ذهب النبي ﷺ مع بعض أصحابه إلى بني النضير ليستعين بهم على دية بعض القتلى فتآمروا لاغتياله. وشعر هو بذلك فنجا بنفسه، ثم أرسل إليهم في اليوم التالي إنذارا بالجلاء على ان يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم، ثم إن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ويمدونهم بالنصر فتشجعوا. وبعد ذلك قام النبي ﷺ بمحاصرتهم وضيق عليهم الحصار وأمر بقطع نخيلهم لإرغامهم على النزوح عن المدينة إرهابا لهم. ولم يف المنافقون بما وعدوا به، فاستولى عليهم الرعب واليأس ورضوا بالجلاء بشروط اشد من الأولى بسبب تمردهم. وأمرهم بتسليم سلاحهم والتنازل عن بساتينهم وقراهم الزراعية واخذ منقولاتهم. فأجلوا إلى بلاد الشام[2].

ج – يهود بني قريظة

عندما زحف جيش أحزاب الكفار على المدينة وحاصروها في واقعة الخندق، ظاهر يهود بني قريظة الغزاة بصورة علنية ضد المسلمين فتآمر اليهود والأحزاب الكفار

(1) محمد عزة دروزه ، مصدر سابق، ص 113. وقرني طلبه بدوي ، مصدر سابق، ص 135.

(2) يراجع : الدكتور احمد إبراهيم الشريف، الدولة الإسلامية الاولى، دار الفكر بيروت 1969، ص 219. ومحمد عزة دروزة ج2 ، مصدر سابق، ص 119. وقرني طلبه بدوي ، مصدر سابق، ص 197. وعبد السلام هارون ، مصدر سابق، ص 268.

والمنافقون للقضاء على المسلمين. وكان تأيد يهود بني قريظة للغزاة نتيجة للحلف الذي ذهب إليه وفد اليهود إلى مكة بقصد القضاء على المسلمين، واغتنموا فرصة ما حل بالمسلمين من ضعف بعد واقعة أحد، وقد ظهر الموقف اليهودي وخطورته وشدة نكايته بالمسلمين. كذلك ذهب وفد من اليهود إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضوها على محاربة المسلمين[1].

وقد أرسل النبي ﷺ زعيمي الأوس والخزرج إلى يهود بني قريظة وطلب منهما ألاّ يجهرا ان كان اليهود يهدفون إلى الغدر بالمسلمين لئلا يسبب ذلك الذعر للناس. وقد وجد زعيما الأوس والخزرج اليهود على اخبث ما بلغهما فقرر النبي ﷺ إجلاءهم واخذ ما لديهم من أموال[2].

د- يهود خيبر

كانت خيبر مركزا للدسائس. وقد سار النبي ﷺ لفتحها سنة 628 م، بعد صلح الحديبية بنحو شهرين. وكانت في خيبر حصون كثيرة استغرق فتحها نحو شهر ونصف. بسبب أن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة. وكان الجهد والمشقة على المسلمين في الرحلة. ولما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال غنيمة للمسلمين. وان النبي ﷺ ابقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريدهم من السلاح وأجلى الخطرين منهم[3].

هـ- وادي القرى

بعد ان فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من فتح خيبر توجه إلى وادي القرى وكان فيها حصون عديدة، وقد قاوم اليهود فيها. وتمكن النبي ﷺ من فتحها[4].

(1) محمد عزة دروزة ج2 ، مصدر سابق، ص 120. وقرنه طلبة بدوي ، مصدر سابق، ص 253.

(2) محمد عزة دروزة ج2 ، مصدر سابق، ص 122.

(3) المصدر السابق، ص 123.

(4) محمد رضا ، مصدر سابق، ص 278.

و – رسل يهود فدك إلى النبي ﷺ

بعد ان انتصر النبي ﷺ على اليهود في المناطق المذكورة شعر يهود فدك بضعف موقفهم فأرسلوا رسلهم إلى النبي ﷺ يصالحونه على نصف أملاكهم ويعاهدونه على المسالمة والأمان[1].

ز- الحصون اليهودية الأخرى

بعد ان تمكن النبي ﷺ من فتح الحصون اليهودية المهمة وإجلاء اليهود عنها، توجه إلى فتح حصون اليهود الأخرى. فتمكن من فتح حصون ناعم والصعب والزبير والشق[2].

ح – يهود مخضوري الشوكة في المدينة

كان بين يهود خيبر وبين من بقي من يهود مخضوري الشوكة في المدينة صلات، وان هؤلاء كانوا عيونا لأولئك، حيث حاولوا تعطيل غزوة خيبر بالإشاعات المتنوعة من جهة، وبمطالبة مديني المسلمين بالديون التي لهم عليهم من جهة أخرى. وبعد ان ابرم النبي ﷺ الصلح مع أهل المدينة رأى الفرصة المنشودة قد سنحت لإنهاء تواجد اليهود في الحجاز وأمن جانبهم بصورة نهائية. فقرر التخلص من جميع اليهود في شبه الجزيرة العربية[3].

والسؤال المثير للجدل هو لماذا قرر النبي ﷺ إجلاء اليهود دون غيرهم من أعداء المسلمين ؟

ان قرار النبي ﷺ بإجلاء اليهود دون غيرهم يقوم على الأسس الآتية :

1. أن اليهود لم يكونوا من سكان شبه الجزيرة العربية وهم غرباء عنها كما انهم اقاموا فيها مستوطنات بدون وجه حق.

[illegible]

(1) قرنة طلبة بدوي ، مصدر سابق، ص 322.

(2) المصدر نفسه ص322.

(3) محمد عزة دروزة ج2 ، مصدر سابق، ص 125.

2. تنكرهم للدين الإسلامي وعدم الإيمان به بوصفه خاتم الأديان. مما يعني أن بقاءهم في شبه الجزيرة العربية يعتبر تحدياً لهذا الدين.
3. لم يحافظ اليهود على عهودهم مع النبي ﷺ واستمر تحالفهم مع أعداء المسلمين، وتآمرهم وغدرهم.
4. أيقن النبي ﷺ ان وجود اليهود في المدينة يعني عدم قيام دولة للمسلمين فيها.
5. ان وجود المسلمين واليهود في المدينة يعني وجود دينين سماويين وسلطتين سياسيتين تتناقضان مع بعضهما، وهو أمر لا تتحمله المدينة.

ومن اجل ذلك، فقد قال النبي ﷺ: " لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا ادع إلا مسلما "[1].

وكان لإخراج اليهود من شبه جزيرة العرب الفوائد الآتية :

1. ضعف أمر المنافقين في المدينة.
2. تزايد عدد المستجيبين للإسلام.
3. خفّ غلو زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون بقتال المسلمين. وجنحوا للصلح مع المسلمين.
4. ازدادت قوة المسلمين في المدينة، مما دفعهم للتفكير بفتح مكة[2].

2- بعثات النبي ﷺ إلى اليهود خارج المدينة

كان اليهود خارج المدينة اقل خطرا من يهود المدينة بسبب قرب يهود المدينة من المسلمين.

وقد حاول النبي ﷺ ان يضع جميع يهود شبه الجزيرة العربية تحت سلطته ليأمن غدرهم ولتكون الجزيرة كلها تحت سلطته. وليعرف عنهم وعن تحركاتهم. ولهذا فقد

(1) صحيح مسلم ج 2، مرجع سابق، ص 92.

(2) محمد عزة دروزة ج2 ، مصدر سابق، ص 54.

بدأ بمراسلة اليهود في جميع المناطق التي يتواجدون فيها. واليهود الذين خاطبهم النبي ﷺ هم :

أ- بعثة النبي ﷺ إلى يهود بني عاديا

أرسل النبي ﷺ لبني عاديا (وهم من اليهود) كتاباً . جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا. ان لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جزاء الليل مد والنهار شد".

ب- بعثة النبي إلى يهود ذي الكلاع وذي عمرو باليمن

ذو : تعني الأمير صاحب الدويلة الصغيرة في اليمن قبل الإسلام. وجمع ذي : أذواء. ويقصد بهم الأمراء أصحاب الدويلات الصغرى التي قامت باليمن إلى جانب الدولة اليمنية الكبرى.

وذو الكلاع : هو ابن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع. ويقال انه كان يكنى بأبي شرحبيل، وهو حميري. وكان ذو الكلاع رئيسا في قومه متبوعا. وكان ذو عمرو رجلا من أهل اليمن ولكنه أحد الأذواء المتغفنين في اليمن وذو مكانة مرموقة في بلاده وقومه. وذو الكلاع وذو عمرو من المتهودين باليمن[1].

وقد بعث النبي ﷺ رسولا هو جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فاسلما وأسلمت ضريبة بنت أبرهة بن الصباح.

ولم يرد نص المذكرة. ويذكر ان مذكرة واحدة أرسلت إلى ذي الكلاع وذي عمرو في شهر شوال من السنة التاسعة للهجرة.

وكان رسول النبي ﷺ هو جرير من أهل اليمن وهو اعرف بأهل اليمن من غيره. وعندما مرض النبي ﷺ وبلغ ذلك الأسود العنسي ادعى النبوة، فبعث النبي ﷺ من جملة

---

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 199.

من بعثهم جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الكلاع وذي ظُلَم للتعاون مع المسلمين على الأسود العنسي. فتعاونا مع المسلمين وتم قتل الأسود العنسي[1].

وعندما عاد جرير من اليمن إلى المدينة ليشرح الوضع للنبي ﷺ بعد القضاء على الأسود العنسي. وكان معه كل من ذي الكلاع وذي عمرو علم بوفاة النبيﷺ وهو في الطريق إلى المدينة، فعاد ذو الكلاع وذو عمرو لليمن. واستمر جرير في طريقه إلى المدينة، حيث اخبر ابا بكر الصديق رضي الله عنه بارتداد من ارتد في اليمن[2].

ثانياً : بعثات النبي ﷺ إلى المسيحيين

نشأت المسيحية في الشام إلا إنها لم تدخل الوطن العربي من الشام مباشرة، وإنما دخلت عن طريق الروم. وسنتناول نشوء المسيحية ودخولها الوطن العربي وعلاقة النبي ﷺ مع المسيحيين في المدينة وخارجها، وهو ما ستتناوله الفروع الآتية :

1 - نشوء المسيحية ودخولها الوطن العربي

تطلق كلمة المسيح على أنبياء بني إسرائيل عندما يعمد أحد أنبيائهم أحد اتباعه، فيطلق على الشخص المعمد بالمسيح أو النبي المنتظر إلى ان يموت النبي فيأتي من بعده المسيح ويصبح نبيا. ويتم التعميد بمسح الراس بالزيت، ولهذا يسمى بالمسيح. أما النصرانية فهي نسبة إلى المدينة التي ولد فيها المسيح عليه السلام. وتستخدم كلمة النصرانية عند المسلمين كمرادف للمسيحية. والمعنى واحد. وقد عمد يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) السيد المسيح عليهما السلام.

وقد حارب اليهود عيسى عليه السلام ولم يعترفوا بأنه المسيح الذي ينتظرونه. ووقف ضده رجال الدين لأنه اتهمهم بتحريف التوراة فقاموا بصلبه. وقد هرب اتباعه إلى المدن الكبرى لينقلوا رسالته.

---

(1) محمود شيت خطاب، مصدر سابق، ص200.

(2) المصدر السابق، ص 202.

وبعد ان اتبعت الدولة الرومانية ما جاء به عيسى عليه السلام بشكل محدود، سمت التعاليم التي جاء بها المسيح بالعهد الجديد " الإنجيل "، والتوراة بالعهد القديم. وسموا التعاليم التي جاء بها عيسى بالمسيحية لتمييزها عن الديانة اليهودية. وبعد احتلال الروم للشام وشمال أفريقيا أصبحت الديانة المسيحية قريبة من الوطن العربي. غير أنها دخلت شبه الجزيرة العربية بطريقتين . الأولى : باحتلال الحبشة لليمن، حيث فرض الأحباش الديانة المسيحية على أهل اليمن. والثانية : عن طريق الموجات التبشيرية. فقد وصلت أول بعثة تبشيرية لشبه الجزيرة العربية سنة 356م في عهد الإمبراطور البيزنطي " قسطنطين ".

وعلى الرغم من اختلاف طريقة الديانة المسيحية عن الديانة اليهودية، وان العرب كانوا يعبدون الأصنام والأنصاب، إلا ان العرب لم يعتنقوا الديانة المسيحية إلا بأعداد قليلة للأسباب الآتية :

1. تقوم المسيحية على أساس الرهبنة، أي التفرغ للعبادة، بينما تتطلب حياة العربي بذل الجهد الكبير لمواجهة ظروف الحياة الصعبة.
2. ان تواجد اليهود السابق لدخول المسيحية وفر لليهود فرصة تشويه المسيحية.
3. ان المسيحية دين تسامح ومسالمة لا تتلاءم وطبائع العربي القائمة على الثأر والغزو والأنفة.
4. تولى نشر المسيحية رجال دين من غير العرب. وغالبا ما يجهل هؤلاء اللغة العربية وطبائع العرب وتقاليدهم. كما ان الكتب الدينية لم تكن بالعربية.
5. فرضت المسيحية على الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية بالقوة عن طريق الغزو الحبشي، مما جعل العرب ينظرون للديانة المسيحية على انها دين احتلال[1]. خاصة بعد أن عزم أبرهة الحبشي على غزو الكعبة.

(1) يراجع : كتابنا، تاريخ النظم القانونية، دار الفكر العربي المعاصر، بيروت 1994، ص 276.

ولهذه الأسباب، لم تكن المسيحية واسعة الانتشار في شبه الجزيرة العربية. وان تواجدها في نجران لان بطريقهم كان عربيا هو قس بن ساعدة الأيادي. وكان مبشرا كبيرا لم تذهب عنه النزعة البدوية، فطاف في الأسواق الكبرى ومحافل الأدب على ناقته الحمراء. وقد سمعه النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه قبل الإسلام وحفلا بخطبته. وكان للمسيحية تواجد قليل في مكة والمدينة[1]. ولم يكن لهذا التواجد آثار سياسية في مكة والمدينة. وكان تأثيرهم على القبائل العربية ضعيفا.

2 - علاقة النبي ﷺ بالمسيحيين في المدينة وما جاورها

ان وجود المسيحيين في المدينة لم يكن ذا شان كبير ولم يكن يشكل ثقلاً سياسياً أو اجتماعياً، بسبب قوة اليهود فيها. ولهذا لم يقع صدام بين النبي ﷺ والمسيحيين في المدينة. فلم تصدر منهم مواقف مؤذية وخطرة كما كان الشأن بالنسبة لليهود. وكان الذين لقيهم النبي ﷺ دمثي الأخلاق ليني الجانب غير جانحين للعنف أو الكيد.

ان دائرة الاتصال بين النبي ﷺ والمسيحيين في المدينة كانت واسعة. لان المؤثرات التي كان يخضع لها المسيحيون الذين لقيهم النبي ﷺ واحتك بهم اكثر تنوعا، وكانوا اكثر تجردا من الهوى والرغبات المادية واكثر استعدادا بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها[2]. ذلك ان مسيحيي المدينة كانوا يعانون من اضطهاد اليهود لهم، فوجدوا في النبي ﷺ منقذا ليتنفسوا ويظهروا.

وعندما انتشرت أخبار الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، ثارت الأفكار، وصار رهبان المسيحيين الذين يستطيعون الجدل ووزن الأقوال ويرغبون في معرفة الوقائع وحقائقها والوقوف عليها بأنفسهم يشدون الرحال للمدينة كما فعل بعضهم عندما جاءوا إلى مكة ليروا ويسمعوا من النبي ﷺ وليحاوروه ويجادلوه، حيث

(1) محمد لطفي جمعة ، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958، ص 513

(2) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم، ج2 مطبعة الاستقامة، القاهرة 1948. ص 131

آمن قسم منهم بما رأى وسمع ولما لمسه من القوة والحق والروحانية والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل [1].

ومما زاد في قرب المسيحيين للإسلام، ان الآيات الواردة في القران الكريم بشأن المسيحيين، مع ما في بعضها من قوة في الكلام، فانه لا يمكن مقارنتها مع ما جاء بحق اليهود.

وفي الوقت نفسه فان هناك آيات تتضمن الثناء عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم، منها : قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريمَ للحواريينَ من أنصاري إلى الله قال الحواريونَ نحنُ أنصار الله فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طّائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحُوا ظاهرينَ﴾[2]. أي ابقوا على ما انتم عليه من نصرة الدين، وانصروا دين الله مثل نصر الحواريين لما قال لهم عيسى من منكم يتولى نصرتي وإعانتي فيما يقرب إلى الله. والحواريون هم أنصار المسيح وأخلص أصحابه وأول من آمن به.

وقيل ان هذه الآية جاءت بحق محمد وانها نزلت عندما جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى اظهر الله دينه. وقيل ان النبي ﷺ قال للنفر الذين لقوه بالعقبة "اخرجوا إلي اثني عشر رجلاً منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفل الحواريون لعيسى ابن مريم". ثم قال للنقباء : " إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل قومي "قالوا نعم[3].

وفي هذا ثناء على الحواريين واحترام لذكراهم، وفيه أيضاً تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والمسيحيين. وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وفد إليه وفد نجران في الربيع الأول من الهجرة، وكان مؤلفا من ستين شخصا منهم أربعة عشر من أشرافهم وثلاثة من كبار رجال الدين فاجتمعوا بالنبي ﷺ في المسجد، وعليهم الحبرات

(1) المصدر السابق، ص 132.

(2) سورة الصف الآية 14.

(3) محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، ط1 مطبعة الانباء الكويت 1986ص 740

وجرت مناظرة. كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من ان عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدأ التوحيد المطلق الذي قرره القرآن ودعا إليه ولكنهم لم يقتنعوا وظلوا يدّعون انهم على حق فطلبهم إلى المباهلة أي ان يدعو ويدعون بان تكون لعنة الله على الكاذبين، فلم يجيبوا وانصرفوا. وقد شهد جلسات المناظرة حشد من أعضاء الوفد وفريق من المسلمين وكبارهم ولعل بعض اليهود كانوا شهودا[1].

وقد عقدت بين النبي ﷺ وبعض المسيحيين مجالس مناظرة حول الدعوة الإسلامية وأسسها والعقيدة المسيحية في السيد المسيح عليه السلام[2].

3- بعثات النبي ﷺ إلى الدول المسيحية

بعد ان ترسخت الدولة الإسلامية في المدينة وتكامل نظامها، بدأت الدولة الفتية تحاول إقامة علاقاتها مع الدول المجاورة. فقرر النبي ﷺ مراسلة الدول المجاورة لشبه الجزيرة العربية. ومن الدول التي قرر مراسلتها، الدول التي تدين بالديانة المسيحية.

فقد طلب النبي ﷺ من أصحابه حضور جميع المسلمين للمسجد. فقال: " وافوني بأجمعكم بالغداة " وبعد ان صلى الفجر في مصلاه، التفت إليهم، فاختار منهم رجالاً فبعثهم رسلا إلى الملوك والأمراء[3]. فبعث ستة أشخاص في يوم واحد في شهر محرم سنة سبع للهجرة، وكان كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم[4]. وكان اختيار النبي ﷺ لهؤلاء الرسل يقوم على حسن الصورة والمنظر والفطنة والذكاء ومن لهم الخبرة والعلم بالأمم التي أرسلوا إليها.

(1) محمد عزة دروزة ج2، مصدر سابق، ص 148.

(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) علي حسين علي الاحمدي، مصدر سابق، ص 31.

(4) الشيخ عبد الحي الكتاني، مصدر سابق، ص 195.

ان إرسال النبي ﷺ ستة أشخاص في يوم واحد يعد عملا دبلوماسيا رائعا ويدل على ان النبي ﷺ لديه العلم والدراية بالقواعد الدبلوماسية. ذلك ان القانون الدولي المعاصر يعد الدول أشخاصا قانونية متساوية فلا يجوز تفضيل دولة على أخرى وان اختلفت في عدد السكان والمساحة والقوة الاقتصادية أو العسكرية. وان إرسال رسل النبي ﷺ في وقت واحد يعني انه لم يفضل دولة على أخرى، وعامل الجميع على قدم المساواة، فلو أرسل الرسل متواترين واحدا بعد آخر لكان ذلك يعني انه قد فضل دولة على أخرى. فيكون تجاوب هذه الدول بحسب أسبقية تقديرها. ولهذا فان النبي ﷺ قد عمل بقاعدة المساواة بين الدول ولم يفضل أحدها على الأخرى.

وبعد ان جمع النبي ﷺ رسله قال لهم ناصحا "انصحوا الله في عباده، فان من استرعى شيئا من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة. انطلقوا، ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم" قالوا ما صنعوا يا رسول الله، قال: "دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأما من كان مبعثه قريبا فرضي وسلم، ومن كان بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل: فشكا عيسى إلى الله فاصبح المتثاقلون"[1].

ومن الدول المسيحية التي أرسل إليها النبي ﷺ الرسل الدول الآتية :

أ- بعثة النبي ﷺ إلى ملك الروم

أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي ومعه مذكرة إلى هرقل ليقدمه إلى قيصر. سافر دحية عندما كان هرقل عائدا يحف به النصر بعد ان تغلب على الفرس، وأعاد منهم الصليب الأعظم الذي أخذوه من بيت المقدس ليرده إلى مكانه. وكان قد بلغ من سفره مدينة حمص حين حمل دحية المذكرة إليه فتلاها عليه وترجمها له[2].

وجاء بالمذكرة ما يأتي :

---

(1) علي بن حسين علي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 31.

(2) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ط4 القاهرة 1947 ، ص 393. وجلال الدين السيوطي، الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب تحقيق محمد هراس ج1 دار الكتب الحديثة، القاهرة 1967، ص 119. والشيخ عبد الحي الكتاني، مرجع سابق، ص 194. محمد عزة دروزة ، مصدر سابق، ص 132.

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإني أدعوك بدعوة الإسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم الأريسيين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون[1].

وقد روي عن دحية الكلبي انه قال : بعثني النبي ﷺ إلى قيصر صاحب الروم بكتاب، فقلت استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ. فقيل للقيصر: ان بالباب رجلا يزعم انه رسول من رسول الله ففزعوا لذلك. وقال ادخله، فأدخلني عليه وعنده بطارقته فأعطيته الكتاب وفيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم، فنهض ابن أخ له فقال له لا تقرأ الكتاب اليوم. فانه بدأ بنفسه وكتب صاحب الروم ولم يكتب ملك الروم. قال : فقرأ الكتاب حتى فرغ منه ثم أمرهم فخرجوا من عنده. ثم بعث إلي فدخلت عليه فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف فدخل عليه، وكان صاحب أمرهم يصدرون من رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب قال الأسقف : هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظره. قال قيصر اعرف انه كذلك ولكن لا أستطيع ان افعل، ان فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم [2].

وأراد هرقل التأكد من شخصية النبي ﷺ، فاستغل وجود أبي سفيان لتجارة في الشام فاستدعاه، فجاء إليه أبو سفيان. فقال له هرقل أيكم اقرب إلى هذا الرجل الذي يزعم انه نبيّ، فقال أبو سفيان أنا أقربهم. فقال هرقل ادن مني. وقال كيف هو فيكم، قلت هو فينا ذو نسب، قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله، قلت: لا. قال

---

(1) اختلف علماء الحديث في معنى كلمة الاريسيين. براجع : محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 268. ومحمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد بيروت 1969، ص 80.

(2) يوسف بن إسماعيل النبهاني ، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ، بيروت، ص 166.

فهل كان من آبائه من ملك، قلت لا. قال فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، قلت: ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون، قلت بل يزيدون. قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد ان دخل فيه، قلت لا. قال فهل اتهموه بالكذب قبل ان يقول ما قال، قلت لا. قال هل يغدر، قلت لا. قال: فهل قاتلتموه، قلت نعم. قال فكيف كان قتاله، قلت : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال بماذا يأمركم، قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم وبالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فأرسل هرقل المذكرة إلى قيصر. وقال أبو سفيان فلما فرغ هرقل من المذكرة كثر الصخب وارتفعت الأصوات فأخرجنا فقلت لأصحابي انه يخافه ملك بني الأصفر[1].

وعندما دخل دحية على القيصر قال دحية أرسلني من هو خير منك والذي أرسله خير منه ومنك، فاسمع بذلك ثم اجب منصحاً، فإنك ان لم تذلل لم تفهم وان لم تنصح لم تنصف. قال القيصر هات، قال : تعلم أكان المسيح يصلي، قال نعم، قال فاني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من دبر خلق السماوات والأرض والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم بعده وعندك من ذلك آثاره من علم تكفي عن العيان وتشفي من الخير، فان أجبت كانت لك الدنيا والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، واعلم ان لك ربا يقصم الجبابرة ويغير النعم، فاخذ قيصر الكتاب ووضعه على عينيه ورأسه وقبله[2].

ولم يعتنق قيصر الإسلام لا لأنه لم يؤمن به، إنما والحكم الذي يتطلب ذلك نظرا للظروف التي كانت تمر بها الدولة. غير ان المذكرة أحدثت تأثيرا مهما. فقد حصل قيصر على معلومات عامة عن الإسلام من مصدره، كما أوضحت المذكرة ان الإسلام دين سلام ومحبة يكره العنف والقوة.

---

(1) محمود شيت خطاب، مصدر سابق، ص 72.

(2) الشيخ عبد الحي كتاني، مصدر سابق، ص 183.

ب – بعثة النبي ﷺ إلى الغساسنة

الغساسنة نسبة إلى غسان. وهم قوم هاجروا من اليمن إلى الشام وحاربوا قوما من قضاعة واخذوا ما بأيديهم. وأسسوا دولة تحت حماية الروم في البلقاء وحوران. وبلغوا من الحضارة والمدنية مبلغاً كبيراً واتخذوا لهم عاصمة في بصرى بحوران. وقد كان ملكهم هو الحارث بن أبي شمر الغساني، نسبة إلى عدي بن عمرو بن مازن الازد. وقد كان هذا الملك متكبرا مغرورا وعرا ساذجا ويفتقر إلى المرونة والحكمة، وبعيداً عن الأمانة والحنان.

وقد أرسل النبي ﷺ مذكرة للملك الغساني بيد رسوله شجاع بن وهب الأسدي. وكان شجاع طويلا يحسن القراءة والكتابة. وقد جاء بالمذكرة ما يأتي :

"بسم الله الرحمن الرحيم ...من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإني أدعوك ان تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك".

فلما قرأ المذكرة رماها وقال من ينزع ملكي مني، واستعد ليرسل جيشا لحرب المسلمين. وقال لشجاع اخبر صاحبك بما ترى ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك. وصادف ان كان عنده دحية الكلبي رسول النبي ﷺ. فكتب قيصر يمنعه من هذا العزم ويأمره ان يهيء بايليا ما يلزم لزيارته، فانه بعد ان قهر الفرس نذر زيارة القدس. فلما رأى الحارث كتاب القيصر صرف شجاع بن وهب واحسن معاملته ووصله بهدية وكسوة[1].

وقال شجاع : فأتيت إليه وهو في غوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر وهو في طريقه من حمص إلى ايليا " بيت المقدس "، فقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه : إني رسول من رسول الله ﷺ. فقال لا تصل إليه حتى يخرج كذا وكذا. وجعل حاجبه وكان روميا يقال له " مري " يسألني عن رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول : إني قد قرأت الإنجيل،

(1) الشيخ محمد الخضري بك، مصدر سابق، ص 185.

فوجدت صفة هذا النبي بعينه، فأنا أومن به واصدقه وأخاف من الحارث ان يقتلني. وكان الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي. وخرج الحارث فجلس ووضع التاج على راسه، فاذن لي فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه[1].

ولما فرغ الحارث من قراءة المذكرة قال شجاع ان قومك نقلوا هذا النبي الأمي من داره إلى دارهم " يعني الأنصار لأنهم من أهل اليمن " فأووه ومنعوه وان هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت بها الروم ، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس ، وقد اقر بهذا النبي الأمي من أهل دينك من ان فضلناه عليك لم يغضبك وان فضلناك عليه لم يرضك فان أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم. وان لم يفعلوا كانت لهم الدنيا ولك الآخرة وكنت قد استبدلت المساجد بالبيع والأذان بالناقوس والقبلة بالصليب وكان ما عند الله خير وأبقى[2].

ودولة الغساسنة من الدول العربية التي كانت تدين بالديانة المسيحية، بسبب خضوعها لحماية الروم الذين كانوا يدينون أيضا بالديانة المسيحية.

ج – بعثة النبي ﷺ إلى مملكة الحبشة

يعتقد ان قبيلة الأحباش هاجرت من اليمن وعبرت البحر الأحمر وأقامت دولة في أفريقيا. أطلق عليها اسم الحبشة نسبة للقبيلة المذكورة. ولا تزال هناك بقايا لقبيلة الأحباش في اليمن.

ودخلت الحبشة الديانة المسيحية في حدود القرن الرابع الميلادي. وكان للحبشة الدور الكبير في الإسلام عندما سمحت للمهاجرين المسلمين بدخول الحبشة وحمايتهم من اضطهاد المشركين.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية ان النبي ﷺ كان قد أرسل مذكرة للنجاشي ملك الحبشة مع هجرة المسلمين إليها يحملها رسوله جعفر بن أبي طالب أثناء وجود النبي ﷺ في مكة في السنة الخامسة للنبوة. وقد جاء في المذكرة :

---

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 119.

(2) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 185.

"من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ...سلم أنت، فإني احمد الله إليك الذي لا اله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. أني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة له على طاعته وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله.

وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا ونفرا من المسلمين معه، فإذا جاؤوك فاقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى"[1].

وبعد ان استقر النبي ﷺ في المدينة، كان من الأشخاص الذين أرسل إليهم الرسل هو النجاشي ملك الحبشة، فاختار له عمرو بن أمية الضميري. والسبب في إيفاده هو ان النجاشي كان مملوكا في بني ضمرة، وكان عمرو من سادات تلك القبيلة ومن ابرز شخصياتها قبل الإسلام وبعده، وكانت الفرصة متاحة له للتأثير على النجاشي.

وجاء في المذكرة التي أرسلها للنجاشي ما يأتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم...من محمد النبي إلى الأصحم عظيم الحبشة ... سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله واشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعوة الإسلام فإني رسول الله، فاسلم تسلم " يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، الا تعبدوا إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون " فان أبيت فعليك إثم النصارى من قومك.

وعندما سلم عمرو بن أمية الضميري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي قال عمرو : يا أصحمة ان عليّ القول وعليك الإستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منّا، وكانا في

(1) الطبري ج2، مرجع سابق، ص 652. ومحمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 41،

الثقة بك منك، لانا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه، ولم نخفك على شئ إلا أمناه. وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاضٍ لا يجور. في ذلك الموقع الحزّ، وأصابه المفصل، وإلا فانت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله في الناس، فرجال لما لم يرجهم، وأمنك على ما خالفهم عليه بخير سالف واجر ينتظر. وأجابه النجاشي إجابة المؤمن: " اشهد انه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وان بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وان العيان ليس أشفى من الخبر ". وقد قيل بان النجاشي عندما استلم مذكرة النبي ﷺ وضعها على عينيه ونزل من مكانه وجلس على الأرض.

وقد حمل عمرو بن أمية كتابا إلى النبي ﷺ جاء فيه :" بسم الله الرحمن الرحيم... إلى محمد ﷺ من النجاشي أصحمة. سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمته وبركاته. أما بعد فإني قد زوجتك امرأة من قومك، وعلى دينك، وهي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هدية جامعة قميصا وسراويل وعطافا وخفين ساذجين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" [1].

وقد اختلفت الروايات في موضوع إسلام النجاشي، فمنهم من قال انه اسلم ومنهم من قال انه بقي على المسيحية[2]. غير انه من الثابت ان النجاشي تعامل مع المسلمين تعاملا جيدا، وانه وفر الحماية للمسلمين الذين هاجروا، واكرم رسل النبي ﷺ. وهذا يعود بالتأكيد إلى الأسلوب الدبلوماسي الذي اتبعه النبي ﷺ في مخاطبته للنجاشي وإقامة علاقات جيدة معه .

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 54. وجلال الدين عبد الرحمن ابي بكر السيوطي، الخصائص الكبرى، ج2، دار الكتب الحديثة القاهرة 1967 ،ص 116.

(2) يراجع محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 75. ومحمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 56، الدكتور اسماعيل سرور شلش، العلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الإسلامية الاولى، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، العدد 66 / 8، 1984، ص42.

ونتيجة لطبيعة العلاقات بين المسلمين والنجاشي فلابد ان يكون رد النجاشي جميلا. فقد بعث له النبي ﷺ مذكرة يطلب منه فيها رد المسلمين الذين أقاموا بالحبشة. وقد جهز لهم النجاشي سفينتين لحملهم، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب[1].

د- بعثة النبي ﷺ إلى حاكم آيلة

أرسل النبي ﷺ وفدا إلى أسقف آيلة وأهلها. ويتألف الوفد من شرحبيل وأبيّ بن رحرملة وحريت بن زيد الطائي ومعهم مذكرة، جاء فيها : "بسم الله الرحمن الرحيم ...من محمد رسول الله إلى أسقف آيلة وأهلها .سلم انتم، فإني احمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو، فإني لم اكن لاقاتلكم حتى اكتب اليكم، فاسلم أو أعط الجزية وأطع الله ورسوله، ورسل رسوله، وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاة واكس زيدا كسوة حسنة، فمهما رضيت رسلي رضيت ... أطعم رسلي شرحبيل وأبي رحرمله وحريت بن زيد الطائي، فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته ..."[2].

ويلاحظ ان هذه المذكرة تتضمن نوعا من الشدة. وهي تختلف عن المذكرات المرسلة للملوك الذين سبق ذكرهم. والذي نراه هو ان الملوك الذين راسلهم النبي ﷺ كانوا من الملوك المتنفذين الذين يحسب حسابهم فكان الحذر والانتباه واجبين في مخاطبتهم. بينما أسقف آيلة لم يكن بالأهمية أو القوة قياسا بالنسبة للملوك السابقين. ولهذا فقد تضمنت المذكرة خيارين لم تتضمنهما المذكرات السابقة وهما ،الإسلام أو دفع الجزية. كما تضمنت المذكرة ضرورة إكرام الوفد، وان إرضاء الوفد هو إرضاء للنبي ﷺ.

كما تضمنت المذكرة وثيقة اعتماد الوفد بالاسماء، وتخويله الصلاحيات المطلقة. وان النبي ﷺ يوافق على ما يقرره الوفد من أمور. ونرى ان هذه المذكرة

(1) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الخصائص الكبرى ج2 دار الكتب الحديثة القاهرة 1967. ومحمد حسنين هيكل ، مصدر سابق، ص 394. والدكتور إسماعيل سرور شلش ، مصدر سابق، ص 42.

(2) الدكتور محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 87

تضمنت قواعد دبلوماسية متقدمة. فهي رسالة دعوة للإسلام أو دفع الجزية، ورسالة تهديد، وطلب إكرام الوفد وإعطائه صلاحية للتفاوض . وهي تعبر عن القوة والشدة.

هـ – بعثة النبي ﷺ إلى مملكة اليمامة

كان هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة شجاعا لبيبا شاعرا وخطيبا. وكانت صلته قوية بكسرى، وأوكلت إليه حراسة قوافل كسرى في طريقها من المدائن إلى اليمن وبالعكس. وكانت مهمته تنحصر في منطقة اليمامة من نجد. مقابل حماية كسرى له. وكان على الديانة المسيحية، ومات سنة ثمان للهجرة 630 م. وقيل بان ملكا آخر كان على اليمامة، هو ثمامة بن آثال وكان مسلما[1].

وقد بعث النبي ﷺ سليط بن عمرو من بني عامر بن لؤي إلى هوذه بن علي الحنفي وثمامة بن اثال. ويبدو ان هوذة كان أوسع سلطانا وأقوى من ثمامة، غير انهما كانا المسيطرين على اليمن. وتختلف رسالة كل منهما. وجاء بمذكرة النبي إلى هوذه ما يأتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى هوذه بن علي .. سلام على من اتبع الهدى، واعلم ان ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فاسلم تسلم، واجعل لك ما تحت يدك[2].

وقدم سليط مذكرة النبي ﷺ إلى هوذه فأنزله وحباه وقرأ المذكرة وكتب للنبي ﷺ ما يأتي :" ما احسن ما تدعو إليه واجمله. وأنا شاعر قومي وخطيبهم. والعرب تهاب مكاني. فاجعل لي بعض الأمر اتبعك ".

ومنح سليطاً هدايا وأكرمه، فنقل سليط ذلك للنبي ﷺ واخبره بما قال هوذه فقرأ المذكرة فقال : " لو سالني سَيَابة من الأرض ما فعلت، باد وبادَ ما في يديه ". فتركه النبي ﷺ للأيام. وحاول هوذه ان يحرك الأمر من جديد، فبعث وفدا فيهم مجاعة بن مرارة والرجّال بن عنفوة إلى النبي ﷺ يقول له : " ان جعل له الأمر من بعده

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 128. والشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 194. ومحمد رضا ، مصدر سابق، ص 275.

(2) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 128. ومجموعة الوثائق السياسية ص91.

اسلم وسار إليه ونصره وإلا قصد حربه ". فقال النبي ﷺ: " لا ولا كرامة، اللهم اكفينه". فمات هوذة بعد قليل في السنة الثامنة للهجرة، وأما أعضاء الوفد مجاعة والرجال فقد اسلما[1].

أما ثمامة بن اثال الحنفي، فقد كان سيد أهل اليمن، فقد قصده سليط كما قصد هوذه لشد أزره في الدعوة إلى الإسلام. ولم تذكر المصادر نص كتاب النبي ﷺ إليه.

وعندما قبض المسلمون على رجل أتو به النبي ﷺ قال : "اتدرون من اخذتم ؟ هذا ثمامة بن اثال الحنفي، احسنوا إساره ". ورجع النبي ﷺ إلى أهله فقال : " اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به اليه ". وأمر بناقة حلوب يعطى من لبنها اليه، فجعل لا يقع من ثمامة موقعا، ويأتيه النبي ﷺ فيقول" " اسلم يا ثمامة" فيقول يا محمد ان تقتل تقتُل ذا دمٍ، وان ترد الفداء فسل ما شئت. ثم قال النبي ﷺ يوما "أطلقوا ثمامة" فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع فتطهر طهوره، ثم اقبل فبايع النبي ﷺ على الإسلام[2].

وخرج ثمامة إلى اليمن، فمنع أهلها ان يحملوا إلى مكة شيئا، فكتبوا إلى النبي ﷺ: " انك تأمر بصلة الرحم، وانك قطعت أرحامنا". فكتب النبي ﷺ إلى ثمامة ان يخلي بينهم الحمل، فأخذت القوافل تسير من اليمامة إلى مكة تحمل القمح وأنواع الطعام والتمر وتسير من مكة إلى اليمامة تحمل الأقمشة والجلود والتوابل والعطور في رحلتي الشتاء والصيف من الشام واليمن، وكان أمر النبي ﷺ لثمامة قبل هدنة الحديبية. ورغم اشتداد الحرب مع قريش، فإنه لم يقبل بتجويع قريش ولا بقطع الرحم[3].

و – بعثة النبي ﷺ إلى إمارة بصري

أرسل النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بمذكرة إلى أمير بصرى. وعندما بلغ الحارث مؤتة وهي قرية من عمل البلقاء بالشام تعرض له شرحبيل بن عمر الغساني،

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 131.

(2) المصدر نفسه ص132.

(3) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 133.

فقال له اين تريد ، قال الشام، قال لعلك من رسل محمد قال نعم، فقام بقتله. وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم لقتله وجدا شديدا[1].

ثالثا : بعثات النبي ﷺ إلى الدول المجوسية

كانت تتقاسم العالم في عهد النبيﷺ إمبراطوريتان هما الروم والفرس. أما الدول الأخرى فإنها كانت إما تحت حماية الروم أو تحت حماية الفرس. وغالبا ما تدين الدولة المحمية بدين الدولة الحامية.

والمجوسية كلمة معربة من كلمة الزرادشتية بالفارسية، وهي ديانة خاصة بالفرس ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد. والزرادشتية نسبة إلى زرادشت وهو الشخص الذي جاء بهذه الديانة. وفي اللغة العربية سميت بالديانة المجوسية. ولا يزال اتباعها متواجدين في إيران.

وقد راسل النبي ﷺ الدول التي كانت تدين بالفارسية، وهي :

1- بعثة النبي ﷺ إلى إمبراطور فارس

إمبراطورية فارس تقع في إيران ويطلق على رئيسها لقب كسرى. واسم كسرى معرب، وهو بالفارسية " خسرو " أي واسع الملك. ويطلق على ملوك فارس لقب الساسانيين. وقد اعتلى عرش فارس العديد من الملوك. وفي عهد النبيﷺ كان " ابرويز بن هرمز " ، الذي تولى الحكم بعد مقتل أبيه على اثر تمرد قام به " بهرام ". وقد ساعد الروم " ابرويز " للتخلص من " بهرام ". وأثناء إقامة " ابرويز " في الروم اعتنق المسيحية على اثر حبه لامرأة مسيحية وهي شيرين ، وقد أحيط كسرى بجلال لم يبلغه ملك قبله. وكان اشد ملوكهم بطشا وانفذهم رأيا وابعدهم غورا. وقد طغى لكثرة ما جمع من الأموال وشره شرها فاسدا[2].

(1) الشيخ محمد الخضيري بك، مصدر سابق، ص 185

(2) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 83. وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مرجع سابق، ص 132

أوفد النبي ﷺ عبد الله بن حذافة القرشي، وهو ممن هاجروا إلى الحبشة، وكان جهور الصوت فصيح اللسان وذا دعابة ويفهم اللغة الفارسية، وهو من الستة الذين قيل عنهم عندما بعثهم النبي ﷺ كل رجل يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم.

وقد حمل الوفد مذكرة إلى كسرى جاء بها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله واشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعوة الله فاني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فاسلم تسلم فان أبيت فان أثم المجوس عليكم"[1].

ويلاحظ ان المذكرة المرسلة من النبي ﷺ إلى كسرى هدفها هو الطلب من كسرى دخول الإسلام فحسب، ولم تخيره بين الإسلام أو دفع الجزية، لان دفع الجزية يكون مقابل حماية المسلمين لغيرهم . في حين ان كسرى ملك دولة كبيرة. كما ان الرسالة لم تتضمن التهديد لكسرى وإنما بدأت بعبارة التعظيم له إرضاء لغروره. ولم تجعله عظيم الناس وانما اقتصرت على وصفه بأنه عظيم فارس فحسب. وان رفض الإسلام فان حكمه يكون حكم الكافرين.

أما عبارة " أثم المجوس عليك " فهي ليست اعترافا بالمجوس. وان الذي نعتقده هو ان اله المجوس هي النار، فيكون على كسرى اثم المجوس أي النار عليه ان رفض الإسلام.

وعندما تليت المذكرة على كسرى استشاط غضبا ومزق المذكرة. وكتب إلى بازان عامله على اليمن بان يبعث إليه براس هذا الرجل بالحجاز. فلما بلغت النبي ﷺ مقالة كسرى وما فعله بالمذكرة قال " مزق الله ملكه ". وأرسل بازان عامل كسرى في اليمن برسالة إلى النبي ﷺ وفي هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه ابنه شيرويه. وكان النبي ﷺ قد عرف ذلك. فاخبر رسل بازان به، وطلب إليهم ان يكونوا رسله إلى

---

(1) يراجع محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 110. الطبري تاريخ الرسل والملوك، ج2 ص 652. وجلال الدين عبد الرحمن الاسيوطي، مرجع سابق، ص 132.

بازان بدعوته إلى الإسلام. وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حل بفارس من هزائم، وشعروا بانحسار سلطانها عنهم. وعرفوا بانتصارات النبي ﷺ على قريش وقضائه على سلطة اليهود. فلما رجع رسل بازان اليه وابلغوه بالرسالة، كان سعيدا بان يسلم وان يبقى عامل النبي ﷺ على اليمن. واصبح انضمام بازان في ذلك الوقت نقطة ارتكاز له في جنوب شبه الجزيرة العربية[1].

وكان نجاح عبد الله بن حذافة نجاحا معنويا، فلم يكن غيره قادرا على ان يعمل عملا افضل مما عمله. فقد كان كسرى لا يعد نفسه ملكا فحسب، بل يعتبر نفسه ملك الملوك، وأسمى من البشر وندا للآلهة التي كان يعبدها وكان الغرور قد أعمى بصره وبصيرته فلا يرى إلا نفسه. لذلك أصر على كفره وعزم على معاقبة النبي ﷺ فاخفق في إيمانه كما اخفق في عقابه ثم قضى نحبه على يد ابنه.

ونعتقد ان عدم اهتمام كسرى برسالة النبي ﷺ ولو من الناحية الدبلوماسية كما فعل ملوك روما، ومخالفته القواعد الدبلوماسية في المجاملة، يعود إلى الغرور الذي كان فيه ، وأنه يرى ان النبي ﷺ خرج من أمة كانت الفرس تسيطر على العديد من أجزائها. ولم يكن للموضوع صلة دينية. ذلك ان ملوك فارس غير متحمسين للديانة المجوسية إلا من جهة علاقتها بالحكم وتثبيت سلطانهم.

2 - بعثة النبي ﷺ إلى مملكة البحرين

من الدول التي كانت تدين بالمجوسية، البحرين وهي تقع في منطقة الخليج العربي لقربها من النفوذ الفارسي. وسكان مملكة البحرين خليط من المجوس والمسيح واليهود والمسلمين وعبدة الأوثان. وكان ملكهم يدين بالمجوسية. وهو المنذر بن ساري بن زيد التميمي الدرامي، وينسب إلى الأسبذ قرية بهجر. فيقال له المنذر بن ساري الاسبذي. وقيل انه كان مسيحيا قبل إسلامه.

وقد بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين بعد غزوة الطائف في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة. والعلاء الحضرمي من القادة المسلمين وأبطالهم.

(1) محمد حسين هيكل ، مصدر سابق، ص 394.

وله خبرة في العمل الدبلوماسي. وهو أول من أشار على النبي ﷺ باستعمال الخاتم لختم الرسائل التي يرسلها إلى الملوك والأمراء [1].

وقد تبادل النبي ﷺ عدة رسائل مع ملك البحرين، وكانت أول رسالة قد حملها العلاء الحضرمي، تنص على ما يلي :

" بسم الله الرحمن الرحيم...من محمد رسول الله... الى المنذر بن ساري... سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإني أدعوك إلى الإسلام فاسلم تسلم، يجعل الله لك ما تحت يدك، واعلم ان ديني سيظهر إلى منتهى الخف"[2].

ومذكرة النبي ﷺ فيها الدعوة للدين وان يبقى على ملكه. وإشعاره بانتشار الدين بصورة غير محدودة.

ولما قدم العلاء الحضرمي على المنذر بن ساري بمذكرة النبي ﷺ. قال يا منذر انك عظيم في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة. ان هذه المجوسية ليس فيها تكريم العرب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ويأكلون ما ينكر أكله. ويعبدون في الدنيا نارا تاكلهم يوم القيامة. ولست بعديم العقل ولا الرأي، وهل ينبغي لمن لا يكذب ان لا تصدقه، ولمن لا يخون ان لا تامنه، ولمن لا يخف أن لا تثق به. فان كان هذا ليس ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به، أوليته زاد في عفوه وانقص من عقابه ان كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر[3].

ان العرض الذي قدمه العلاء الحضرمي يتسم بالحكمة والمنطق واتساع المعرفة والاطلاع على دين وعادات أهل البحرين وأحوالهم. وهو أمر يزرع الثقة لدى الطرف الآخر.

وقد رد المنذر بن سارى على مذكرة النبي ﷺ ردا جميلا، جاء فيه : "أما بعد يا رسول الله. فإني قرأت كتابك على أهل اهجر فمنهم من أعجبه الإسلام ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فاحدث إلي في ذلك أمرك".

---

(1) الدكتور اسماعيل سرور شلش ، مصدر سابق، ص 42. ومحمد رضا ، مصدر سابق، ص 276.

(2) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 148.

(3) الشيخ عبد الحميد الكتاني ، مصدر سابق، ص 184.

وقد رد النبي ﷺ على جواب المنذر بن ساوى بالمذكرة الآتية :

" بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإني احمد الله إليك الذي لا اله إلا هو واشهد ان لا اله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي وان رسلي قد اثنوا عليك خيرا وإني شفعتك في قومك ما ترك للمسلمين ما اسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاضل منهم وانك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية" [1].

ويتضح اختلاف لهجة هذه المذكرة عن المذكرة السابقة في الأمور الآتية:

1. بدأت المذكرة الأولى بالسلام على من اتبع الهدى لان ملك اليمن ليس مسلما بينما بدأت المذكرة الثانية بالسلام عليكم بعد ان اسلم الملك.
2. أشارت المذكرة إلى ان من يطع الرسل فقد أطاع النبي ﷺ. وان معاملتهم بالحسنى معاملة للنبي ﷺ.
3. بقاء الملك على السلطة مرهون بإصلاحه.
4. فرض الجزية على اليهود والمجوس الذين لم يسلموا. أما المشركون فعليهم الإسلام فحسب.

وقد أرسل النبي ﷺ مذكرة أخرى بخصوص المجوس فيها تفاصيل التعامل معهم. فقد جاء بالمذكرة ما يأتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم "... اعرض عليهم الإسلام فان اسلموا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن أبى فعليه الجزية في غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم ... عليكم ألا تمجسوا أولادكم وان مال بيت المال شيا لله ورسوله.." [2].

(1) الشيخ محمد الخضير بك ، مصدر سابق، ص 189. والدكتور محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 114.
(2) الدكتور محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 118.

وقد طلب النبي ﷺ من العلاء الحضرمي ان يقدم إليه بعشرين رجلا من عبد القيس قوم المنذر بن ساري، فقدم عليه بعشرين رجلا على رأسهم عبد الله بن عوف الأشج واستخلف العلاء على البحرين. وهذا لا يعني ان النبي ﷺ قد عزل المنذر بن ساري. وإنما وزع السلطات بينهما. فواجب العلاء هو الدعوة للإسلام وتفقيه المسلمين الجدد بدينهم وتعليم القران والسنة وجباية الصدقات والجزية وتوزيع الصدقات على الفقراء من أهل البحرين. أما المنذر فانه القائد القبلي والسياسي لقومه. وكان العلاء يتعاون مع المنذر في إدارة شؤون البحرين. ولذلك لا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر[1]. ونعتقد ان هذه أول تجربة تفصل فيها السلطة السياسية والإدارية عن السلطة الدينية. واكثر الظن ان هذه التجربة كانت لها ضروراتها. حيث ان ملك البحرين المنذر بن سارى لم تكن له معرفة بالدين وانه بحاجة إلى شخص يقوم بهذه المهمة.

3- بعثة النبي ﷺ إلى الاحساء

أهل الاحساء هم من اهجر، وقيل انهم قوم المنذر بن سارى. وقد جاء منهم وفد إلى النبي ﷺ. فأرسل إلى أهل اهجر المذكرة الآتية :

" بسم الله الرحمن الرحيم ...من محمد رسول الله إلى أهل اهجر ...سلم انتم فإني احمد الله إليكم الذي لا اله إلا هو. اما بعد فإني أوصيكم بالله وبانفسكم ان لا تضلوا بعد ان هديتم وان تغلوا بعد ان رشدتم. أما بعد فقد جاءني وفدكم فلم آت إليهم إلا ما سرهم، ولو إني اجتهدت فيكم جهدي كله أخرجتكم من اهجر فشفعت غائبكم وفضلت على شاهدكم فاذكروا نعمة الله عليكم.

أما بعد فانه قد أتاني الذي صنعتم وانه من يحسن منكم لا احمل عليه ذنب المسيء فإذا جاءكم امرائي فاطيعوهم وانصرفوا على أمر الله وفي سبيله وانه من يعمل منكم صالحا فلم يضل عند الله ولا عندي "[2].

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 158.

(2) المصدر السابق، ص 53.

4- بعثة النبي ﷺ إلى أمراء البحرين

أرسل النبي ﷺ العديد من المذكرات إلى أمراء البحرين لتنظيم شؤونهم وعلاقتهم بالدولة الإسلامية[1].

وكان للعلاء الحضرمي الدور المتميز والمقتدر والسفير الناجح في عمله إلى ملوك وأمراء البحرين وما جاورها. وتمكن من إنقاذ البحرين من السيطرة الفارسية. وقد اسلم أهل البحرين من العرب وغير العرب.

وقد أدت مذكرات النبي ﷺ إلى البحرين غرضين مهمين : الأول، شمل الفرد والجماعة والمسلمين وغير المسلمين والحاكم والمحكوم والسيد والمسود والعرب والعجم. فالكل في التوجيه النبوي سواء نحو العقيدة والشريعة والمثل العليا.

أما الغرض الثاني : فهو التنسيق وتحديد واجبات المجتمع الجديد، أفرادا وجماعات مسلمين وغير مسلمين. واعتماد العدل والتسامح والرأفة والتراحم والتعاون والعفو.

وقد أظهرت هذه المذكرات قدرة النبي ﷺ على معالجة مشاكل مجتمع تتعدد فيه الأديان، ووضع الحلول المناسبة، مما دفع سكان البحرين بمختلف أديانهم إلى اعتناق الإسلام دون استخدام القوة.

(1) ومن أمراء البحرين الذين أرسل لهم النبي ﷺ مذكرات :

أ- الأكبر بن عبد القيس. وقد جاء بالمذكرة ما يأتي : "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس. إنكم اتيتموني مسلمين مؤمنين بالله ورسوله في الجاهلية من القحم وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم إلا يحسبوا عن طريق الميرة ولا يمنعوا صوب القطر ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه ..."

ب- بنو عبد القيس. وقد جاء بالمذكرة : "بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لعبد القيس وحاشيتها في البحرين وما حولها انكم اتيتموني مسلمين مؤمنين بالله ورسوله وعاهدتم على دينه فقبلت على ان تطيعوا الله ورسوله فيما احببتم وكرهتم. وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت وتصوموا رمضان وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على انفسكم وعلى ان تؤخذ من حواش اموال اغنيائكم فترد على فقرائكم على فريضة الله ورسوله في اموال المسلمين ..."

ج- شبيب بن قرة وصحار بن العباس والمشمرخ بن خالد السعدي ولم ترد نصوص هذه المذكرات.

رابعاً : بعثات النبي ﷺ إلى المشــركين

المشركون هم الذين أشركوا بالله وعبدوا شريكا له. ويشكل المشركون الأغلبية في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها. وإذا كان الإسلام وضع ثلاثة خيارات لمعتنقي الأديان السماوية، وهي الإسلام أو الجزية أو القتال، فان للمشركين خيارين، هما الإسلام أو القتال. وقد حصلت مراسلات بين النبي ﷺ والمشركين، نأخذ منها ما يأتي :

1- ابو سفيان بن حرب

ابو سفيان هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، من وجهاء مكة واحد تجارها. وقد قاوم الإسلام في مكة[1]. وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، أرسل أبو سفيان رسالة تهديد جاء فيها:

" ... والآن فقد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك وقلع آثارك وقد أنفذنا إليك نريد منك نصف نخل المدينة فان أجبتنا إلى ذلك، وإلا ابشر بخراب الديار وقلع الآثار ".

وقد أمر النبي ﷺ عليا بان يكتب الجواب. فكتب علي ما يأتي :

" بسم الله الرحمن الرحيم ...

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق وفهمت مقالكم فوالله ما لكم عندي جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام وابشروا بضرب الحسام وبفلق الهام وخراب الديار وقلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى "[2].

2 - مسيلمة الكذاب

مسيلمة الكذاب الحنفي ملك اليمامة وقد ادعى النبوة. فأرسل وفدا للنبي ﷺ وحمله المذكرة الآتية :

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج1 ، مرجع سابق، ص 264.

(2) الدكتور محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 53.

" من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد فان الله عز وجل قسم الأرض بيننا ولكن قريشا غدرُ ".

فكتب النبي ﷺ ما يأتي . " من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد فان الأرض ملك لله يورثها من يشاء من عباده والعافية للمتقين "[1].

وقد طلب النبي ﷺ من الرسولين ان يسلما ، إلا انهما رفضا. فقال لهما : " لولا ان الرسل لاتقتل لقتلتكما ". فقيل ذهبت السنة ان الرسل لا تقتل[2].

3- بعثة النبي ﷺ إلى الحارث الحميري ملك اليمن

بنو حمير ينتسبون إلى حمير. والحميريون فرع من سبأ ، وحمير بن سبأ. وقد أقاموا دولة لهم في سنة 115 ق. م. وحارب الحميريون الفرس. واتخذوا مدينة ظفار عاصمة لهم. وكانت تسمى ريدان. واشتهروا بالتجارة. وانتهت دولتهم بحدود سنة 628م، أي في عهد النبي ﷺ غير ان قبائلهم استمرت[3]. ويظهر ان الحارث بن عبد كلال الحميري كان أحد أقيال حمير أي الملك النافذ ، وهو دون الملك الأعظم ، كان ملكا على قومه.

وقد بعث النبي ﷺ رسولا هو المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال الحميري واخوته وكتب إليهم مذكرة جاء فيها : " بسم الله الرحم الرحيم... من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال الحميري سلم انتم ما أمنتم بالله ورسوله وان الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. قالت اليهود : عزير ابن الله، قالت النصارى الله ثالث ثلاثة عيسى ابن الله"

---

(1) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 572.

(2) ابن الأثير، مرجع سابق، ص 300.

(3) يراجع كتابنا : تاريخ قانون اليمن القديم قبل الإسلام دار الفكر المعاصر بيروت 1993ص22.

واوصى النبي ﷺ لمن حمل المذكرة إلى الحارث واخوته:" إذا جئت أرضهم، فلا تدخلن ليلا حتى تصبح، تطهر فاحسن طهورك، وصل ركعتين، وسل الله النجاح والقبول، واستعذ بالله، وخذ كتابي بيمينك وادفعه بيمنك في أيمانهم فانهم قابلون واقرأ عليهم ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾. فإذا فرغت فقل آمن محمد وانا أول المؤمنين فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره وهم قارئون عليك، فإذا رطنوا فقل : ترجموا وقل حسبي الله آمنت بما انزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ولا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا واليه المصير. فإذا اسلموا فسلم قضبهم الثلاثة التي حضروا بها سجدوا وهي الأثل قضيب ملمّع ببياض وصفرة وقضيب ذو عجر كأنه خيزران والأسود البهيم كأنه من ساسم ثم أخرجها فاحرقها ".

وقال المهاجر: " فعلت ما امرني به رسول الله ﷺ حتى إذا دخلت وجدت الناس قد لبسوا زينتهم فمررت انظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت أنا رسول رسول الله وفعلت ما امرني، فقبلوا، وكان كما قال النبي ﷺ "[1].

وقد اسلم الحارث ومن معه على يدي المهاجر بن أبي أمية المخزومي. ومما يلاحظ على هذه البعثة ان النبي ﷺ قد رسم لمبعوثه طريق تقديم المذكرة وطريقة وأسلوب الحوار مع المرسل إليه والاحتمالات المتوقعة وكيفية التصرف مع كل احتمال. وقد خبر النبي ﷺ هذه المعلومات من سفراته إلى اليمن واطلاعه على أحوالها وعاداتها.

وفي شهر رمضان من السنة التاسعة الهجرية وردت إلى النبي ﷺ مذكرة من ملوك حمير وهم كل من الحارث ونعيم والنعمان أولاد عبد كلال وزرعة ذو يزن مقرون

---

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 169. والشيخ عبد الحي كتاني، مرجع سابق، ص 194. والدكتور محمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 182.

بالإسلام مع رسولهم مالك بن مرارة الرهاوي. فكتب إليهم النبي ﷺ مذكرة[1]، جاء فيها :

" ... أما بعد فان رسول الله محمدا النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيرا معاذا بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عماد وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وان اجمعوا ما عندكم من الصدقة الجزية من مخاليفكم وبلغوها رسلي وان أميرهم معاذ فلا ينقلبن إلا راضيا.."

ويلاحظ ان هذه المذكرة جاءت مفصلة تناولت الأمور الآتية:

1. إسلام بني حمير وبقاء حكم ملوكهم مشروطا بالإصلاح.
2. تفاصيل جباية الزكاة والصدقات والجزية.
3. معالجة موضوع اليهود والنصارى في حالة دخولهم الإسلام أو بقائهم على دينهم.
4. أسماء الوفد الذي أرسل من قبل النبي ﷺ وصلاحيتهم وتحديد رئيس الوفد.
5. إكرام الوفد ومعاملته المعاملة التي تليق به.

ويبدو ان الوفد الذي أرسله النبي ﷺ كان على مستوى من الحس الدبلوماسي. فعندما قدم الوفد على الحارث قال : يا حارث انك كنت أول من عرض عليه المصطفى نفسه فخطأت عنه وأنت عظيم الملوك قدرا فإذا نظرت في غلبة الملوك ما نظر في غالب

(1) وقد جاء بالمذكرة " بسم الله الرحمن الرحيم .... من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن كلال والنعمان قيل ذي رعين ومعافير وهمدان، اما بعد فإني احمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو. فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من ارض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما ارسلتم وخبر ما قبلكم، وانبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وان الله قد هداكم بهداية، ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله، واقمتم الصلاة واتيتم الزكاة واعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه. وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وما سقت السماء وكل ما سقت بالغرب نصف العشر. وفي الإبل في الأربعين ابنة لبون، وفي الثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل اربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة وانها فريضة الله التي تفرض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد فهو خير له ... الختم"

يراجع : الطبري ج3، مرجع سابق، ص 121. وابن هشام ج4، مرجع سابق، ص 259.

الملوك. وإذا سرك يومك فخفف غدك. وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها وبقيت أخبارها عاشوا طويلا واملوا بعيدا، وتزودوا قليلا منهم من أدركه الموت ومنهم من أكلته النقم. وأنا أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك وان أرادك لم يمنعه منك أحد. وأدعوك إلى النبي الأمي ليس شئ احسن مما يأمر به ولا اقبح مما ينهي عنه واعلم ان لك ربا يميت الحي ويحيي الميت. ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"[1].

والمهاجر من الشعراء والأبطال. فقد ولاه النبي ﷺ زكاة اليمن ثم تولى اليمن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقاتل أهل الردة وفتح حصن النجير[2]. وقد ارسل النبي ﷺ رسالتين أخريين إلى الحارث بن كلالة وقومه تناولت تفاصيل دينية وإدارية ومالية لتنظيم الدولة الإسلامية[3].

وكانت إحدى الرسالتين بيد رسوله معاذ بن جبل، وأثناء بعثه إلى اليمن توفي ابن معاذ بن جبل. وما يهمنا في هذا الشان رسالة التأبين التي أرسلها النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل بوفاة ابنه، والتي جاء فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ...من محمد رسول الله إلى معاذ ...سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله إلا هو. ..أما بعد اعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر. فان أنفسنا وأهالينا وأموالنا وأولادنا من مواهب الله عز وجل الهنيئة وعواريه المستودعة يمنع بها إلى اجل معلوم ويقبض لوقت معدود ثم افترض علينا الشكر إذا أعطانا والصبر إذا ابتلانا. وقد كان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة متعك الله به في غبطة وسرور وقبضه منك باجر كثير الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحتسبت. فلا تجمعن عليك مصيبة فيهبط لك أجرك وتندم على ما فاتك فلو قدمت على ثواب مصيبتك علمت ان المصيبة قد قصرت في جنب الله من الثواب فتنجز من الله موعوده وليذهب اسفك على ما هو نازل بك "[4].

(1) الشيخ عبد الحي كتاني، مرجع سابق، ص 185. والدكتور محمد حميد الله، مرجع سابق، ص 182.
(2) الدكتور إسماعيل سرور شلش ، مصدر سابق، ص 43.
(3) تراجع الرسالتان : محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 174. ومحمد حميد الله ، مصدر سابق، ص 182.
(4) علي بن حسين علي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 508.

4- بعثة النبي ﷺ إلى زرعة بن ذي يزن

أرسل النبي ﷺ وفداً يتكون من معاذ بن جبل وعبد الله بن رواحة ومالك بن عبادة وعتبة بن نبار ومالك بن مرارة ومن معهم إلى زرعة بن ذي يزن في اليمن. وكانت الرسائل التي أرسلت إلى زرعة تتعلق بجباية الصدقة والجزية[1].

ويضم الوفد مجموعة من المتخصصين بشؤون اليمن ، وعلى راس الوفد معاذ بن جبل، وهو شخصية رائدة وكان رسولا وقاضيا ومرشدا يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقبض الصدقات من عمال اليمن وكان داعيا ومجاهدا. وحمل العديد من رسائل النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء وشيوخ اليمن، فأدى الأمانة خير أداء. كما أدى واجبه مجاهدا في الله حق جهاده حتى عاد المرتدون[2].

5 - بعثة النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابناء الجلندى ملكي عمان

جيفر هو ملك عمان وهو اكبر سنا من أخيه عبد، وهما من الأزد. وقد بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص بي شهر ذي القعدة من سنة ثمان للهجرة. والملك منهما هو جيفر. وكتب النبي ﷺ مذكرة مع عمرو بن العاص. قال عمرو : " فلما قدمت عمان، عمدت إلى عبد وكان احلم الرجلين وأسهلهما خلقا. فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك والى أخيك، فقال أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرا كتابك، فمكثت أياما ببابه، ثم انه دعاني فدخلت عليه فدفعت الكتاب إليه مختوما ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته. إلا أني رأيت أخاه ارق منه. قال : دعني يومي هذا وارجع إليّ غدا، فلما كان الغد رجعت إليه

---

(1) وقد ورد بالمذكرة ما يأتي : " بسم الله الرحمن الرحيم ... أما بعد فان محمدا النبي ارسل إلى زرعة بن ذي يزن إذا اتتكم رسلي أمركم بهم خيرا معاذ بن جبل وعبد الله بن رواحة ومالك بن مرارة واصحابهم ما جمعوا ما كان عندكم من الصدقة والجزية فابلغوها رسلي فان اميرهم معاذ بن جبل ولا ينقلبن من عندك إلا راضين ...

الختم"

يراجع علي بن حسين علي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 230.

(2) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 219.

قال : إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا اضعف العرب إذا ملكت رجلا ما في يديّ قلت فإني خارج غدا، فلما أيقن بخروجي اصبح هو وأخوه جميعا، وصدقا النبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونا على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم، فرددتها إلى فقرائهم، فلم أزل مقيما حتى بلغنا وفاة النبي ﷺ ". وكان النبي ﷺ قد ولاه على عمان[1].

وجاء بمذكرة النبي ﷺ إلى جيفر وأخيه ما يأتي : " بسم الله الرحمن الرحيم ...من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي .فإني أدعوكما بدعوة الإسلام، اسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، وإنكما ان قررتما بالإسلام وليتكما، وان أبيتما ان تقرا بالإسلام فان ملككما وخيلي تحل مساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما "[2].

واقتنع جيفر بالإسلام كما اقتنع أخوه عبد، فاسلما عن قناعة كاملة. لذلك قدما الصدقات طوعا، وعاونا عمر بن العاص على جمع الصدقات من الأغنياء وردها إلى الفقراء وجمع الجزية من المجوس. وكانا له خير عون في النهوض بمهمته في واجبات الحكم والإدارة في عمان وما حولها. كما انهما ثبتا على الإسلام ولم يرتدا كما ارتد غيرهما ، وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبو بكر الصديق إلى عمان ومع جيشه في حرب المرتدين حتى عادت عمان إلى الإسلام[3].

وكان عمرو بن العاص سفيرا متمرسا، مارس الدبلوماسية مرتين قبل الإسلام. ومارسها المرة الثالثة بعد الإسلام ، ولهذا فقد كان في هذه المرة حصيفا ويتمتع بقدرة فائقة على التصرف في مختلف الظروف فكان حاسما في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول.

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 137. والشيخ محمد الخضيري بك ، مصدر سابق، ص 189.
(2) الشيخ محمد الخضيري بك ، مصدر سابق، ص 188
(3) المصدر نفسه، ص189.

ويقول عمرو بن العاص: خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها، ذهبت إلى عبد وكان احلم الرجلين وأسهلهما ودعوته للإسلام. فرد عليّ بقوله : يا عمرو انك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك، فان لنا قدوة، فقلت : مات ولم يؤمن بالإسلام وكنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. وبعد نقاش طويل اسلم عبد الجلندي وأخوه جيفر[1].

وأطلق على عمرو بن العاص " داهية العرب " وفاتح بلاد الشام وتولى فتح العديد من القرى العربية في تبوك وخيبر وفدك وما حولها[2].

(1) المصدر السابق، ص 189. كذلك محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 142. والشيخ عبد الحي الكتاني ، مصدر سابق، ص 184.

(2) الدكتور اسماعيل سرور شلش ، مصدر سابق، ص 42.

الفصل الثالث
الشخصية الدبلوماسية الإسلامية ومهامها في عهد النبي ﷺ

يعد الدبلوماسي العنصر الأساس في تنفيذ المهمة الدبلوماسية. فهو الذي يمثل دولته في المحافل الدولية لذلك فلا بد ان يتمتع بصفات خاصة تؤهله لممارسة عمله بصورة صحيحة. ويرتبط مدى نجاحه في مهمته بقدر ما يتمتع به من مميزات وصفات. ولهذا فان الدول في الوقت الحاضر تختار من ممثليها الدبلوماسيين من يتمتع بمميزات وأوصاف تتطلبها شروط هذه المهمة. وتتعدد الصفات التي يجب ان يتميز بها الدبلوماسي، فمنها ما يتعلق بالشكل، ومنها ما يتعلق بالجوهر. وتبذل الدول المتقدمة جهودا مضنية في اختيار دبلوماسيها ممن يتمتعون بشكل ومظهر خارجي جذاب، ومن أصحاب القابليات الذهنية المتميزة.

وبذلك، فان من مميزات وأوصاف الشخصية الدبلوماسية، تمتعه بشكل ومظهر خارجي جذاب، وان يمتلك العقل الراجح والفهم الواسع ودقة الانتباه والهدوء النفسي. ومن هذه الأوصاف ما هو من خلق الله تعالى ليس للدولة دخل فيها، ومنها ما يكتسب بالتعليم والتربية والبيئة. ولا يمكن ان يكون الشخص دبلوماسيا ما لم يتميز بصفتين هما، حسن الخلق وحسن الخُلق، أي حسن الشكل وسلامة الجوهر.

وقد اجتمعت في النبي ﷺ جميع مميزات الدبلوماسي الناجح في أداء مهمته، سواء ما تعلق منها بالشكل أو ما تعلق منها بالجوهر. وإننا إذ ندرس ونبحث في مميزات وأوصاف شخصية النبي ﷺ الدبلوماسية، فإننا لا نهدف من وراء ذلك إلى مقارنة شخصية النبي ﷺ بالشخصية الدبلوماسية المعاصرة. لان مثل هذه المقارنة تكون مع الفارق. لان الله تعالى تولى إكمال مميزاته وأوصافه بصورة لا يمكن معها ان نقارنه مع بقية البشر، لأنه اعد لمهمة لا يقدر عليها البشر العادي، إنما نهدف من وراء ذلك إلى ان يتعلم المسلمون ويقتفوا اثر نبيهم ﷺ بوصفه أسوة حسنة، وان ينهلوا من شخصه وأسلوبه في شق طريق الحياة بجرأة ومقدرة، ومواجهة الصعاب بحكمة وحسن طوية.

المبحث الأول

مفهوم الشخصية الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ

اولاً : الشخصية الدبلوماسية

يطلق على مهمة الشخص الذي يتولى مهمة نقل الرسائل بين الناس بالدبلوماسي Diplomatic. وعند تعريب اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 لم يكن التعريب موفقاً. حيث لم يعرب هذا المصطلح، وإنما أضيف إليه المبعوث ليصبح " المبعوث الدبلوماسي ". ومصطلح المبعوث هو مقارب لمصطلح الدبلوماسي، وكان من الممكن ان تستخدم كلمة المبعوث بدلا من الدبلوماسي .

والمبعوث الدبلوماسي الذي يمثل دولته هو رئيس الدولة ووزير خارجيتها وغيرهم من المراتب العليا في الدولة، عندما يكونون في بعثة خاصة مؤقتة لتمثيل دولهم[1]. ويقصد بالمبعوث الدبلوماسي في البعثات الدائمة، كل من رئيس البعثة أو أحد موظفيها الدبلوماسيين. أما الموظفون الدبلوماسيون فيقصد بهم موظفو البعثة ذوو الصفة الدبلوماسية[2] .

(1) نصت المادة (21) من اتفاقية فيينا البعثات الخاصة لعام 1961 على ما يأتي: " ان رئيس الحكومة ووزير خارجيتها والأشخاص الآخرين من المرتبة العليا عندما يكونون في بعثة خاصة لتمثيل دولتهم فانهم يتمتعون في الدولة المستقبلة أو الدولة الثالثة بالإضافة إلى ما تضمنه هذه الاتفاقية بالتسهيلات والامتيازات والحصانات التي اقرها القانون الدولي ". يراجع للتفاصيل :

.Butterwrths 1972 ,p.575 .Holder W. E. The International Legal System

(2) نصت المادة الأولى من اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1963 على ما يأتي : " يقصد في هذه الاتفاقية بالتعابير التالية المدلولات المحددة ازاءه : أ- يقصد بتعبير رئيس البعثة الشخص الذي تكلفه الدولة المعتمدة بالتصرف بهذه الصفة. ب- يقصد بتعبير افراد البعثة رئيس البعثة وموظفو البعثة. ج - يقصد بتعبير موظفو البعثة الموظفون الدبلوماسيون والإداريون والمستخدمون. د- ويقصد بتعبير الموظفون الدبلوماسيون موظفو البعثة ذوو الصفة الدبلوماسية هـ - يقصد بتعبير المبعوث الدبلوماسي رئيس البعثة او احد موظفيها الدبلوماسيين. و- يقصد بتعبير الموظفين الإداريين والفنيين موظفو البعثة العاملون في خدمتها الإدارية والفنية "

وإذا كان مصطلح الدبلوماسي الوارد في اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 قد عُرّب إلى " المبعوث الدبلوماسي "، فان مبعوث البابا لم يعرب بمثل هذا المصطلح، وإنما عرب بالقاصد الرسولي. وكان من الأجدر ان تعرب المصطلحات بصورة متساوية.

ويقابل مصطلح الدبلوماسي الوارد في اللغة اليونانية مصطلح " الرسول " في اللغة العربية. وهو اكثر انسجاما ودقة من مصطلح الدبلوماسي الذي لا يزال غير واضح عند الغربيين أنفسهم. وقد ارتأينا ان نستخدم المصطلح الغربي لأنه هو المتداول وحتى نكون اكثر قربا من مفهوم القانون الدبلوماسي.

والعلاقة الدبلوماسية تقوم على أربعة عناصر : هي المرسل والرسول والمرسل إليه والرسالة. ويقول فقهاء الشريعة الإسلامية في العلاقة بين الله والنبي والناس كافة، بان : " الرسول سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة عللهم في معاشهم ومعادهم. والرسول في الشرح النبوي ولسان الشرع عبارة عن إنسان أنزلت عليه شريعة من عند الله بطريق الوحي، فإذا أمر بتبليغها سمي رسولا ". ويحددون معني الرسول بإنه " الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والإضافة إلى ضميره تعالى في رسوله وما قبله عهديه وهو محمد ﷺ "[1].

وحدد الإسلام ثلاثة أنواع للدبلوماسي وهي :

1 – الرسول

أطلق فقهاء الشريعة الإسلامية على الشخص الذي يقوم بمهمة إبلاغ الرسالة إسم " الرسول ". والرسول مصدر من الفعل أرسل، والجمع رسل. والرُسل: الإبل وتعني الرفق والتودد. والترسل في الكلام : التوقر والتفهم. والرسول بمعنى الرسالة. ويقال تراسل القوم : أرسل بعضهم إلى بعض. وقال أبو بكر بن الانباري في قول المؤذن : اشهد ان محمدا رسول الله : اعلم وأبين ان محمدا متابع للأخبار من الله عز وجل.

(1) الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير، سبل السلام ج1، مصدر سابق، ص9.

والرسول في اللغة : معناه متابع أخبار الذي بعثه. وقال أبو اسحق النحوي في قوله عز وجل حكاية عن موسى وأخيه : " فقولا إنا رسول رب العالمين " معناه إنا رسول رب العالمين، أي ذوا رسالة رب العالمين. وقال الأزهري : وسمي الرسول رسولا، لأنه ذو رسول أي ذو رسالة. والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة. ويقال أرسلت فلانا في رسالة، فهو مُرسَل ورَسول[1].

وأطلق الله تعالى مصطلح الرسول على النبي ﷺ. واستخدم مصطلح الرسول في القران الكريم مرات عديدة، جاءت بصيغة المفرد والجمع .

وقد اتصف محمد ﷺ بصفتي : النبي والرسول. فهو نبي وصاحب رسالة. ذلك ان بعض الأنبياء لم يصرح لهم التصريح بالرسالة المنزلة من الله. وان البعض الآخر اتصف بالنبوة والرسالة. وهم موسى وعيسى وداود عليهم السلام ومحمد ﷺ. ولذا قيل ان النبي إنسان أوحى إليه بشرع سواء أمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا فان أمر بذلك فهو نبي رسول. فالفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه. فالرسول اعم من النبي . أي ملزم في كونه رسولا ان يكون نبيا وليس العكس[2].

ويشترط في الرسول ان يكون نبيا، إذا كان مرسلاً من الله تعالى. وينطبق مصطلح الرسول على أي شخص مرسل من شخص إلى اخر. كذلك ينطبق مصطلح الرسول على الأشخاص الذين أرسلهم النبي ﷺ للملوك والأمراء وشيوخ القبائل. وبناء على ذلك فان مصطلح الرسول يعد عاما ينطبق على المهمة المكلف بها الشخص. أما مصطلح النبي فانه لا ينطبق إلا على الأشخاص الذين وصفهم الله بهذه الصفة.

(1) يراجع لسان العرب، المحيط للعلامة ابن منظور، طبعة بيروت، ص 1165.

(2) يراجع الدكتور رشدي عليان والدكتور عبد الرحمن الدوري، اصول الدين الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1986 ص230.

2 – السفير

السفير في القانون الدبلوماسي هو الشخص الذي يتولى رئاسة البعثة الدبلوماسية، وهو ممثل لدولته في الدول الأجنبية.

والسفير مصدر من الفعل سفر. وسفر بمعنى تفرق. ويقال انسفرت الأبل إذا ذهبت في الأرض. والسفر خلاف الحضر. وهو مشتق من ذلك لما فيه من الذهاب والمجئ والجمع أسفار. رجل مسافر : ذو سفرة. والسفرة قطع المسافة. السُفر طعام يتخذ للمسافر. وفي حديث عائشة : صنعنا لرسول الله ﷺ ولأبي بكر سفرة في جراب أي طعاما لما هاجرا.

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم. والجمع سفراء. وفي حديث علي كرم الله وجهه انه قال لعثمان رضي الله عنه : ان الناس قد استسفروني بينك وبينهم. أي جعلوني سفيرا. وهو الرسول المصلح بين القوم. ويقال سفرت بين القوم إذا سعيت بينهم في الإصلاح. والسِفر : الكتاب. وقيل هو الكتاب الكبير. وقيل هو جزء من التوراة. والسفرة الكتبة. وأحدهم سافر. قال تعالى : " بأيدي سفرة " وقيل : سميت الملائكة سَفرة لأنهم يسفرون بين الله وبين أنبيائه. وقيل سموا سفرة لأنهم ينزلون بوحي الله وبإذنه وما يقع به الصلح بين الناس فشبهوا بالسفراء الذين يصلحون بين الرجلين. وفي الحديث : مثل الماهر بالقران مثل السفرة. وهم الملائكة جمع سافر. والسافر في الأصل الكاتب سمي به لأنه يبين الشئ ويوضحه[1].

وعلى الرغم من التقارب بين مصطلحي الرسول والسفير في اللغة العربية، إلا ان هناك فروقا بينهما، منها : ان مهمة الرسول هي إبلاغ الرسالة المكلف بها من قبل مرسله كما هي دون زيادة أو نقصان. لقوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[2]. بينما تتضمن مهمة السفير الصلح بين المرسل والمرسل إليه. وكما هو معروف فان

(1) يراجع لسان العرب. المحيط للعلامة ابن منظور. طبع دار لسان العرب بيروت ص 154.

(2) سورة العنكبوت الآية 18.

الصلح قد يتطلب ان يتنازل كل من الطرفين المتنازعين عن جزء من حقه للطرف الآخر. أي ان الصلح يتضمن المساومة. كذلك فان الرسول لا يشترط في مهمته السفر بينما يشترط في مهمة السفير السفر.

وتستخدم الدول العربية مصطلح السفير، بالنسبة لرئيس البعثة الدبلوماسية. وتستخدم مصطلح السفارة لمجموع البعثة الدبلوماسية بما في ذلك البناية التي يعمل بها السفير وبقية المبعوثين. والسفير يمثل درجة وظيفية في السلك الدبلوماسي .

وقد أطلق على الأشخاص الذين أرسلهم النبي ﷺ للملوك والأمراء وشيوخ القبائل مصطلح السفراء. وإذا كان الوفد يتكون من اكثر من شخص يطلق عليه بالسفارة [1].

ولم يطلق على النبي ﷺ لقب السفير، لان مهمته محدده بإيصال الرسالة كما هي،كما ان مهمته لا تتطلب السفر. فان الرسالة تنزل عليه وهو مع أصحابه. وان مهمته ليست الصلح بين الناس وإنما هي إيصال رسالة إليهم .

3 – المبعوث

يطلق مصطلح المبعوث في الوقت الحاضر على الأشخاص الذين ترسلهم دولهم لمهمة خاصة كحمل رسالة من رئيس دولة إلى رئيس دولة اخرى. كذلك ترسل الأمم المتحدة والمنظمات الدولية مبعوثا في مهمة خاصة.

وعندما عربت اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 الخاصة بالبعثات الدائمة عرب مصطلح الدبلوماسي، إلى المبعوث الدبلوماسي. كما ان اتفاقية البعثات الخاصة لعام 1969 نظمت البعثات المؤقتة، التي ترسلها الدول لأغراض مؤقتة، كالاشتراك بالمؤتمرات الدولية أو إرسال مبعوث خاص .

---

(1) يراجع : محمود شيت خطاب. السفارات النبوية، مطبعة المجمع العلمي العراق، بغداد 1989، ص 1 وما بعدها .

وعرف العرب المبعوث. والمبعوث : مصدر من الفعل بعث. وبعثه بعثا بمعنى أرسله وحده، وبعث به بمعنى أرسله مع غيره. وفي حديث علي عليه السلام، يصف النبي ﷺ: " شهيدك يوم الدين وبعيث نعمة ". أي مبعوثك الذي بعثه إلى الخلق، أي أرسلته.

والبعث في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإرسال، كقوله تعالى : ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾. أي أرسلنا. والبعث أيضا : إحياء الله الموتى .

ومن أسمائه عزل وجل : الباعث، وهو الذي يبعث الخلق، أي يحييهم بعد الموت[1].

وقد وردت كلمة المبعوث في آيات عديدة في القرآن. منها قوله تعالى : ﴿لَقَد منَّ الله عَلى المؤمنينَ إذ بَعثَ فيهم رسولا من أنفسهم﴾[2]. وقوله تعالى :﴿ أبَعثَ اللهُ بَشرا رَسولاً﴾[3]. وقوله تعالى :﴿ أهذا الذي بَعَثَ الله رسُولاً﴾.

وقد جمعت هذه الآيات بين كلمتي المبعوث والرسول في ان واحد. وقال النبي ﷺ: " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [4].

وعندما خرج النبي ﷺ ذات يوم بعد عمرته قال : " أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة".

يتضح من ذلك ان المبعوث قد يكون رسولا ، أو لمهمة أخرى غير حمل الرسالة. فيقال بعثت لك فلانا لغرض المساعدة ، أو تقديم العون.

ثانيا : المرسل إليهم

غالبا ما يكون المرسل إليهم في القانون الدولي العام هم الدول. ومفهوم الدولة في هذا المعنى يشمل مؤسسات الدولة ومواطنيها ، غير ان التعامل مع هؤلاء يكون عن

---

(1) لسان العرب، المحيط للعلامة ابن منظور ، مصدر سابق، ص 230

(2) سورة ال عمران الآية 164.

(3) سورة الإسراء الآية 94.

(4) صحيح مسلم ج3 ص3.

طريق وزارة الخارجية. فالسفارات الأجنبية في الدول تمثل دولها في العلاقات القائمة بينها. وليس لها الاتصال مع مؤسسات الدولة أو مواطنيها إلا عن طريق وزارة الخارجية. إلا إذا وجد اتفاق يقضي بالسماح للمبعوثين الدبلوماسيين بالاتصال بالمؤسسات الرسمية للدولة التي يعملون بها أو مع مواطنيها.

وإذا كانت مهمة الرسل الأنبياء إلى المرسل إليهم واحدة وهي دعوتهم إلى الله تعالى، فان هذه المهمة محكومة بالقواعد الآتية :

1. لغة الرسول: ان كل رسول يتكلم بلغة القوم المرسل إليهم. لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].
2. الرسول من قوم المرسل إليهم : ان كل رسول يرسل إلى قوم يكون من هؤلاء القوم لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾.

وبناء على ذلك فان الرسول من قوم المرسل إليهم. لكي يعرف طبائعهم وحاجاتهم وطرق إقناعهم. فلو كان من غير قومه لشعروا بالغربة عنه. ومن ذلك إرسال الله نوحا إلى قومه. لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾[2]. كذلك إرسال الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[3].

3. المرسل إليه شخص واحد: قد يكون المرسل إليه شخصا واحدا إذا كانت له اهمية كأن يكون ملكا. لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾[4].

(1) سورة إبراهيم الآية 4.

(2) سورة الأعراف الآية 59.

(3) سورة الصف الآية 6.

(4) سورة المزمل الآية 15.

4. المرسل إليهم عدد محدود: فقد يرسل الرسل إلى مجموعة من الأعداد المحددة. لقوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1].

أما بالنسبة للنبي محمدﷺ فان المرسل اليهم هم:

1. المرسل إليهم كافة الناس : لم يرسل النبي ﷺ وسلم لفئة معينة وإنما أرسل للناس كافة لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[2]. اما قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[3] فقد فسرت هذه الآية بان المقصود بالأميين هم العرب لان أكثرهم لا يكتبون ولا يقراون[4]. والواقع ان بني إسرائيل يعدُّون أنفسهم أهل الكتاب المقدس وان كل شخص من غيرهم يعد أميا وان كان يقرأ ويكتب. ولهذا فان تفسير هذه الآية لا يعني ان النبي ﷺ أرسل للاميين فقط، بل أرسل للناس كافة بما فيهم بني إسرائيل. كما أكدت ذلك العديد من الآيات .
2. لغة المرسل اليهم: لما كان المرسل إليهم الناس كافة فان ذلك يعني ان النبي ﷺ أرسل لجميع الناس على اختلاف لغاتهم. وهذا يتطلب ان نعرف هل ان النبي ﷺ كان يعرف لغات الناس كافة ام انه يعرف اللغة العربية فقط ؟.
3. روي ان النبي ﷺ كان يعرف جميع الألسنة، لأنه أرسل إلى الأمم كلها. وانه كان يعرف كل اللغات وان كان عربيا والقران نزل بالعربية[5].

---

(1) سورة الصافات الآية 147.

(2) سورة سبا الآية 28.

(3) سورة الجمعة الآية 2.

(4) صفوة البيان لمعاني القران، تفسير الشيخ حسنين محمد مخلوف، الكويت 1987ص722.

(5) على بن حسين علي الاحمدي ، مصدر سابق، ص 15.

وسنتطرق لهذا الموضوع بالتفصيل عند الكلام عن لغة النبي صلى الله عليه وسلم الدبلوماسية.

ثالثا : الرسالة

حدد القانون الدبلوماسي لكل مبعوث دبلوماسي رسالة يحملها للطرف الاخر. وهذه الرسالة هي وظيفة البعثة الدبلوماسية، وتكاد ان تكون موحدة بالنسبة للبعثات الدبلوماسية الدائمة[1] .

وعلى الرغم من اختلاف أسماء الكتب التي كان يحملها الأنبياء إلا ان الله تعالى قد أطلق على كل ما يحمله الأنبياء إسم " الرسالة ". لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ﴾[2] والرسائل المكتوبة هي التوراة والإنجيل والزبور. أما القران فانه مكتوب ومحفوظ.

ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم هي الإسلام الذي جاء به للناس كافة. وعليه أن يتولى تبليغها بنفسه دون زيادة او نقصان. لقوله تعالى : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[3]. وإذا وجد الرسول جحودا من المرسل إليه، فان مهمته تتحدد بتبليغ الرسالة. وان المرسل يتابع رسوله في إيصال الرسالة، لقوله تعالى : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[4].

ورغم أن الرسالة قد أنزلت للناس كافة إلا انها نزلت باللغة العربية، لأنها أرسلت إلى العرب أولا لكي يفهموها ثم ينقلوها للعالم. وقد أكدت ذلك العديد من الآيات

---

(1) نصت المادة الثالثة من اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 على ماياتي :
أ- تمثيل الدولة المعتمدة في الدولة المعتمد لديها .
ب- حماية مصالح الدولة المعتمدة ومصالح رعاياها في الدولة المعتمد لديها ضمن الحدود التي يقرها القانون الدولي
ج- التفاوض مع حكومة الدولة المعتمد لديها.
د- استطلاع الأحوال والتطورات في الدولة المعتمد لديها ...
هـ- تعزيز العلاقات الودية..."

(2) سورة الاحزاب الآية 39.

(3) سورة الكهف الآية 27.

(4) سورة المائدة الآية 99.

منها قوله تعالى :﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وقوله تعالى :﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[2].

ويقع ضمن الرسالة أيضا أحاديث النبي ﷺ. وإذا كان القران قد نزل لفظا ومعنى فان الأحاديث نزلت بالمعنى .

رابعاً : المرسل

المرسل هو صاحب الرسالة. والرسول يعبر عنه. وقد يكون المرسل في القانون الدبلوماسي رئيس دولة أو رئيس وزراء أو وزيرا أو أي شخص آخر. ومن المتفق عليه ان الرسول يعبر عن مرسله، ولا يعبر عن نفسه. وقد يكون الرسول من مواطني الدولة أو شخصا أجنبيا.

أما بالنسبة للشرائع السماوية فان المرسل فيها هو الله تعالى، والأنبياء ليسوا سوى رسل يحملون رسائل الله إلى المرسل إليهم. وقد وردت العديد من الآيات التي تؤكد ذلك منها قوله تعالى : ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[3]. وقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[4].

خامساً : العلاقة بين الرسول والمرسل

تختلف العلاقة بين المرسل والرسول بحسب طبيعة التبعية بينهما. فإذا كان الرسول موظفا لدى المرسل فان هذه العلاقة تحددها القوانين الداخلية. فإذا تجاوز الرسول حدود رسالته، فانه يكون مسوولا أمام مرسله. وغالبا ما يزود المرسل رسوله بخطاب يحدد فيه صلاحيته، يطلق عليه " خطاب الضمان ". فإذا تجاوز الرسول حدود صلاحيته فان المرسل لا يكون مسوولا عن ما يصدر من الرسول خارج حدود خطاب الضمان.

(1) سورة يوسف الآية 2.

(2) سورة الشورى الآية 7.

(3) سورة الدخان الآية 5.

(4) سورة المائدة الآية 67.

أما إذا كان الرسول أجنبيا كأن يكون رئيس دولة أو وزير خارجية دولة أخرى، فان القانون الدولي هو الذي يحدد هذه العلاقة. ونظراً للمحاذير الناتجة عن ذلك فان الدول لا تعتمد على الرسل الأجانب.

وسواء أكان الرسول مواطناً ام أجنبيا فان العلاقة بينه وبين المرسل تكون علاقة مباشرة.

أما بالنسبة للعلاقة بين الله تعالى وبين رسله فهي تختلف باختلاف الأديان لاختلاف التقاليد والعادات الاجتماعية. فالعلاقة بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام علاقة مباشرة. فقد جاء بالتوراة ان الله تعالى كان يكلم موسى مباشرة[1]. وقد جاء في القران الكريم ما يؤكد ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[2].

أما بالنسبة للنبي ﷺ فانه لم يكلم الله مباشرة. وإنما كانت العلاقة بينه وبين الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام. لقوله تعالى :﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. وقال المفسرون في عبارة " فإنه نزله على قلبك "، ان جبريل نزل القران على قلب محمد[4].

والسبب في ان موسى عليه السلام كلم الله ولم يكلمه النبي ﷺ، كما نرى هو اختلاف بيئة كل منهما. فقد جاء موسى عليه السلام وسط الفراعنة الذين يعبدون الاصنام، ويعتقدون بان الكهنة يكلمون الله مباشرة. بينما جاء النبي ﷺ وسط العرب الذين لم يعبدوا الأصنام بل جعلوها واسطة بينهم وبين الله لاعتقادهم بان البشر ليس لهم القدرة على الكلام مع الله مباشرة ،ولذا سموا بالمشركين لأنهم أشركوا الأصنام في عبادتهم لله.

---

(1) يراجع سفر الخروج وسفر العدد وسفر الاشتراع وسفر الاحبار .

(2) سورة النساء الآية 164.

(3) سورة البقرة الآية 97.

(4) يراجع زبدة التفسير من فتح القدير ، مصدر سابق، ص 19.

المبحث الثاني

التزامات الدبلوماسي

يلتزم الدبلوماسي بالعديد من الواجبات التي من أولاها إيصال الرسالة المكلف بحملها للمرسل إليهم بالطريقة التي حددها المرسل، وان يكون مؤثرا في المحيط الذي يعمل فيه وغير متأثر به، وان يكون على علم وبينه ويطلع على أدق تفاصيل المكان الذي يعمل فيه. وأن يكون مخلصا في تنفيذ واجباته بصورة صحيحة. وان يكون عينا لدولته، وله الخبرة في أمور السلام والحرب والأحلاف الدولية والتجارة. وفي مقابل ذلك فانه سيتمتع بامتيازات وحصانات خاصة به لمزاولة أعماله على الوجه المطلوب .

وكان النبي ﷺ دبلوماسيا بارعا في تنفيذ المهمة المكلف بها للمرسل إليهم. فقد استطاع ان يؤثر في المجتمع الذي عمل فيه دون ان يتأثر هو به. واطلع على قواعد القتال والحرب وعرف فنونها. ومارس التجارة وعرف طرق القوافل وقواعد التعامل التجاري بين القبائل العربية وبين العرب والروم. وتمتع بقدرة فائقة على مواجهة المصاعب. ومن اجل ذلك تمتع النبي ﷺ بامتيازات وحصانات خاصة به .

وبناء على ذلك فان موضوعات هذا الفصل تتضمن المطالب الآتية:

أولاً : تنفيذ الدبلوماسي للمهمة المكلف بها

من أولى المهام التي يلتزم بتنفيذها المبعوث الدبلوماسي هي تنفيذ المهمة المكلف بها من قبل دولته. وان يتم تنفيذها طبقا للإجراءات والشروط المحددة من قبل مرسله. وليس من حقه الخروج عن ذلك. وان يتصرف في ضوء توجيهات دولته. وإذا ما استجدت أمور جديدة فان عليه عدم التصرف إلا بعد ان يأخذ موافقة دولته.

ولا يتمتع المبعوث الدبلوماسي بحق تقدير ما هو في مصلحة دولته أم لا. وإنما دولته هي صاحبه التقدير، إلا إذا كانت دولته قد خولته بذلك. وهذا التخويل غير ممكن إلا في القضايا غير المهمة. أما في القضايا المهمة كمشاكل الحدود أو المعاهدات الدولية فان دولته هي صاحبة الأمر فيها.

وبناء على ذلك فان الدبلوماسي لا يعبر عن شخصيته وإنما يعبر عن شخصية مرسله حتى في ابسط الأمور التي يقوم بها. ومن هذا المنطلق فان الدبلوماسي لا يحاسب عن التصرفات التي يقوم بها في مواجهة المرسل إليه، وإنما تكون دولته هي المسؤولة عنها، على أساس ان كل ما يفعله إنما يعبر عن راي دولته، وليس على المبعوث الدبلوماسي إلا التنفيذ. ولهذا فقد قيل ان الرسول عقل مرسله. وقد تكون الأقوال والتصرفات التي يقوم بها المبعوث الدبلوماسي لا تعبر عن رضائه، وقد يكون له رأي آخر، إلا ان ما يجب عليه أن ينفذه هو راي مرسله وان لم يقتنع به.

وقد وضعت الشريعة الإسلامية قواعد تنظم العلاقة بين المرسل والرسول والمرسل إليه، وعدّت الرسول وكيلا عن المرسل، وللمرسل حق مراقبة رسوله، ويلتزم الرسول بالكتمان في عمله وعدم إفشاء أسرار المرسل. وتصلح هذه القواعد ان تكون قواعد دبلوماسية تطبق في العصر الراهن لما فيها من عدالة .

وسنتناول هذه القواعد في الفقرات الآتية:

1- الدبلوماسي وكيل عن المرسل

عندما ترسل الدولة دبلوماسيا إلى دولة أخرى، فإنها تزوده بوثيقة يطلق عليها "خطاب الضمان" أو "خطاب الاعتماد " أو " كتاب التفويض ". حيث تحدد هذه الوثيقة حدود تفويض الدبلوماسي. وان كل عمل يقوم به إزاء المرسل إليه كما ورد في الوثيقة يعد عملا صادرا من المرسل بحسب موقع مسؤوليته إن كان رئيس دولة أو رئيس وزراء

أو وزيرا. فالدبلوماسي في هذه الحالة يعد وكيلا عن مرسله. فكل قول أو عمل يصدر منه إنما ينسب إلى مرسله طبقا للوكالة التي تمتع بها ، والمحددة في خطاب الضمان. أما إذا خرج عن حدود الوكالة المحددة في وثيقة خطاب الضمان، فانه يتحمل مسؤولية ذلك. دون مرسله .

ولما أرسل الله تعالى الرسل برسالاته إلى البشر ، صار الرسل يتصرفون في حدود الرسالات التي يحملونها بصفتهم وكلاء عن الله تعالى إلى القوم المرسل إليهم.

والوكالة كما عرفها الفقهاء المسلمون عبارة عن التفويض والاعتماد. وقال تعالى: "من يتوكل على الله فهو حسبه" . أي من اعتمد عليه وفوض أمره إليه كفاه. فمن فوض إنساناً في شيء وفوض فيه أمره إليه كان مأموراً بحفظه، لأنه إنما فعل ذلك لينظر ما هو الاصلح له. والتوكل استنابة واستعانه، والوكيل يقوم مقام الموكل، فلابد ان يكون أهلا لذلك. وقد أجاز الفقهاء المسلمون توكيل الرسول للقيام بتصرف لمصلحة المرسل. لان الرسول يضيف التصرف إلى مرسله نظرا إلى التوكيل السابق[1]. ولا يجوز ان يتجاوز الوكيل حدود الوكالة[2].

وان كل عمل للوكيل يجب ان يكون بأذن موكله. وان هذا المبدأ طبق على الرسل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[3]. وكانوا يعيبون على النبي ﷺ الزواج والأولاد كما كانوا يقولون ما لهذا الرسول يأكل الطعام وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ. فقيل كان الرسل من قبله بشرا مثله ذوي أزواج وذرية وما كان لهم ان يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح

(1) وقد ثبت ان النبي ﷺ وكل بالشراء عروة البارق ووكل في النكاح عمرو بن امية الضمري. يراجع الإمام عبد الله بن محمود بن مردود الموصلي الحنفي، الاختيار لتعليل المختار. تعليق الشيخ محمود ابو دقيقة. ج2 دار المعرفة بيروت 1975 ص156.

(2) الإمام زين الدين الجبعي العاملي. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ج4 ، جامعة النجف الدينية ص378.

(3) سورة الرعد الآية 38.

عليهم. والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، ولكل وقت حكم يكتب على العباد[1].

وإذا كان الوكيل يعبر عن موكله فان عليه ان يبلغ رسالته للمرسل إليه. وليس له ان يوكل نفسه عن المرسل إليه. لقوله تعالى في مخاطبة النبي ﷺ: " إنا أنزلنا عليك الكتابَ بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومَن ضلّ فإنما يَضل عَليها وَما أنت عَليهم بوكيل"[2]. أي انزل الكتاب لأجلهم ولبيان ما كلفوا به. فمن عرف طريق الحق وسلكها فلنفسه ومن ضل، فضرر ذلك عليه لا يتعدى إلى غيره، وأنت لست مكلفاً بهدايتهم ، بل عليك البلاغ، وقد فعلت[3].

والرسول مرتبط بمن ارسله، وغير مرتبط بالمرسل إليهم في حدود رسالته لقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[4]. وهذا يعني ان الرسالة أرسلت للناس كافة، ولم يستثن منها أحداً وان كانوا من اقرباء النبي ﷺ. لقوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[5]. ذلك ان الله تعالى قد طلب من رسوله ان ينذر عشيرته الأقربين لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، لأنهم من أهل مكة واكثر الناس تفهما بحكم ثقافتهم وقربهم من بيت الله، ولأنهم أقرباء وأهل النبي ﷺ، فهم اقرب إلى الإسلام من غيرهم. وان من يصد منهم عن هذه الرسالة

---

(1) الإمام ابي القاسم الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقوق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مرجع سابق، ص 362.

(2) سورة الزمر الآية 41.

(3) وقيل بان هذه الآية منسوخة بآية السيف فقد امر الله رسوله بعد هذا ان يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا بأحكام الإسلام. يراجع تفسير زبدة التفسير من فتح القدير، مرجع سابق، ص612.

ونرى عدم وجود تعارض بين هذه الآية وآية السيف. ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم ليس وكيلا عن المرسل إليهم وانه لا يتحمل وزر عدم ايمانهم

(4) سورة الأحزاب الآية 40.

(5) سورة التوبة الآية 113.

يكون عقابه اشد عند الله، كما جاء في سورة المسد بحق أبي لهب وامرأته أم جميل بنت حرب. فقد ثبت من هذه السورة ان صلة المعتقد أقوى من صلة القرابة .

2- للمرسل حق مراقبة الدبلوماسي

إذا كان الدبلوماسي عقل مرسله ومعبرا عنه في أداء الرسالة فان ذلك لا يعني انه يتصرف بمطلق حريته، وإنما عليه ان يلتزم بالحدود التي رسمها له مرسله. فإذا تجاوز الدبلوماسي حدود الرسالة المكلف بها، فلمرسله ان يبطل تصرفاته أو يعدلها. فقد يواجه الدبلوماسي مصاعب تعيق تنفيذ مهمته، أو تجعله لا يقوم بواجبه على الوجه المطلوب لظروف وأحوال تمنعه من ذلك، وما دامت تصرفات الدبلوماسي لا تتصرف إلى المرسل إذا كانت خارج حدود مهمته. فللمرسل ان يعترض على عمل مبعوثه أو يعدل تصرفاته بالطريقة التي يراها ممكنة .

وقد أمر الله النبي ﷺ ان يتبع ما أمر به فلا يحرم حلالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[1].

وقد يعترض المرسل على أعمال رسوله أو يعاتبه في عمل وان لم يأمره به إذا وجد ان هذا العمل لا ينسجم ومحتوى الرسالة التي يحملها. من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]. وفي تفسير هذه الآية: كان النبي ﷺ قد استشار أصحابه في أسرى بدر، فأشار أبو بكر باستبقائهم رجاء توبتهم، واخذ فدية منهم تكون قوة للمسلمين، وأشار عمر بقتلهم إعزازا للإسلام. فمال النبي ﷺ إلى الرأي الأول وكان فداء كل أسير أربعين أوقية من الذهب إلا

(1) سورة التحريم الآية 1.

(2) سورة الأنفال الآية 67ـ68.

العباس ففداؤه ثمانون. فنزلت الآية عتابا على الأقدام على الفداء قبل الإثخان اللازم له من اجل قوة الإسلام وعزته[1].

وقوله تعالى :﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ● أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾[2]. فقد روي ان ابن مكتوم عمرو بن قيس وكان أعمى واسلم قديما في مكة، أتى النبي ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم للإسلام. فقال ابن مكتوم يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره النبي ﷺ قطعه الكلام وعبس واعرض فنزلت الآية معاتبة النبي ﷺ[3].

ان أحقية المرسل في مراقبة رسوله، ما هي إلاّ للتأكد من ان الرسول لم يخرج عن حدود الرسالة المكلف بها. وانه أدى الرسالة بصورة صحيحة. ولهذا فان الله تعالى كلف رسوله بإبلاغ الرسالة فحسب. لقوله تعالى:﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[4]. فقد أرسله إلى قومه فعليه هدايتهم، وليس ذلك في وسعه[5]. فان بلغ الرسول الرسالة المكلف بها فانه يكون قد أدى واجبه بصورة صحيحة. أما إذا خالف المرسل إليهم ما ورد في الرسالة فهذا ليس من شان الرسول. فالمرسل إليهم هم الذين يتحملون تبعة ذلك.

وإذا لم يلتزم المرسل إليهم بالرسالة التي بلغوا بها، فان العلاقة تصبح بين المرسل والمرسل إليهم. وقال تعالى في ذلك مخاطبا رسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[6]. أي عليك تبليغ الرسالة وان الله هو الذي يحاسبهم عن أعمالهم ومجازاتهم عليها وليس عليك ان تتكفل بإنهاء الأمر في حياتك بإيمانهم أو تعذيبهم[7].

---

(1) صفوة البيان لمعاني القران، مرجع سابق، ص 244.

(2) سورة عبس الآيتان 1و2.

(3) صفوة البيان لمعاني القران، مرجع سابق، ص 782.

(4) سورة العنكبوت الآية 18.

(5) زبدة التفسير من فتح القدير، مرجع سابق، ص 523.

(6) سورة الرعد الآية 40.

(7) زبدة التفسير من فتح القدير، مرجع سابق، ص 328.

وإذا كان الله تعالى قد أمر رسوله بان يبلغ المرسل إليهم بالرسالة وأخبره أنه غير مسؤول عن إيمانهم أو عدمه ، فان الله تعالى أخبر المرسل إليهم أيضا بان مهمة الرسول هي التبليغ بالرسالة وانه غير مسؤول عن إيمانهم من عدمه وان الله هو الذي سيتولى أمرهم. لقوله تعالى:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[1] اي لا عليه إذا توليتم لأنه لم يكتب عليه طاعتكم إنما كتب عليه ان يبلغ ويبين فحسب[2].

كذلك أمر الله تعالى رسوله بان يبلغ المرسل إليهم بأنه غير مسؤول عن إيمانهم أو عدم إيمانهم. لقوله تعالى:﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

3 – السرية في عمل الدبلوماسي

من اهم الأمور التي يجب ان يلتزم بها الدبلوماسي في أداء عمله هو ان يتخذ الحيطة والحذر والكتمان في عمله. ذلك ان اغلب مهام الدبلوماسي تتطلب السرية في العمل، من اجل نجاح المهمة المكلف بها. كما أن إفشاء أسرار عمله قد تؤدي إلى فشل مهمته[4]. ولهذا فان عليه ان يبتعد عن وسائل الإعلام وان يتحفظ في الاجتماعات العامة. وقد تستخدم أجهزة المخابرات وسائل تصنت متطورة لمراقبة الدبلوماسيين الأجانب. ولهذا فان الدبلوماسي الناجح هو الذي يتكتم على عمله حتى داخل بعثته الدبلوماسية، تحاشيا لوجود أجهزة إستراق السمع التي تضعها الدول في مكاتبهم ومقرات إقامتهم .

---

(1) سورة التغابن الآية 12.

(2) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل للخوارزمي، مرجع سابق، ص 115.

(3) سورة يونس الآية 41.

(4) يراجع:

Antoine Fattal. Les Procedures Diplomatiqes des Regiment Differnds Internaux. Libnon Beyroth 1966.p.36.

كذلك يراجع: الدكتور حسن فتح الباب، المنازعات الدولية، عالم الكتاب، القاهرة 1976ص72.

وكان من أسباب نجاح النبي ﷺ في تنفيذ مهمته هو تكتمه على الدعوة الإسلامية، ليس خوفا على نفسه لان الله قادر على حمايته، وإنما يعود ذلك للبحث عمن يصلح للدعوة ويستطيع حملها. ولهذا فقد اتسمت أعماله بالحيطة والحذر[1].

وقد وفرت الدعوة سرا للنبي ﷺحفظ أصحابه من التنكيل والتعذيب، خاصة في الأيام الأولى لنزول الرسالة. حيث تمكن من بناء الشخصية الإسلامية الرائدة المتفهمة للمهمات الجديدة التي يتحملها المسلم في مواجهة الظروف الصعبة، والمتفهمة لأصول الدين الجديد .

وقد أمضى النبي ﷺ ثلاث سنوات في العمل السري بهدوء وصمت لنشر الدين، ليحفظ اتباعه من أذى قريش. وقد ساعده ذلك في إبعاد العناصر المتنفذة من التأثير على الدعوة [2].

وقد استمر النبي ﷺ في التبشير بالرسالة سرا خلال ثلاث سنوات. فكان المسلم يذهب إلى بعض شعاب مكة مستخفياً بصلاته من المشركين. وعندما شاهدوا المسلمين يصلون عاب المشركون عليهم ما يصنعون، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحى بعير فشجه. وكان هذا أول دم أريق في الإسلام. وتخفى النبي ﷺ وأصحابه في دار الأرقم بن الأرقم يعبدون الله فيها. وكان هذا البيت قد شهد أول خلية للمسلمين. واستمر التخفي إلى ان جاءت السنة الرابعة[3]. فأمر الله النبي ﷺ ان يظهر الدين ويجهر به، لقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]. اي اظهر دينك وفرق جمعهم وكلمتهم، بان تدعوهم إلى التوحيد، فإنهم يتفرقون بعد إظهار الدعوة فيؤمن بك منهم قوم، ويكفر بك آخرون، ولا تبال بهم و تلتفت إليهم إذا لاموك

(1) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ط7 مكتبة الدعوة الإسلامية القاهرة 1978، ص 76

(2) السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول، مرجع سابق، ص 262. ونصري سهلب، في خطى محمد، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت 1971، ص 102.

(3) السيرة الحلبية ج1، مرجع سابق، ص 283. والخصائص الكبرى ج1، مرجع سابق، ص 221. والسيرة النبوية لابن هشام القسم الأول، مرجع سابق، ص 263.

(4) سورة الحجر الآية 94.

على إظهار الدعوة[1]. وقيل اصدع بالحجة أي تكلم بها جهارا، وفرق بين الحق والباطل. فبدل الدعوة سرا بالدعوة جهرا ممتثلا لأمر ربه.

وصعد النبي ﷺ على الصفا جعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع الحضور أرسل رسولا لينظر الخبر. فقال ارايتم لو أخبرتكم ان خيلا في الوادي تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟. قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا. قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. ثم جمع الناس فقال ان الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا اله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة[2].

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوبا دبلوماسيا رفيعا في الإعلان عن الدعوة نوجزه بالآتي:

1. ان النبي ﷺ لم يلجأ إلى مكان خاص أو شعب محدد في مكة ليعلن فيه الدعوة، وإنما لجأ إلى مكان عام " الصفا" ليسمعه الجميع، ولكي يبعد عن الدين صفة الخصوصية ويضفي عليه صفة العمومية .
2. نادى النبي ﷺ أصول القبائل في مكة ولم يقتصر على قبيلته أو اهله، وبذلك ابعد عن الدين صفة القبلية ، وان الله أرسله إلى أهل مكة بصفة خاصة لأنهم اعلم الناس بصدقه ومعرفته، والى الناس كافة بصورة عامة .
3. لم يبدأ النبي ﷺ بالإعلان عن الدعوة مباشرة، إنما اراد في البداية ان يعترفوا بصدقه وأمانته ، وبعد ان اعترفوا بصدقه أعلن لهم الدعوة. وبذلك فوت عليهم فرصة تكذيبه .
4. ظهر النبي ﷺ على الصفا وهو القائد الشديد الواثق من دعوته. فلم يبدأ كلامه بالتبشير بالجنة أو منحهم العطايا ان اتبعوه، وإنما اخبرهم بانه

(1) زبدة التفسير من فتح القدير، مرجع سابق، ص 344.

(2) قرنه طلبه بدوي ، مصدر سابق، ص 46.

نذير لهم يتوعدهم بعذاب شديد. وبذلك فانه بدأ كلامه بالتهديد لمن لا يتبع الدعوة.

5. لم يبدأ النبي ﷺ كلامه بأنه نبي، وإنما بدأ كلامه بأنه رسول الله إليهم. وان كلمة الرسول لها معنى خاص عند العرب.

6. من أولى المبادئ التي أعلنها النبي ﷺ على الصفا هي التوحيد. وأن الله لا اله إلا هو. فبعد ان عرف النبي ﷺ شخصه وانه رسول من الله طلب منهم الإيمان بالله.

ان الأسباب التي دفعت النبي ﷺ إلى الإعلان عن دعوته هي:

1. ان النبي ﷺ وثق من ان الدعوة تأصلت ورسخت في نفوس اتباعه. فلم يعد بعد ذلك خطر مؤثر من المشركين عليها. فقرر مواجهة المصير بعد ان اطمأن إلى ان هؤلاء المؤمنين بوسعهم المضي في نشر الدعوة الإسلامية على الطريقة التي وضعها لهم[1] .

2. ان الإعلان عن الدعوة من قبل النبي ﷺ افضل من كشف المشركين لها. فقد استطاع ان يوضح أهداف دعوته بأسلوبه الدبلوماسي الرفيع وان يبدأ هو بالمبادرة وان يأخذ الفرصة في شرح طبيعة الدعوة. في حين ان المشركين لو اكتشفوها قبل ذلك لكانت المبادرة في تشويه الدعوة بأيدهم وعدوها خروجا على دينهم .

3. ان السرية فرضت على الدعوة في بدايتها، وذلك بسبب التحوط من بطش المشركين. ولم تكن بسبب القصور في المبادئ. فالإسلام دين فضيلة وعدل وحق، يهدف إلى إقامة مجتمع متكامل يسوده الرخاء والأمان والمحبة ومحاربة الرذيلة والاستغلال، وهذه المبادئ واضحة ليس فيها ما يدعو للسرية. وان الإعلان عنها وان كان يتعارض مع مصالح بعض

1) نصري سهلب ، مصدر سابق، ص 102.

المتنفذين، ولكنه يعبر عن آمال الكثيرين، وهم المخاطبون بالدعوة أساسا.

4. ان ظروف الإعلان عن الدعوة كانت مواتية، فمكة كانت تعيش مرحلة سلام وهدوء وغير مشغولة بأمور غير اعتيادية، فكان الإعلان عن الدعوة هو الشغل الشاغل لأهلها، وهذا ما وفر للدعوة فرصة في ان تصبح الشغل الشاغل لأهل مكة وللقبائل المحيطة بها. وقد ساهم المشركون في نشر الدعوة عن طريق الرد عليها، وهذا ما وفر للدعوة فرصة الوصول إلى الكثير من الناس، الذين بدأوا بالبحث عن الحقيقة والصواب.

وبعد ان تم الإعلان عن الرسالة لم يخرج النبي ﷺ بسيفه ليعلن نشر الرسالة، فلم يقتل أو يقتال أحدا من المشركين، وإنما بدأت الدعوة بنشر الدين بالأسلوب الدبلوماسي الجديد. ففتح أول صفحة من الدبلوماسية العلنية، بالاعتماد على التفاوض فحسب. فقد بدأ النبي ﷺ يتصل بالناس ويطلعهم على الرسالة .

وبذلك يمكننا القول ان النبي ﷺ كان دبلوماسيا حاذقا في تنفيذ مهمة الدبلوماسية السرية، وقويا في تنفيذ عملية الدبلوماسية العلنية، في بيئة تتجاذبها المصالح الأنانية والمادية والعصبية القبلية والتعصب لدين الإباء والأجداد ، فقد استطاع النبي ﷺ بحكمته وقدرته الكبيرة ان يجتاز هذه الحواجز والمصاعب ويصدع بالرسالة التي يحملها وان يوصلها إلى المعنيين أو المخاطبين بها بأمانة ودقة واقتدار .

4 – الحذر في عمل الدبلوماسي

من الأمور المهمة لنجاح الدبلوماسي في أداء مهمته الحيطة والحذر أثناء عمله. والحيطة والحذر ليسا من الأعداء فهذا أمر مفروغ منه وإنما من الأصدقاء ايضا. فقد يفشي الصديق أسرار صديقة الدبلوماسي بقصد أو بدون قصد أو ان للصديق مصلحة تتأثر من عمل الدبلوماسي فيعمل على إفشال مهمته.

فقد روي عن النبي ﷺ انه قال " أخوك البكريُّ فلا تأمنه ". وروى عبد الله بن عمرو بن الفغواء الخزاعي عن أبيه انه قال: دعاني النبي ﷺ وقد أراد ان يبعثني بمال إلى أبي سفيان يقسمه في قريش بمكة بعد الفتح. فقال " التمس صاحباً". قال فجاءني عمرو بن أمية الضميري فقال بلغني انك تريد الخروج وتلتمس صاحبا قال قلت اجل قال فأنا لك صاحب. قال فجئت النبي ﷺ، قلت وجدت صاحبا فقال "من" قلت عمرو بن أمية الضميري. قال: " إذا هبطت بلاد قومه فاحذره فانه قد قال القائل أخوك البكريُّ فلا تأمنه ". فقال فخرجنا حتى إذا كنت بالإبواء. قال الضميري أريد حاجة إلى قومي فتلبث لي، قلت راشدا فلما ولى ذكرتُ قول النبي ﷺ فشددت على بعيري حتى خرجت أوضعه حتى كنت بالاصافر إذا هو يعارضني في رهط. قال وأوضعت فسبقته فلما رأى أني قد فته انصرفوا. وجاءني فقال كانت لي إلى قومي حاجة فقلت اجل ومضينا حتى قدمنا مكة فدفعت المال إلى أبي سفيان[1] .

وكان المال مرسلا إلى فقراء قريش وهم مشركون يتألفهم، معنى ذلك ان النبي ﷺ لم يأمن من الضميري وتحوط من ان يخبر قومه بالمال الذي مع عمرو بن الفغواء. فيقطعون الطريق ويأخذون المال منه قهرا. ومعنى أخوك البكري: شقيقك أحذره فلا تأمنه فضلا عن الأجنبي. و"أخوك البكري لا تأمنه" مثل مشهور عند العرب. وفيه إثبات الحذر واستعمال سوء الظن. وان ذلك كان على وجه طلب السلامة من شر الناس لم يأثم به صاحبه. والحاصل انه لا ينبغي ان يعتمد حق الاعتماد في السفر على أحد من الناس لان النية قد تتبدل بأدنى الأحوال وتتغير بأقل شئ، فلا يعتبر بها، بل لابد لكل عابر سبيل ان يراعي حاله ويحفظ متاعه ولا يتكل على غيره[2].

وقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " لا يلدغ المرء من جحر واحد مرتين" . ومعنى ذلك ان المؤمن الممدوح، هو الحازم الذي لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد اخرى،

(1) سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 316.

(2) حاشية عون المعبود على سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 317.

وهو لا يفطن لذلك ولا يشعر به، وقد روي ان النبي ﷺ اسر أبا غرة الشاعر يوم بدر فمن عليه وعاهده ان لا يحرض عليه ولا يهجوه فأطلقه، ثم رجع إلى التحريض والهجاء ثم أسره يوم أحد فسأله المن فقال النبي ﷺ: " لا يخدعن المؤمن ولا يؤتين من ناحية الغفلة فيقع في مكروه أو شر وهو لا يشعر وليكن حذرا مستيقظا"[1].

ثانياً : تأثير الدبلوماسي في الآخرين وعدم تأثره بهم

من صفات الشخصية الإنسانية الواعية أنها قادرة على العطاء والبذل والإنماء، تتأثر بما هو صالح وجيد، وتنفر عن ما هو سيء وبغيض. تتفاعل مع الحق والعدل وترفض الظلم والاستغلال.

وإذا كانت مهمة الشخص هي حمل الرسالة لإنقاذ البشرية من شرورها فان من يحمل هذه الرسالة ينبغي ان يكون على قدر كبير من العفة والصدق والأمانة. وان يحمل هذه الرسالة في نفسه قولا وعملا قبل ان يطلب من الناس الإيمان بها. وهذا يتطلب من حامل هذه الرسالة صدق الإحساس والمشاعر والسلوك الذي ينسجم مع أهمية الرسالة التي يحملها، وان لا يأتي بأي عمل يتناقض مع ما يحمله من أفكار ومبادئ .

وقد كانت حياة النبي ﷺ تنسجم وروح الرسالة التي يحملها. فقد كان سلوكه قبل نزول الوحي كسلوكه بعد نزوله. صادقا أمينا عادلا مبتعدا عن كل ما هو يسيء إلى شخصه. فلم ينه قومه عن عمل كان هو قد فعله ، ولم يطلب منهم القيام بعمل كان هو لا يعمله. ولهذا فقد امتازت شخصية النبي ﷺ بمميزات فذه وفريدة فكان مؤثرا في مجتمعه وغير متأثر به.

وبناء على ذلك سنتناول قدرة الرسول على التأثير بالآخرين وعدم التأثر بهم في المطلبين الآتيين:

---

(1) عون المعبود على سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 317.

أ - تأثير الدبلوماسي بالآخرين

من الأمور الثابتة في العرف الدبلوماسي، ان يتم اختيار المبعوث الدبلوماسي من الشخصيات التي تجذب الآخرين وتؤثر في نفوسهم. وتلك مهمة تتوقف عليها مهمة نجاحه أو فشله.

وتتفاعل في شخصية المبعوث الدبلوماسي المؤثر في الآخرين عدة عوامل، منها التكوين الشخصي والتربية والبيئة التي يعيش فيها ومؤهلاته العلمية والثقافية والاجتماعية، وقدرته على استيعاب الموضوعات التي تطرح أمامه وقدرته الشخصية على المناورة ومعالجة الحالات الحرجة والصعبة، وإتقانه التحاور في إطار ما هو مطلوب، وسرعة البديهة، وطبيعة المهمة المكلف بها، وما هو مسموح له من التعامل وحدود مهمته .

ومن الواضح، ان الأقارب والأصدقاء والصحاب والمعجبين والمعارف هم اقرب الناس إلى فهم وإدراك بعضهم للبعض من الأشخاص الذين لا تربطهم علاقة من هذا النوع.

ومن هذا المنطلق فقد توجه النبي ﷺ إلى اقرب الناس إليه وهم أهل بيته وأقاربه وأصحابه وأهل عشيرته وسكان مدينته. وكان اسبق الناس الذين لبوا دعوة الدين الجديد من ذوي الاستقامة من أهل بيته وأصحابه الذين يعرفون حقائق حياته بصورة مفصلة[1]. فقد بدأ النبي ﷺ أولا في أهل بيته وأقاربه ومن ثم أبناء عشيرته وقبيلته وأهل مكة ثم تجاوز ذلك إلى خارج حدود مكة، لتشمل الدعوة يثرب، ومن بعد ذلك تتسع دائرة التأثير من أهل البيت لتنتهي بالعالم اجمع .

(1) محمود شيت خطاب ، مصدر سابق، ص 442.

فكانت زوجته خديجة بنت خويلد أول من علمت بنزول الرسالة[1]. وهي أول من آمن بالله ورسوله وبالرسالة[2].

وكان أول من آمن بالدين الجديد من الذكور ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن عشر سنين، وكان في حجر النبي ﷺ[3]. ثم زيد بن حارثة[4]. وأبو بكر الصديق[5].

وكانت مفاتحة النبي ﷺ لهؤلاء الثلاثة دون غيرهم لاتصافهم بصفات فذه كان لها الدور الكبير في نشر الدين الإسلامي. فعلي بن أبي طالب اتصف بالشجاعة والبطولة والعلم والفقه واللغة والحكمة والتعفف والإيمان بالمبادئ، ولأنه نهل من شخص الرسول أثناء تربيته له.

وزيد بن حارثة بن شرحبيل، فكان مولى النبي ﷺ وكان معجبا به. فجعله كاتبا عنده.

أما أبو بكر الصديق فقد كان صديقا للنبي ﷺ. وعندما كان مع حكيم بن خزام إذ جاءت مولاة خديجة لحكيم، وقالت له ان عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم ان زوجها نبي مرسل مثل موسى. فانس ابو بكر حتى أتى محمدا ﷺ، فسأله عن خبره

---

(1) بعد ان انصرف جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء رجع النبي إلى اهله حتى اتى خديجة فجلس إليها. فقالت يا ابا القاسم اين كنت ؟ فو الله بعثت برسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ثم حدثها بالذي رآه، فقالت ابشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة. يراجع: سيرة ابن هشام ج1، مرجع سابق، ص 256.

(2) المصدر نفسه ج1 ص 259.

(3) سيرة ابن هشام ج1، مرجع سابق، ص 264.

(4) وهو زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزي بن امرئ القيس. وكان حكيم بن حزام بن خويلد، قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثه. فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذ عند النبي ﷺ، فقال لها اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيدا فاخذته فرآه النبي ﷺ وتبناه قبل ان يوحي اليه. يراجع: سيرة ابن هشام ج1، مرجع سابق، ص 266.

(5) وهو ابو بكر بن قحافة واسمه عتيق واسم قحافة عثمان بن عامر. واسم ابي بكر عبد الله. وعتيق لقب لحسن وجهه وعتقه. تراجع: سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص 268.

فقص عليه قصته . فقال ابو بكر صدقت بابي انت وامي لأنت أهل للصدق . أنا اشهد ان لا اله إلا الله وأنك رسول الله ، فقيل ان النبي ﷺ يومئذ لقبه بـ "الصديق". وكان اسمه قبل ذلك عبد الكعبة. ولقبه بالعتيق لحسن وجهه ، وهو أول لقب في الإسلام[1].

وبعد ذلك دخل الإسلام عدد من الأشخاص. غير ان النبي ﷺ كان يطمع بان تؤمن عشيرته بالإسلام. إلا أن عزوف عشيرته عن دخول الإسلام كان يعود لعدة أسباب منها:

1. ان الإسلام لم يأت إلى فراغ، إنما جاء لمجتمع له دياناته القديمة الخاصة التي يعتز بها. كالوثنية واليهودية والمسيحية والمجوسية. وليس من السهولة ان يغير هؤلاء دياناتهم .
2. عدّ تجار مكة أن الإسلام يهدد مصالحهم التجارية. خاصة عندما وجدوا أن الإسلام يمنع الاستغلال والربا .
3. اعتقد بعض شيوخ القبائل أن الإسلام ما جاء إلا لتغيير البنية القبلية العربية ، وهو ما سيقلل من شأنهم ويحد من مراكزهم .
4. اعتقد بعض زعماء قريش أن دخولهم الإسلام سوف يدفع القبائل العربية إلى التمرد عليهم. فقد روي ان النبي ﷺ لقي أبا جهل، فقال له، يا أبا الحكم هلم إلى الله والى رسوله. أدعوك إلى الله. قال أبو جهل: يا محمد: هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا ؟. هل تريد ان نشهد انك قد بلغت، فنحن نشهد انك قد بلغت. فو الله لو أني اعلم أن قولك حق لاتبعتك فانصرف النبي ﷺ ، واقبل أبو جهل على صاحبه المغيرة بن شعبة ، وقال: فوالله إني لا علم أن ما يقوله محمد حق، ولكنَّ بني قصي قالوا فينا الحجابة ، فقلنا نعم، فقالوا الندوة فقلنا نعم، فقالوا فينا اللواء ، فقلنا نعم، فقالوا فينا

(1) السيرة الحلبية ج1 ، مرجع سابق، ص 274.

السقاية فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا حتى إذا تحاكمت الركب قالوا منا نبي الله والله لا افعل[1].

ولهذه الأسباب لم يسارع أبناء قريش إلى الدخول بالإسلام إلا بعد ان اتسع نطاقه ودخلت القبائل العربية فيه . ولربما كان فتح مكة وسيلة لدخولهم، بعد ان دخلت غالبية القبائل العربية فيه، واتسعت قوته وزاد نفوذه. ولهذا نرى ان فتح مكة كان فتحا لسكانها أيضا في دخول الإسلام وإسقاط الحجج التي كانوا يتشبثون بها للإمتناع عن دخول الإسلام. واصبح الإسلام قريبا منهم في مدينتهم ومساكنهم. ولهذا لم يقاوموا جيش المسلمين عند فتح مكة كما هو معهود فيهم ، لا خوفا ولا رهبة، وإنما حبا ورغبة بدخول الإسلام، من اجل ان يلتحقوا بالركب الذي تخلفوا عنه .

2- عدم تأثر الدبلوماسي بالمحيط الذي عمل فيه

يتوجب على الدبلوماسي ان يكون ثابت الشخصية. لا يتأثر بالمحيط الذي يعمل فيه. فقد يتطلب عمله ان يعمل في مجتمعات لها تقاليدها الخاصة. وقد تتعارض هذه التقاليد مع تقاليد مجتمعه. ولهذا فان الدبلوماسي الحاذق هو الذي لا ينقاد وراء العادات والتقاليد السيئة المحيطة به. بل يجب أن يكون مؤثرا غير متأثر. وقد يتعرض إلى حالات الإغراء التي تبعده عن تنفيذ مهمته. فعليه ان يتمتع بالثبات والمناعة والحصانة الشخصية.

وشخصية النبي ﷺ كانت ثابتة لم تتأثر بالمحيط الذي عمل فيه. بل انه هو الذي اثر بالبيئة التي عمل بها وغيرها تغييرا جذريا. فقد نشأ في الجاهلية وهو طفل مثالي، وهو شاب بين الأصدقاء، وفي مجتمع يعبد أهله الأصنام والأوثان. ولكنه لم يتأثر بما رأى وسمع في ذلك المجتمع، لان الله احاطه بعنايته وصانه من كل خطأ ليعده لأداء رسالته حتى بلغ مبلغ الرجال. فكان افضل قومه واطهرهم سريرة. وأبعدهم عن

(1) الخصائص الكبرى ج1 ، مرجع سابق، ص 286.

الفحش والأخلاق التي تدنس الغلمان والشبان والرجال[1]. فقد طالع صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات. فعاف منها ما ساءه من خرافة نأى عنها. ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره فما وجده حسنا شارك فيه بقدر معين[2].

فقد التزم النبي ﷺ منذ صغره بالتعفف، فلم يفعل ما يمس سيرة حياته أو يقلل من شأنها أمام الآخرين. فقد قال: " ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة لو بصرت لي غنمي حتى ادخل مكة فاسمر بها كما يسمر الشباب، فقال افعل، فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير، فقلت ما هذا، قالوا فلان بن فلان تزوج بفلانة بنت فلان فجلست انظر إليهم فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، قال فجئت صاحبي فقال ما فعلت قلت ما صنعت شيئا ثم أخبرته الخبر. قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة فجلست انظر فضرب الله على أذني فأخبرته الخبر ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته "[3].

ويمكن ان نستنتج من هذا ان النبي ﷺ كان بعيدا عن التأثر بحياة أهل مكة وما فيها من لهو بسبب انشغاله بالتأمل والترقب. وأن الله عز وجل قد حصنه من الموبقات وان كانت في أمور تعد اعتيادية كالأفراح الخاصة بمناسبات الزواج.

وعلى الرغم من ان النبي ﷺ كان بعيدا عن التأثر بحياة أهل مكة، إلا انه حرص على الاطلاع عليها. لان القائد لابد ان يعرف كل الأدران التي تعلق في المجتمع لكي يعرف مكامن القوة والضعف فيه . فعندما يعتلي منصة القيادة يتمكن من معالجة الأمور بحكم معايشته لها.

(1) محمد عطية الابرش ، مصدر سابق، ص 244.

(2) محمد الغزالي، فقه السيرة، الدوحة قطر، مطابع علي بن علي، ص 73.

(3) الطبري، ج2، مرجع سابق، ص 34. ومحمد الغزالي، مرجع سابق، ص 72 وجلال الدين عبد الرحمن الأسيوطي، مرجع سابق، ص 219.

وكان النبي ﷺ كاي نبي آخر قد رعى الغنم[1]. ليستمد منها الوقار والسكينة[2]. وتبعده عن صخب المدينة وما يدور فيها من أمور .

وإذا كان أهل مكة يعبدون الأصنام، فان النبي ﷺ لم يجارهم في ذلك أو يتقرب إليهم بالتقرب إليها. بل كان يبغض الأصنام وينفر منها ويرعبه ان يراها ، أو يرى عبادة القوم لها [3].

ان عزوف النبي ﷺ عن عبادة الأصنام يعني انه كان يؤمن بالله ابتداء. فكان يطوف بالكعبة ولكنه لا يعترف بوجود الأصنام كشريك لله. وهذه الحالة تدل على انه كان قبل نزول الوحي واقعيا محرراً من هواجس قومه الذين عاش وسطهم، نابذا لأوهامهم التي استقرت عندهم منذ أزمان سحيقة ، ومتأثرا بالتوحيد الذي جاء به النبي إبراهيم ومن بعده إسماعيل عليهما السلام. فقد كان لا يبغض عبادة الأصنام فحسب، بل يبغض النظر والتقرب اليها ، ويبغض الأسباب التي أدخلتها لأرض العرب، رغم أنه عاش في مكة مقر وجود هذه الأصنام. كذلك لم يكن على ديانة اليهود أو المسيحيين

---

(1) قال النبي ﷺ: " ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ". قال له أصحابه وانت يا رسول الله، قال: " وانا رعيتها لاهل مكة بالقراريط ". وهي اجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج البسيطة. يراجع : السيرة الحلبية ج1 ، مرجع سابق، ص 215. والوفا باحوال المصطفى ج1 ، مرجع سابق، ص 142.

(2) وقد قيل في ذلك ان النبي ﷺ اجر نفسه قبل النبوة في رعي الغنم ومن حكمة الله عز وجل في ذلك ان الرجل إذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان ذهب اولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في اعدل الأحوال ووقع الفخار بين أصحاب الإبل واصحاب الغنم اي عند النبي صلى الله عليه وسلم فاستطال اصحاب الإبل وفي الحديث: "الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم". تراجع: السيرة الحلبية، مرجع سابق، ص 125.

(3) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 301.

وقالت الجارية الأرمنية التي حضرت ولادته " كانت بوانه صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق وتعكف عنده يوما إلى الليل في كل سنة. فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم النبي ﷺ ان يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك حتى رأيت ابا طالب غضب عليه. ورأيت عماته يومئذ في اشد الغضب وجعلن يقلن انا نخاف عليك مما تصنع به حتى ذهب فغاب عنهم ثم رجع مرعوبا فزعا ، فقلن ما دهاك، قال إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل ابيض طويل يصيح بي " وراءك يا محمد لا تمسه ". المصدر السابق، ص 379.

رغم دخول الديانتين إلى شبه الجزيرة العربية منذ زمن طويل. فلم يؤمن بالمادية اليهودية والروحية المسيحية.

وبناء على ذلك لم يتأثر النبي ﷺ بالمحيط الذي عاش وترعرع فيه، بل انه هو الذي اثر به وقلبه رأسا على عقب ، فكان ثباته على نبذ عادات وتقاليد قومه دليلا على قوة شخصيته وثباتها. فاثر ولم يتأثر وغير ولم يتغير وقاد ولم ينقد. فعندما أعلن عن نزول الرسالة لم يتهم بأنه كان قد مارس عادات قومه أو انه عبد آلهتهم. فكان صادقا قولا وعملا وممارسة. ولم يتهم بأنه نهى عن فعل أو عمل قد فعله هو. بل كان ما يدعو إليه قد آمن به وجعله سلوكا لحياته العامة، إلا ما خصه الله ببعض الخصائص التي انفرد بها لصفة النبوة التي كرم بها .

ثالثا : خبرة الدبلوماسي بأحوال المجتمعات

من الأمور التي تزيد في قدرة الدبلوماسي ومكانته بين الناس، معرفته بأحوال المجتمعات المعاصرة له. والاطلاع على أحوالها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية والثقافية والقوى المؤثرة في القرار السياسي.

ومن أولى مهام البعثات الدبلوماسية في الوقت الحاضر هو متابعة هذه الأحوال ونقلها إلى دولها بتقارير شهرية أو سنوية، مع التغييرات التي تطرأ عليها، وإعداد الدراسات والتقارير عنها بصورة مستمرة، من اجل ان تحدد الدولة طبيعة العلاقات التي تخطط لها مع هذه الدولة. فلابد من الاطلاع على جميع الأمور الداخلية .

ويعد نقل الأخبار عن تلك الأحوال من الأمور الطبيعية للبعثات الدبلوماسية في الوقت الحاضر وعملاً مشروعاً . وهذا ما أكدته اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961[1]. وغالبا ما تقوم الدول بإرسال الدبلوماسي الذي تختاره إلى دولة معينة للدراسة أو السياحة أو العمل فيها لمعرفة أحوالها قبل أن تعينه مبعوثا لديها .

---

(1) نصت الفقرة (د) من اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 على حقوق البعثة في الدولة المعتمد لديها بما يأتي: "استطلاع الأحوال والتطورات في الدولة المعتمد لديها بجميع الوسائل المشروعة وتقديم التقارير اللازمة إلى حكومة الدولة المعتمدة".

ولما كان الإسلام دينا عالميا، فانه من الضرورة ان يطلع النبي ﷺ على جميع أحوال المجتمعات التي تحيط بشبه الجزيرة العربية. وقد توفرت له فرص السفر خارج مكة، وتمكن من خلالها من الاطلاع على طبيعة المجتمعات في مختلف المجالات.

فقد سافر مع عمه أبي طالب للشام لغرض التجارة، وكان سنه تسع سنين وقيل اثنتى عشر سنة وشهرين وعشرة أيام[1].

وقد وفر السفر للنبي ﷺ وهو في هذه السن المبكرة فرصة الاطلاع على حضارة الروم في الشام بصورة اكثر من أية سفرة أخرى، لان موقعه في هذه الرحلة لم يكن لغرض التجارة حتى ينشغل بأمورها فقط وإنما كان في مصاحبة عمه أبي طالب، مما وفر له فرص الاطلاع على أحوال الروم ونظام الحكم عندهم وتفاعل المدنيات والنظام العسكري والإداري .

يضاف إلى ذلك ان اهتمام الراهب بحيرا بالنبي ﷺ وتحذيره من غدر اليهود، زاد من رعاية عمه أبي طالب واهتمامه به والمحافظة عليه ومتابعته بصورة مستمرة وتوثيق الصلة به. حيث أن العلاقة بين الشيخ أبي طالب الرجل الذي خبر الحياة وخبرته، واخذ منها التجارب والعبر ، والنبي ﷺ الفتى الصغير، جعلت من الفتى يتصرف تصرف الحكماء والعقلاء لإرضاء عمه. فارتفعت تصرفات النبي ﷺ إلى تصرفات الشيخ الكبير المحنك. وهو أمر زاد في بلوغه الفكري والعقلي بما تجاوز عمره اليافع، والارتقاء للوقار والرزانة. فكلما تقدم به العمر اكتسب خبرة جديدة مضافة إلى ما سبقها من خبرات.

وكانت عودة النبي من الشام نقطة تحول في حياته. فقد انتهت حياة رعي الغنم وبدأت حياة جديدة قائمة على تعلم فنون القتال وبناء الجسم القوي القادر على التحمل.

---

(1) يراجع: السيرة الحلبية ج1، مرجع سابق، ص 118. والوفا باحوال المصطفى، مرجع سابق، ص 132. والخصائص الكبرى ج1، مرجع سابق، ص 208. وتاريخ الرسل والملوك والأمم للأمام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري، ج2 مطبعة الاستقامة القاهرة 2939 ص 32.

فاخذ يتدرب على الرماية وضرب السيف والرمح وغيرها من وسائل الحماية. فلم يكن في ذلك الوقت للعربي ان يعيش دون أن يجيد تلك الفنون[1].وعندما بلغ النبي ﷺ خمساً وعشرين عاماً كان لابد له من ان يعتمد على نفسه في كسب عيشه، فطلب منه عمه ابو طالب ان يتصل بخديجة ويعمل في تجارتها. فأبدى رغبته بالعمل معها، وعندما علمت أرسلت إليه وطلبت منه ان يعمل في تجارتها، وقالت له ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم اخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك. فخرج النبي ﷺ مع غلامها ميسرة يريد الشام، ولما قدم الشام نزل في سوق بصرى تحت ظل شجرة في صومعة راهب يقال له نسطورا، فقال الراهب لميسرة، يا ميسرة ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال له أفي عينه حمرة، فقال ميسرة نعم لا تفارقه. فقال الراهب هو آخر الأنبياء. وياليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج. وقيل أن الراهب دنا من النبي ﷺ وقبل رأسه، وطلب منه ان يكشف عن كتفه، فكشف له فإذا هو خاتم النبوة[2].

وقد سافر النبي ﷺ إلى الروم في الشام واليمن عدة سفرات، قيل أنها ثلاث سفرات، وقيل اربع [3].

وقد وفرت هذه السفرات للنبي ﷺ فرصة الاطلاع على المعابد والالتقاء بالرهبان ومناقشتهم، والاطلاع على أساليب التجارة وحضارة الروم في الشام واليمن وأسلوب الحياة فيهما.

كما أن السفر الطويل يتطلب الاندماج والتضامن مع المرافقين والصبر والمعاناة وتحمل تصرفات المرافقين. وغالبا ما تكتشف قوة الشخصية وكرمها وقدرتها على

---

(1) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 257.

(2) السيرة الحلبية ج1 ، مرجع سابق، ص 133. والوفا باحوال المصطفى ج1 ، مرجع سابق، ص 143. والخصائص النبوية ، مرجع سابق، ص 226.

(3) ورد ان النبي ﷺ قام بثلاث سفرات لخديجة ، الاولى إلى سوق حباشة في اليمن والثانية والثالثة إلى الشام، وقيل سافر اربع سفرات إلى اليمن وواحدة إلى الشام يراجع: السيرة الحلبية ج1 ، مرجع سابق، ص 136.

تحمل الآخرين، في السفر الطويل. وقد وفرت سفرات النبي ﷺ إلى شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية له فرصة الاطلاع على أحوال المجتمعات وكيفية التعامل معها وأساليب معيشتها. وكانت المعلومات التي حصل عليها من جراء السفر قد وفرت له إمكانية التعامل معها بعد نزول الرسالة.

وإن كانت الحياة في اليمن لها طابعها العربي الخاص القريب من طابع مكة، إلا إن الحياة في الشام مختلفة تماما من حيث الحكم والادارة والدين وأسلوب الدنيا القائمة على المجتمع الغربي، بسبب سيطرة الروم عليه.

رابعاً: خبرة الدبلوماسي بأمور الحياة العامة

بما أن الدبلوماسي يمثل دولته في جميع مرافقها ومؤسساتها، فان ذلك يتطلب منه أن يلم بجميع الأمور التي تهم دولته ومنها الأمور السياسية والحربية والتجارية كما إن من مهام الدبلوماسي إشعار دولته بجميع التطورات السياسية والاقتصادية والتجارية والعسكرية والعلمية والفنية والثقافية والمعاهدات التي تعقدها الدولة المعتمد لديها مع الدول الأجنبية.

وبناء على ذلك فإن الدبلوماسي لا يستطيع ممارسة هذه الأمور إن لم تكن له معرفة واسعة فيها. وهذه المعرفة لا تأتي إلا عن طريق المعايشة والملاحظة والدراسة. غير أن المعرفة الكبيرة لها تأتي عن طريق ممارسه هذه المتطلبات بصورة عملية. ولهذا فإن الدول تعمل على تعليم دبلوماسييها هذه المهام عن طريق الدراسة والبحوث والممارسة الفعلية الميدانية.

وإذا كان على المبعوث الدبلوماسي ان يلم بأمور الحرب والأحلاف والتجارة بوصفه ممثل دولته في الدولة المعتمد لديها. فإن من باب أولى ان يلم بها رئيس دولته بوصفه الدبلوماسي الأعلى بالدولة.

وقد كان النبي ﷺ مطلعاً على أمور الحرب والأحلاف والتجارة ومارسها فعليا، مما أكسبه خبرة عالية.

وعليه فان هذا المبحث يتضمن الفقرات الآتية:

1- معرفة الدبلوماسي بفنون الحرب والقتال

ان اغلب الاعمال التي يمارسها المبعوث الدبلوماسي تتمثل في كونه عينا عسكرية لدولته في الدولة المعتمد لديها، ينقل إليها كل التطورات العسكرية التي تحصل فيها، لأسباب متعددة منها: ان قوة الدولة تعتمد على قوتها العسكرية وهذه القوة لا يمكن معرفة تأثيرها إلا بعد المقارنة مع القوة العسكرية للدول الأخرى، والتطورات التي تحدث فيها، ومدى تأثير هذه التطورات على وضع دولته العسكري أو نقل التطورات العسكرية لدولته للاستفادة منها .

وعلى الرغم من عزوف النبي ﷺ عن التقرب للأصنام التي يعبدها قومه، وابتعاده عن هواجسهم، إلا انه كان حريصا على حماية عشيرته من الأعداء. فقد حمل السلاح وهو ابن التاسعة عشرة من عمره، وتدرب على فنون الحرب وأنواع الأسلحة. وقد اشترك في حرب الفجار[1]. وهو في سن النضج الحربي واستهلال الرجولة الكاملة التي كان يدرج في النمو إليها بعقله وجسمه وخلقه[2].

وقد وفرت له هذه الحرب فرصة الاطلاع على قواعد الحرب والقتال وأسلوب إدارتها وهو في سن أداء الخدمة العسكرية المعمول به في الجيوش الحديثة وهو السن الذي يكون فيه عنفوان الشباب، والقدرة على أداء الخدمة العسكرية وتحمل متاعبها وأداء متطلباتها بشكل صحيح[3]. وقد اطلع النبي ﷺ على الصلح الذي بموجبه أنتهت الحرب بين الطرفين[4].

---

(1) حرب الفجار وقعت بين قريش وهوازن. وسميت بحرب الفجار لانها وقعت في الاشهر الحرم. يراجع: قرني طلبة بدوي ، مصدر سابق، ص 24.

(2) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 365.

(3) ذكر محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 275، بان عمر النبي صلى الله عليه وسلم عند اشتراكه في حرب الفجار كانت تسع عشرة سنة . وذكر ابن هشام ، ان عمره كان اربع عشرة سنة، مصدر سابق، ص 198 .

(4) انتهت حرب الفجار بالصلح. يراجع: ابن هشام ج1 ، مصدر سابق، ص 202. وعبد السلام هارون تهذيب فقه سيرة ابن هشام ج1 دار سعد مصر 1955 ، ص 46.

وقد اكتسب النبي ﷺ من حرب الفجار خبرة عسكرية كبيرة استفاد منها في الحروب التي خاضها المسلمون لمحاربة المشركين اثناء عهد الرسالة. وبمجرد ان وصل المدينة عمل على تشكيل السرايا لحماية أمن المدينة الخارجي الذي كان مهدداً بسبب قوة القبائل الضاربة حول المدينة وتحالفها مع قريش، وعدم استتباب الأمن الداخلي لمواجهة اليهود الذين كانوا يتمتعون بقوه عسكرية كبيرة وكانت لهم قلاع وحصون عسكرية داخل المدينة، إضافة لتحالفهم مع القبائل العربية. وتمكن من تشكيل قوى عسكرية متميزة في المدينة والمناطق المحيطة بها استطاعت فرض سيطرتها وحماية الأمن الخارجي والداخلي خلال فترة قصيرة من الزمن.

وقد حقق النبي ﷺ الانتصار في غالبية الحروب التي خاضها رغم حداثة الإسلام وقلة عدد المسلمين وضعف إمكاناتهم المادية، وانتمائهم إلى قبائل متفرقة. كل ذلك ما كان يتحقق لولا قدرة النبي ﷺ وخبرته العسكرية التي اكتسبها من حرب الفجار.

2- خبرة الدبلوماسي في عقد الأحلاف

لما كان المجتمع الدولي في الوقت الحاضر يتكون من دول متعددة، فان خطر اتفاق الدول على محاربة إحدى الدول والقضاء عليها أمر غير مستبعد. ولهذا فان الدول تحاول ان تخلق تكتلات عسكرية كبيرة للحد من الخطورة التي قد تتعرض لها. ومن اجل ذلك نشاهد الآن أقوى الدول في العالم من الناحية العسكرية تعمل على خلق تكتلات عسكرية لمواجهة بعضها البعض. وما الحلف الأطلسي إلا خير دليل على انتظام الدول في منظمات دولية عسكرية لحماية أمنها وضمان مصالحها.

وقد تعقد الدول الأحلاف العسكرية لا لمواجهة الدول الاخرى، وإنما أيضا لضمان عدم اعتداء بعضها على بعض، وتجنب المنازعات المسلحة.

ويتولى عقد الأحلاف العسكرية بين الدول دبلوماسيون يتمتعون بقابليات وإمكانيات عالية، ولهم الخبرة في المناورات الدبلوماسية والقدرة والاستنتاج في أمور الحرب والاستراتيجية العسكرية.

وقد عاش النبي ﷺ بين القبائل العربية التي كانت في صراع مستمر مع بعضها البعض . والتي شهدت تحالفات عسكرية لحماية أمنها وتجنب المنازعات بينها. وقد وفرت هذه التحالفات حماية امن القبائل العربية ضد الإمبراطوريات التي كانت تحيط بها. كما ضمنت التحالفات حماية القبائل الضعيفة من تعدي القبائل القوية عليها وذلك بسبب تحالف القبائل الضعيفة مع قبائل أخرى. وهذه التحالفات ساهمت نوعا ما في منع نشوب منازعات مسلحة بين القبائل.

وعلى الرغم من ان النبي ﷺ لم يكن من المتنفذين في مكة إلا انه كان يتابع أحوالها السياسية والعسكرية والأحلاف التي تعقدها مكة مع القبائل الأخرى.

ومن الأحلاف التي اطلع عليها أحلاف بني عبد مناف، ومنها حلف "المتطيبين"، وأحلاف بني عبد الدار ومنها أحلاف لتسوية منازعاتهم حول السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، والتي حددت وسائل تسوية المنازعات التي تنشأ بين القبائل المتحالفة. وقد قال النبي ﷺ في مثل هذه الأحلاف: " ما كان حلف في الجاهلية فان الإسلام لم يزده إلا شدة "[1].

ومن الأحلاف التي اطلع عليها النبي ﷺ "حلف الفضول" في دار عبد الله بن جدعان. وهو اشرف حلف عند العرب . فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة

(1) سمي الحلف بـ" المطيبين " لان المتحالفين غمسوا ايديهم في جفنة مملوءة بالطيب وضعت في الكعبة فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا عن انفسهم فسموا بالمتطيبين. وسموا "الأحلاف" لأنهم تعاهدوا وتحالفوا عند الكعبة حلفا مؤكدا على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف. يراجع: سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص 144.

مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته[1].

وهذا الحلف فريد من نوعه في تاريخ البشرية ولم يعقد حلف مثله حتى يومنا هذا. فهو ليس حلفا ضد عدو للمتحالفين، ولا موجهاً ضد طرف معين يخشون منه أو عدوا معروفا بذاته، بل هو حلف إنساني ضد الظالم وان كان من بين المتحالفين أنفسهم. ومكان تطبيقه مكة فقط. فإذا ظلم احد مواطنيها أو أجنبي دخل مكة وظلم من قبل سكان مكة أو من قبل أجنبي آخر فان على كل مواطن في مكة أن يهب لمساعدة المظلوم ويأخذ حقه من الظالم .

ويعد حلف الفضول بالمعنى المتقدم حلفا إنسانيا يتضمن قيما أخلاقية أصيلة، أساسه العدل والانتصار للمظلوم ضد الظالم. وهو دليل على المستوى الرفيع الذي كان عليه مجتمع مكة. وإن المجتمع الدولي المعاصر برغم ما توصل إليه من تنظيم وتطور إلا انه غير قادر على أن يعقد حلفا مشابها لحلف الفضول.

وكان النبي ﷺ قد حضر انعقاد الحلف وقال عنه: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما احب أن لي به حُمُرَ النعم " أي لا احب نقضه وإن دفع لي حمر النعم مقابل ذلك " ولو أدعَى به في الإسلام لأجبتُ "[2].

ويظهر من التمعن في حلف الفضول انه أشبه بالإعلان الدولي لحقوق الإنسان لعام 1948، عندما التزمت الدول برفع الظلم عن الأشخاص بغض النظر عن الجنسية والدين والقومية. ففي حلف الفضول اتفقت القبائل في مكة على منع وتحريم الاعتداء الذي يصدر منهم أو من غيرهم ضد أحد الأشخاص الذين يسكنون مكة أو احد

(1) وقد ذكرت اسباب عديدة لهذا الحلف منها: ان رجلا من زبيد من اهل اليمن ابتاع سلعة من العاص بن وائل السهمي فظلمه بالثمن، فذكر ظلامته في شعر له. فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو اسد بن عبد العزى في دار بن جدعان التيمي، وتعاقدوا بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه. وقد سمي بالفضول: إما لأنهم تحالفوا على ان يردوا الفضول الى اهلها، وإما لأنه يشبه حلفا وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له "الفضل".
تراجع: سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص 144.

(2) سيرة ابن هشام ج1، مرجع سابق، ص 145.

الأجانب ورفع الظلم عنه وردع المعتدي. غير أن الفارق بين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وحلف الفضول، هو أن الإعلان يتضمن التزاماً من الدولة بعدم القيام بعمل من قبلها يتضمن انتهاكا لحقوق الإنسان، وليس لها حق ردع الدول الأخرى التي تنتهك حقوق الإنسان. بينما يتضمن حلف الفضول التزاما من القبيلة بعدم انتهاك حقوق الإنسان، وردع القبيلة الأخرى التي تنتهك هذه الحقوق.

وقد عقد النبي ﷺ العديد من الأحلاف والمعاهدات بينه وبين القبائل واليهود في المدينة والقبائل الضاربة حول المدينة. منها معاهدات تتضمن عدم الاعتداء وتحالف وصلح. وغالبا ما انتهت غزواته بعقد معاهدة بينه وبين القبيلة التي توجه لغزوها. ومن ذلك معاهدته مع بني ضمرة في غزوة ودان، ومعاهدته مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة في غزوة العشيرة، وغيرها من الغزوات[1] .

ومن ابرز المعاهدات التي عقدها النبي ﷺ صلح الحديبية الذي عقد بينه وبين قريش. حيث أبدى مرونة عالية في المفاوضات مع ممثل قريش[2].

إن المعاهدات التي عقدها النبي ﷺ مع القبائل الاخرى تدل بوضوح على قدرته الدبلوماسية واطلاعه على قواعد القانون الدبلوماسي بصفته رئيس دولة مختص بعقد المعاهدات.

3- خبرة الدبلوماسي بالتجارة

يتركز العمل الدبلوماسي في الوقت الحاضر على التجارة. ذلك إنها تعد مفتاح العلاقات الدولية. فكلما كانت العلاقات التجارية بين دولتين واسعة كلما اتسمت علاقتهما الدبلوماسية. كما أن من واجبات البعثات الدبلوماسية في الوقت الحاضر مراقبة التطورات التجارية في الدول المعتمد لديها.

(1) يراجع السيرة النبوية لابن هشام القسم الأول، مرجع سابق، ص 598 وما بعدها .

(2) سنعود لبحث الموضوع بشيء من التفصيل .

وبناء على ذلك، فإن الأعمال التجارية تأخذ مساحة واسعة من أعمال البعثات الدبلوماسية. وتوجد في كل بعثة دبلوماسية "ملحقية تجارية" تتولى تنظيم الأعمال التجارية تدار من قبل متخصصين في هذه الأعمال. وهذا أمر يتطلب من رئيس البعثة التجارية ان تكون له الدراية الكاملة في الأمور التجارية.

وقد اكتسب النبي ﷺ خبرته التجارية من مصدرين الأول سفراته التجارية للشام واليمن. فقد سبق القول ان النبي ﷺ عندما بلغ عمره 12 سنة سافر مع عمه ابي طالب إلى الشام لغرض التجارة. وقد عمل بعد ذلك شريكا للسائب بن السائب صيفي. وقيل أن الشراكة كانت مع قيس بن السائب. ونقل عن قيس انه قال: كان النبي ﷺ في الجاهلية شريكي، فكان خير شريك، فهو لا يشاريني ولا يماريني، ووجه الدلالة أنه سمع قول شريكه واقره عليه. وكان النبي ﷺ يبيع ويشتري[1].

ولما بلغ عمره خمسا وعشرين سنة طلبت منه خديجة أن يعمل في تجارتها. فقد كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم عليه بشيء تجعله لهم.

فلما بلغ خديجة عن النبي ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه لتعرض عليه ان يخرج تاجراً في مال لها إلى الشام وتعطيه افضل مما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله النبي ﷺ منها وخرج في مالها وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام. ثم باع النبي ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد ان يشتري، ثم قفل راجعاً إلى مكة ومعه ميسرة. ثم تكرر سفره إلى الشام واليمن لمرات متعددة من اجل التجارة لصالح خديجة[2].

وقد وفرت ممارسة النبي ﷺ للتجارة في الشام واليمن فرصة معرفة القواعد التجارية وأصولها وطرقها وأنواعها، خاصة وان تجارة الشام تختلف عن تجارة اليمن.

(1) السيرة الحلبية ج1، مرجع سابق، ص 137. والسيرة النبوية لابن هشام ج2. مرجع سابق، ص 188.
(2) السيرة النبوية لابن هشام ج1، مرجع سابق، ص 188.

أما المصدر الثاني الذي اكتسب منه النبي ﷺ خبرته في أمور التجارة فهو أحكام التجارة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية .

فقد جاء الإسلام بقواعد تجارية قائمة على الأخلاق والإنسانية ومنع الاستغلال، لا يمكن ان تضاهيها أية قواعد قانونية وضعية في الدول أو في القانون الدولي. ومن هذه القواعد تحريم الربا والإشهاد على الأعمال التجارية وكتابة الدين والمرونة في العمل التجاري وتحريم اخذ الأموال بالباطل والرضا في الأعمال التجارية[1].

وقد ورد عن النبي ﷺ انه قال: " أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا وإذا اشتروا لم يذموا وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم دين لم يماطلوا وإذا كان لهم لم يعسروا"[2].

ويتضح من الحديث الشريف، ان العمل التجاري عمل مشروع ومرغوب، إذا كان التاجر صادقاً في تجارته. ملتزماً بوعوده ويرد الأمانات إلى أهلها، ولم يغش بضاعته من اجل الترويج لها. وإذا استدان من الغير عليه ان يؤدي الدين. وإذا كان له دين على الغير عليه ان يتساهل.

تلك القواعد الإنسانية للتجارة والتجارة تمثل قيما انسانية راقية تحمي الأطراف جميعا .

---

(1) وقد وردت في ذلك العديد من الآيات منها قوله تعالى:﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ سورة البقرة الآية 275. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ سورة البقرة الآية 282. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ سورة البقرة الآية 281. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ سورة النساء الآية 29.

(2) صفوة البيان لمعاني القرآن. للشيخ محمد مخلوف ط3، الكويت 1978، ص 114.

المبحث الثالث

مظهر الشخصية الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ

لمظهر الدبلوماسي الدور الكبير في نجاح مهمته. فكلما كان الدبلوماسي وسيما في شكله أنيقا في مظهره جميلا في اسمه، جذب النفوس إليه قبل الدخول إلى مكامن نفسه. فالمظهر الخارجي للدبلوماسي له التأثير الكبير في مهمته. خاصة وانه يجالس الملوك والمسؤولين في الدول الأجنبية.

ومن هذا المنطلق فان المظهر الخارجي للدبلوماسي ضروري من جهتين: الأولى انه يمثل انعكاساً حضاريا للبلد الذي يمثله وطبيعة معيشته. والثانية انه يدل على مدى الاحترام الذي يحمله المرسل للمرسل إليه لأنه اختار شخصا يليق به.

والمظهر الخارجي يبدأ باسم الدبلوماسي وحسن صورته وحسن مظهره. ومن الثابت ان النبي ﷺ كان جميل الاسم وحسن الصورة وأنيق المظهر.

وبناء على ذلك سنتناول مظهر الشخصية الدبلوماسية التي يتمتع بها الدبلوماسي في الفقرات الآتية:

أولاً : الاسم واللقب الحسن

أوجب العرف الدبلوماسي في الوقت الحاضر ان يكون للدبلوماسي اسم ولقب حسن. ذلك لأنه ينادى ويعرف به. ويساهم الاسم الحسن في تحبيب الناس بالمسمى. وغالبا ما يساهم الاسم الحسن في شهرة ومعرفة صاحبه في المجتمع الذي يعيش فيه. وقد يتودد الناس لشخص وان لم يروه بمجرد سماعهم باسمه. وغالبا ما يؤخذ المسمى من اسمه قبل معرفة جوهره. فالكتاب يعرف من اسمه قبل قراءة نصوصه. وفي الغالب تعرف قومية الشخص ودينه ومذهبه وتحضره من اسمه. وقد ينطبق الاسم على المسمى.

أما الاسم غير الحسن، فانه غالبا ما يثير النفور والاشمئزاز من الشخص ويبعث على عدم الراحة منه. ولا يتودد الناس إليه إلا بعد مدة عندما يطلعون على الجوهر.

ولهذا فان الاسم الحسن للدبلوماسي له تأثير كبير في شخصيته في الوقت الحاضر.

وفضلا عن الاسم الحسن للمبعوث الدبلوماسي، فان العرف الدبلوماسي أضاف ألقابا محببة للدبلوماسي بحسب موقعه السياسي في الدولة. فيلقب رئيس الدولة بصاحب الجلالة إذا كان ملكا، وبصاحب الفخامة أو السيادة إذا كان رئيس الجمهورية. ويلقب رئيس الوزراء بالفخامة أو بالمعالي ويلقب الوزراء بأصحاب المعالي، ويلقب أفراد العائلة المالكة بالأمراء.

ويلقب السفير والقائم بالأعمال بسعادة السفير او القائم بالأعمال. ويلقب دون ذلك بدرجته الدبلوماسية فيقال المستشار والوزير المفوض والسكرتير والملحق. وغالبا ما يلقب الدبلوماسي بلقبه الدبلوماسي دون اسمه فيقال سعادة السفير مثلا.

ومن طبائع العرب قبل الإسلام ان يسموا أولادهم بأسماء تضفي عليهم القوة والمنعة والرهبة، وتثير خوف أعدائهم. مثل عكرمة ولهب واسد ويسمون عبيدهم بأسماء جميلة محببة لهم مثل نبيل وحسان.

ويلقب العرب رئيس الدولة بالملك ورئيس القبيلة بشيخ القبيلة ووجهاء القبيلة ورؤساء العشائر بالأمراء. وقد سبق الكلام عن ذلك.

وبصورة عامة فقد منع الإسلام التخاطب بالألقاب والأسماء التي تمس شخص المخاطب ،فقد جاء في سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾. وقيل في معني الآية: لا تفعلوا ما تلمزوا به لان من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه. والتنابز بالألقاب: التداعي بها. ويقال النبز والنزب لقب السوء. والتلقيب المنهي عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه احتقاراً وذما له. فأما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به. وروي عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : " من حق المؤمن على أخيه ان يسميه بأحب أسمائه إليه ". ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: " أشيعوا الكنى فإنها منبه ". ولقد لقب ابو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق وحمزة بأسد الله وخالد بسيف الله. وقلّ من مشاهير الجاهلية والإسلام من ليس له لقب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من دون استنكار. وروي عن الضحاك ان قوما من بني تميم استهزموا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبي ذر وسالم مولى حذيفة فنزلت الآية المذكورة. وعن عكرمة عن ابن عباس ان صفية بنت حيي أتت رسول الله ﷺ فقالت: ان النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين. فقال لها النبي ﷺ هلا قلت ان ابي هارون وعمي موسى وان زوجي محمد. أما الاسم فهو الاسم الحسن. ويقال طار اسمه بين الناس بالكرم أو باللؤم[1].

وقبل نزول الرسالة لقب النبي ﷺ بأسماء مشتقة من صفاته قامت به توجب له المدح والكمال، فله من كل وصف اسم. فلما ولد سماه جده عبد المطلب بمحمد. فقيل له يا أبا الحرث ما حملك على ان تسميه محمدا ولم تسمّه بأسماء آبائه. قال أردت ان يحمده الله في السماء وتحمده الناس في الارض. وقد حقق الله رجاءه. فقد تكاملت في محمد ﷺ الخصال المحمودة والخلال المحبوبة. فتكاملت له المحبة من الخالق والخليقة فظهر اسمه على الحقيقة[2]. وقد لقب قبل الرسالة بـ" الصادق الأمين ". لصدقه وأمانته بين قومه.

وقد استمر اسم محمد إلى ما بعد النبوة حتى الوقت الحاضر. وهذا ما يدل على تطابق الاسم والمسمى. حيث ان العرب كانت تطلق الأوصاف والأسماء على الأشخاص طبقا لما يتصفون به. وكان النبي ﷺ قد احتفظ بهذا الاسم طوال حياته فلم يتغير إلا تبعا لصفاته الحميدة الأخرى.

---

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل لأبي القاسم جار الله بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج3 دار افتاب ،ص566.

(2) السيرة الحلبية ج1 ، مرجع سابق، ص 79.

وحرم على المسلمين نداءه باسمه لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾[1]. وكره الشافعي ان يقال في حق النبي ﷺ الرسول، بل رسول الله، لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة[2].

ومع كثرة الأسماء والألقاب فان اللقب الأكثر استعمالا وورودا في العديد من الآيات القرآنية، هو لقب الرسول ورسول الله.

وإذا حمل النبي ﷺ اجمل الأسماء والألقاب الحسنة، فانه كان يحب ذلك لا لنفسه فحسب وإنما لغيره أيضا. فقد كان يحب الأسماء الحسنة للصحابة وللمسلمين عموما. وكان يحب التعامل مع الأسماء والألقاب الحسنة. فقد روي انه قال لبعض الصحابة: " ادع أنسانا يحلب ناقتي فجاءه بشخص فقال له ما اسمك فقال حرب، فقال ﷺ اذهب، فجاءه باخر فقال ما اسمك فقال يعيش، فقال احلبها. وروي عنه، انه طلب شخصا ان يحفر له بئرا فجاءه رجل فقال له ما اسمك قال مرة فقال له اذهب[3].

وقد غير النبي ﷺ أسماء بعض الصحابة. وكان أول اسم ولقب غيرهما هو أبو بكر الصديق. وكان اسمه قبل ذلك عبد الكعبة ولقبه بالعتيق لحسن وجهه. ولعله كني بابي بكر لابتكاره الخصال الحميدة[4].

ونظرا لحب النبي ﷺ للأسماء الحسنة فقد روي عنه انه قال: " لاتسم غلامك رباحا ولا يسارا ولا افلح ولا نافعا[5] وعن سمرة بن جندب قال: نهانا النبي ﷺ ان نسمي رقيقنا بأربعة أسماء افلح ورباح ويسار ونافع. وعن ابن عمر: ان رسول الله ﷺ غير اسم عاصية وقال أنت جميلة، وعن ابن عباس قال: كانت جورية اسمها برّة فحول النبي ﷺ

---

(1) سورة النور الآية 63.

(2) الخصائص النبوية ، مرجع سابق، ص 59.

(3) السيرة الحلبية ، مرجع سابق، ص 79.

(4) المرجع السابق، ص 274.

(5) صحيح مسلم ، مرجع سابق، ص 1685.

اسمها إلى جورية. وعن زينب بنت أم سلمة قالت كان اسمي برّة فسماني النبي ﷺ زينب[1].

وقد امر النبي ﷺ ان يكون الدبلوماسي جميل الاسم. فقد روي عنه انه قال: " إذا أبردتُم إليَّ بريدا فابعثوه حسنَ الوجه حسنَ الاسمِ ". وإذا ابردتم إلي بريدا، أي أرسلتم إلى رسولا، وقيل البريد الرسول المستعجل.اما قوله: " وابعثوه حسن الوجه " أي جميله. وقيل أنَّ للحسن معنى روحانياً تتجذب إليه القلوب بالذات، حاصل من تناسب الأعضاء. وحسن الاسم للتفاؤل بحسن صورته واسمه. وأهل اليقظة والانتباه يرون ان الأشياء بأسرها من الله. فإذا ورد حسن الوجه حسن الاسم تفاءلوا به. وكان النبي ﷺ يشتد عليه الاسم القبيح ويكرهه سواء أكان لمكان أو قبيلة او جبل أو شخص. ومن تأمل معنى السنة وجد الأسماء مرتبطة بمسمياتها حتى كأن معانيها مأخوذة منها، وكأن الأسماء مشتقة منها. وقيل الا ترى إلى خبر اسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها، وعصية عصت الله. ومما يدل على تأثير الأسماء في مسمياتها، ما جاء في البخاري عن ابن المسيب عن أبيه عن جده، قال أتيت النبي ﷺ فقال: " ما اسمك " قلت حزن، قال: " أنت سهل " قلت لا أغير اسما سمانيه أبي. قال ابن المسيب فما زالت تلك الحزونة فينا بعد، والحزونة الغلظة. قال أبو جني مر بيَّ دهر وأنا أسمى الاسم لا ادري معناه إلا من لفظه ثم اكشفه، فإذا هو كذلك[2].

ولما كان النبي ﷺ رسول الله تعالى فقد اختار الله له احسن الأسماء وأجملها وأخفها على اللسان والقلب. وهي أسماء تدل أوصافها على الرسول ﷺ. وان اكثر هذه الألقاب والأسماء واحبها إليه هي رسول الله لما لهذه التسمية من مكانة عظيمة عند الله وعند الناس. والسبب في ذلك هو ان كلمة الرسول تعني انه صاحب رسالة، أي انه يحمل رسالة من الله إلى المرسل اليهم لإصلاح حالهم في الدنيا والآخرة. فهي منفعة لهم وموجهة للناس كافة. فليس من المنطق ان يتعرض المرسل إليهم لحامل الرسالة، لان ما

---

(1) صحيح مسلم، مرجع سابق، ص 1687.

(2) فيض القدير، شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج1 ، مرجع سابق، ص 235.

يقوله هو من الله تعالى، لا دخل للرسول فيه. فالرسول واسطة خير هدفه إصلاح أمور الناس وتسوية منازعاتهم. وعلى الجميع ان يمنحوه الاحترام والتقدير.

فإذا كان الرسول بين الناس يلقى الاحترام والتقدير. فكيف يكون موقع الرسول عندما يكون واسطة بين الله والبشر بصورة عامة ؟. فانه بالتأكيد يلقى الاحترام والتقدير وحسن المعاملة تقديرا لمرسله. ولهذا فقد قرن اسم النبي ﷺ بالله تعالى وأطلق عليه رسول الله.

وإذا كان الإسلام لم يغير أسماء العرب التي كانت سائدة في الجاهلية عند دخولهم الإسلام بصورة عامة. إلا النبي ﷺ قد غير الأسماء غير الحسنة وابدلها بأسماء حسنة تتطبق وصفات الأشخاص الذين أطلقت عليهم. كما انه أوجب على المسلمين عند اختيارهم للرسول ان يختاروه حسن الاسم. وهذه القاعدة عامة تتطبق على أي رسول يرسل إلى الغير، فلابد من ان يكون اسمه حسنا جميلا.

أما الأسماء الحسنة التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام فان النبي ﷺ لم يغيرها، وإنما بقيت على ما كانت عليه قبل الأسلام.

ثانيا : حسن الصورة

يقصد بحسن الصورة ان يكون الشخص جميلا رشيقا وأن تكون أعضاؤه متكاملة ومتناسبه مع بعضها وأن يكون غير مصاب بعاهة أو تشويه في أي عضو من أعضاء جسمه.

وتعمل الدول على ان تختار دبلوماسييها ممن يتمتعون بحسن الصورة والمنظر الجميل الذي يسر الناظر إليه. فلا تختار قبيح الوجه أو المصاب بعاهة في عضو من أعضاء جسمه، وأن يكون متمتعاً بقابلية ذهنية جيدة، ذلك ان الدبلوماسي معد لمقابلة الملوك والأمراء والوزراء وكبار المسؤولين في الدول الأجنبية، فلابد ان تكون صورته مما تبعث في النفس المسرة وتغرس فيها روح المحبة.

وقد خلق الله الإنسان في احسن صورة لقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وصوّركم فاحسَنَ صُوَرَكم واليه المَصيرُ﴾[2]. وقيل في ذلك بان الله تعالى لم يخلق شيئاً احسن صورة من الإنسان. وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهائم[3]. فكم من دميم مشوه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون، ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلا انحطاط بعض الصور من مراتب ما فوقها انحطاط بينا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح. والا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حده. وقيل انك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا، ثم ترى املح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها. وقال الحكماء شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان[4].

وعن سلامة أعضاء الإنسان قوله تعالى: "الذي خَلَقكَ فسوّاك فَعدّلكَ. في أي صورةٍ مّا شاءَ رَكّبكَ"[5]. فقد خلق الله الإنسان سويا سالم الأعضاء معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين اطول، ولا أحد العينين اوسع، ولا بعض الأعضاء ابيض وبعضها اسود ، وخلق الله الإنسان خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق أو فعدله إلى بعض الأشكال والهيئات. وركبه في أيِّ صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه. وان الله ركب الإنسان ما شاء من التراكيب الحسنة[6].

وإذا كان الله تعالى هو الذي خلق الإنسان وصوره بأجمل صورة تختلف عن الكائنات الأخرى، فانه تعالى لم يخلق البشر على صورة واحدة، بل هناك من الناس

(1) سورة غافر الآية 64.

(2) سورة التغابن الآية 3.

(3) الكشاف ج3، مرجع سابق، ص 435.

(4) الكشاف ج4 ، مرجع سابق، ص 114.

(5) سورة الانفطار الآية 8.

(6) الكشاف ج4 ، مرجع سابق، ص 288.

من أكرمه الله بصورة اجمل من غيره، غير ان اختلاف الناس في مراتب الصور لا يتبعه اختلاف محاسبتهم. لان الله لا ينظر إلى صورة الإنسان وإنما إلى عمله. فذميم الخلق وجميله في مرتبة واحدة أمام الله. ولا يجوز ايضا للبشر ان يحاسب بعضهم الآخر على أساس اختلاف مرتبة جمالهم.

ان اختلاف الصور لا يترتب عليه اختلاف التكاليف والأعباء الدينية. ولكن يترتب عليه اختلاف التكاليف والأعباء الدبلوماسية. حيث يراعى في اختيار الدبلوماسي درجة جماله سواء أكان الدبلوماسي نبيا أم شخصا عاديا، اختير لحمل رسالة. وهذا الاختيار لا يتعارض مع ما سبق قوله في خلق الله للإنسان. لان اختيار حسن الصورة لتنفيذ مهمة دبلوماسية مسالة لا تتعلق بالإيمان وإنما بتسهيل مهمة أو قضاء حاجة أو حل مشكلة.

والجمال نوعان: أحدهما امتداد القامة كالنبات إذ نجم، كلما كان أعلى كان اشرف في جنسه. وللاعتبار بذلك استغل في كل ما جاء في جنسه العالي والفائق، وكثر المدح بطول القامة. الثاني: ان يكون معقودا قوى العصب، طويل الأطراف ممتداً رحب الذراع غير مثقل بالشحم واللحم، ويقصد بها الهيئة التي لا تنبو الطباع من النظر إليها. وهو أول شئ على فضيلة النفس لان نورها إذا اشرف تأتي إلى البدن. وكل إنسان له حكمان، أحدهما من قبل جسمه، وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره. فكثيرا ما يتلازمان. فلذلك برع أهل الفراسة في معرفة أحوال الناس أولا بالنظر إلى الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء " قل صورة حسنة تتبعها نفس رديئة فنقش الخاتم مفروش الطين "[1].

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: " إذا بعثتم إلي بريدا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم ". لان الوجه القبيح مذموم والطباع عنه نافرة، وحاجات الجميل إلى الإجابة اقرب وجاهه في الصدور أوسع. وجميل الوجه يقدر على إنجاز الحاجة أكثر مما يمكن

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ، مرجع سابق، ص 235.

للقبيح. وكل معين على قضاء الحوائج في الدنيا معين على الآخرة. ولان الجميل أيضا يدل غالبا على فضيلة النفس، إذ أن نور النفس إذا تم إشراقه يأوى إلى البدن. فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان. ولذلك عول أهل الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن. وقالوا الوجه والعين مرآة الباطن. ولذلك يظهر فيه اثر الغضب والسرور والغم. ومن ثم قيل طرقة الوجه عنوان ما في النفس. وقد روي ان المأمون استعرض جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فوجده ألكن. فاسقط اسمه من الديوان. وقال الروح ان اشرق على الظاهر فصاحبه أو على الباطن ففصاحة. وإذا ليس له ظاهر ولا باطن. ولهذا قال تعالى: " وزاده بسطة في العلم والجسم ". وقبح الوجه قبح الباطن وبه يعرف. وهذا ليس من الطيرة في شيء . وأهل اليقظة والانتباه يرون ان الأشياء كلها من الله[1].

وأهمية الخلق الحسن تتجلى في غرس المحبة لدى الطرف الآخر. فقد قال النبي ﷺ: " إذا ابتغيتمُ المعروفَ فاطلبوه عند حسان الوجوه". وفي رواية اخرى " جمال الوجوه ". أي الحسنة وجوههم حسنا حسيا أو معنويا على مر الدهر[2].

ووصف الله تعالى النبي ﷺ بالخلق العظيم لقوله تعالى: " وإنكَ لعلى خلقٍ عظيم "[3].

وقد كان الأنبياء حسان الصورة. وعن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه انه قال: " ما بعث الله نبيا قط إلا صبيح الوجه كريم الحسب، حسن الصوت، وان نبيكم ﷺ كان صبيح الوجه كريم الحسب حسن الصوت" [4].

وقد وصف علي بن أبي طالب شخص النبي ﷺ: " بأنه لم يكن بالطويل الممغط (الممتد) ولا بالقصير المتردد. وكان ربعة من القوم " ليس بالطويل ولا بالقصيرولم يكن بالمطهم (العظيم الجسم). ولا المكلثم (المستدير الوجه في صغر). وكان ابيض مشربا أدعج العينين (الاسود العينين). أهدب الاشفار، طويل اهدابها، جليل المشاش،

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ، مرجع سابق، ص 311.

(2) المرجع السابق، ص 236.

(3) سورة القلم الآية 4.

(4) الخصائص الكبرى، ج 1، مرجع سابق، ص 180.

(عظيم رؤوس المفاصل) والكتد (ما بين الكفين) دقيق المسربة (الشعر الممتد من الصدر إلى السرة)، اجرد (القليل الشعر)، شثن الكتفين (الغليظ الكتفين) والقدمين. إذا مشى تقلع (لم يثبت قدميه)، كانما يمشي في صبب (ما انحدر من الأرض). وإذا التفت التفت معا بين كتفيه خاتم النبوة، وهو أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا[1].

وقد وصف النبي ﷺ، بأنه احسن الناس وجها وخلقا. أزهر اللون ليس بالأدم ولا بالأبيض، أي انه ليس شديد السمرة ولا شديد البياض[2].

وكان لجمال النبي ﷺ التأثير النفسي في الناس، ذلك ان حسن الصورة يغرس في نفوسهم المحبة والمودة والجذب. وقد قال النبي ﷺ في وصف المسلم بصورة عامة:" ان الله لا ينظر إلى صوركم واموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم واعمالكم "، ذلك ان نية المؤمن وأعماله هي التي توزن بالميزان. أما حسن أو قبح صورته فلا تأثير لها على ذلك. وهذا النص يعد جزءا من الأيمان، فلا يشترط في المسلم ان يكون حسن الصورة. ولكن يشترط في المبعوث الدبلوماسي ان يكون حسن الصورة. لان مهمته تتطلب ان يكون كذلك. فلا يجوز ان يختار لهذه المهمة ذميم الخلقة، وان كان اكثر إيمانا من غيره. لان حسن الصورة يستطيع ان يؤثر في الغير اكثر من ذميم الخلقة .

وإذا كان حسن الصورة وقبحها من خلق الله تعالى ولا إرادة للشخص فيها، فان هذه الحالة ليست جزءا من الحالة الإيمانية. فلا ينظر إلى حسن أو قبح المسلم لكي يكون مؤمنا بل ينظر إلى قلبه وأعماله بغض النظر عن صورته. أما فيما يتعلق بالمبعوث الدبلوماسي، فينظر إلى صورته اكثر مما ينظر إلى قلبه وأعماله. فإذا أراد المرسل ان يختار رسولا إلى الغير فانه يبحث عن شخص يؤثر في المرسل إليه ويقنعه، وان كان المرسل له رأي آخر في الرسول، لان المهم هو التأثير في المرسل إليه. فإذا كان الله ينظر

(1) عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ج3 دار سعد، القاهرة 1955ص55. كذلك يراجع: ابن الاثير، ج11 ص116.

(2) الخصائص الكبرى، ج1، ، مرجع سابق، ص 179.

إلى قلب المسلم وعمله في تقويم ايمانه، بوصفهما جزءا من الحالة الإيمانية، فان تقويم الرسول يكون بحسن الصورة والمنظر هو أيضا جزء من الحالة الإيمانية.

وإذا كان الحسن والقبح من إرادة الله تعالى ولا دخل لإرادة الإنسان فيها، فان الله خلق البشر بالصورة التي ارتضاها، وليس لهم ان يغيروها بالصورة التي تؤدي إلى قبح الصورة. ولهذا فقد حث الإسلام على الجسم الرشيق. وقال النبي ﷺ: " صلح كل داء البَرَدَةُ "، أي تناول الطعام بشراهة. والبردة إدخال الطعام على الطعام. وقيل لو سئل أصحاب القبور ما سبب قصر أجيالكم لقالوا التخمة[1]. وقد جعل النبي ﷺ صلة الحب بين الله والإنسان هو قلة الطعام وخفة الوزن. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال:" احبكم إلى الله اقلكم طعاما وأخفكم بدنا "[2].

وبناء على ذلك فان على المسلم حسن الصورة وقبحها ان يحافظ على رشاقة جسمه بان لا يكثر من الطعام لكي لا يزداد بدنه ، وهذه الحالة مطلوبة من جميع المسلمين وهي حالة إيمانية، وان كانت تتعلق بالصورة، وهي مطلوبة من الرسول ومن غيره. وقد اتصف النبي ﷺ برشاقة الجسم.

ثالثا: حسن المظهر

يقصد بحسن المظهر ان يجتمع في الشخص نظافة الجسم والملبس، والتناسق في ألوان ملابسه ونوعيتها وملاءمتها لأذواق الناس وعاداتهم. بحيث يتميز الدبلوماسي بأناقته الفائقة، ويكون جذابا محبوبا ترصده العيون وتميل إليه القلوب وتشتاق إليه النفوس وتهوى الناس معاشرته.

وحسن المظهر لا يتعلق بالخالق، وإنما باختيارات المخلوق. وهي حالة يكتسبها الشخص بالملاحظة والاطلاع، ومدى الاعتناء بنفسه. وبالنسبة لحسن مظهر الدبلوماسي، فان عليه ان يعرف طبائع وعادات المرسل إليهم واذواقهم، وان يكون

(1) فيض القدير، مرجع سابق، ص 532.

(2) المرجع السابق، ص 175.

فنانا في أناقته وترتيب شكله واختيار ملابسه وتنسيقها، ويبتعد عن ما هو نشاز يقزز الأنفس.

ومن أسباب نجاح النبي ﷺ في أداء رسالته واحترامه من قبل الآخرين، انه كان جميل الشكل والمظهر. وصار تعلق الناس به إجلالا ورهبة يمازجها التقدير والحب[1]. لكونه احسن الناس وجها وأحسنهم خلقا. شديد العناية بنفسه وشخصه، محبا للجمال والتجمل مشفوعا بالنظافة وحسن المظهر ولم يكف يوما عن اخذ زينته ورعاية هندامه، سواء في بيته ام في الحياة العامة. وكان يتحدث بذلك وينصح به. فهو يحب مظاهر التنعم والرفاهية. ولم يتبع الزهد في مظهره الخارجي. بل كان محبا للظهور بمظهر الفخامة والعزة والجمال والشباب والقوة والحسن ليبدو مهيبا في أعين الرجال ومحبوبا في أعين الناس. ويرى ان من واجب الإنسان ان يحترم شخصه ويبذل جهده في العناية بذاته. وكانت تلك العناية غير مقصورة على الروح، بل كانت تتناول البدن من شعر الرأس إلى أخمص القدم. فكان يصبغ شعره بالحناء، كما كان يحسن تصفيفه. وكانت طبيعة شعره تسهل عليه ذلك، لأنه كان رجل شعر ان انفرقت عقيصته فرق. وكان هذا الشعر لا يتجاوز شحمة اذنية إذ هو وفرة ، ولكنه كان يتقي الفرق في وسط الرأس، لأنها علادة وثنية. ويحب التطيب بالعطر ليجمع بين إعجاب النظر والشم لدى من يراه أو يدنو منه[2]. ولم يتقيد في ثيابه بنوع خاص، فكان يختار من اللباس ما يتوسع فلا يضيق بالاقتصار على صنف بعينه[3]. فقد لبس الجبة والطيلسان والقباء كما لبس المخطط اليمني والمزكش الشامي وتلفع بالصوف والتحف بالكتان. واستعمل اللثام وغطي رأسه بالعمامة وغيرها. وكانت عمامته على الوان ليعلن للملأ من أمته انه لا يقصد هيأة خاصة[4].

وقد أوجب الله تعالى على البشر ان يتزينوا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ

(1) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 351.

(2) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 213.

(3) يوسف بن إسماعيل النبهاني ، مصدر سابق، ص 250.

(4) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 214.

نُفصل الآيات لقومٍ يعلمون﴾[1]. وفي تفسير هذه الآية قيل انه لا يجوز تحريم الثياب وسائر ما يتجمل به الإنسان التي اخرجها الله لعباده من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع. وفي هذه الآية دليل على ان الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمل الأباحة[2].

والتزين والتجمل واجب على المسلم في كل وقت. فقد أوجب الله تعالى التزين والتجمل عند كل مسجد لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3]. ولما كانت أوقات الصلاة خمس مرات موزعة على اليوم فان ذلك يعني ان التزين والتجمل يستمر من الفجر إلى الليل، وفي جميع الأيام.

وقال النبي ﷺ: " كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة"[4].

وقد روي ان النبي ﷺ لبس الرداء والقميص وجبة الصوف في الغزو. ولبس القباء وفرُّوج حرير والبَرانس والسراويل والعمائم والعصابة والبرُود والحيَرة والشَّملة والأكسية والخمائص[5].

وعند ممارسة النبي ﷺ عمله الدبلوماسي كان يلبس احسن ثيابه، ويأمر أصحابه بذلك. فقد روي عنه عندما وفد عليه وفد كنده أنه كانت عليه حلة يمانية وعلى أبي بكر وعمر مثلها[6].

ومن الواضح ان الملابس ذات اللون الأبيض دليل نظافة الشخص. كما ان العرب استعملوا الكحل لإبراز جمال العيون وتقوية البصر ، ولهذا فقد أمر النبي ﷺ بلبس الملابس البيضاء والتكحل بالكحل. فقد روي عنه انه قال: " البسوا من ثيابكم

---

(1) سورة الأعراف الآية 32.

(2) انوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، مرجع سابق، ص 8.

(3) سورة الأعراف الآية 31.

(4) صحيح بخاري ج7، دار الفكر، بيروت 1981، ص 34.

(5) تراجع الأحاديث الشريفة في كتاب اللباس الأبواب الخاصة باللباس. صحيح البخاري ج 7 ص33 وما بعدها.

(6) العلامة الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 452.

البياض فانها خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وان خير أكحالكم الاثمد يجلو البصر وينبت الشعر"[1].

ان حسن منظر الشخص وأناقته تتطلب ان يتصرف بما يدل على جوهره. ولهذا فقد أمر النبي ﷺ ان يكون المسلم وقورا مهيبا قاصدا ما يقوله ويعمله. فقد روي عنه انه قال: " ان الهَدي الصالح والسَّمتَ الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة "[2].

والهدي الصالح هو الطريقة الصالحة. والسمت الصالح هو حسن الهيئة والمنظر. أما الاقتصاد فهو سلوك القصد في الأمور القولية والفعلية والدخول فيها برفق على سبيل يمكن الدوام عليه[3]. وبذلك فقد ربط النبي ﷺ بين منظر الإنسان وجوهره. وهذا الربط يعد ايضا من متطلبات النبوة. وان المسلم مكلف بها بوصف النبي ﷺ أسوة حسنة يقتدي بها المسلم.

وإذا أوجب الإسلام ان يهتم المسلم بحسن المنظر والمظهر، إلا ان ذلك لا يعني ان يفقد الرجل رجولته أو ان تفقد المرأة أنوثتها. فقد روي عن ابن عباس انه قال لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من الناس بالرجال[4]. ويجب أن يكون مظهر الرجل مما يزيد رجولته والمرأة مما يحافظ على أنوثتها.

---

(1) سنن ابي داود ج4 ، مرجع سابق، ص 9.

(2) المرجع السابق، ص 393.

(3) حاشية عون المعبود على سنن ابي داود ج4، ، مرجع سابق، ص 399.

(4) صحيح بخاري ج7، ، مرجع سابق، ص 55.

المبحث الرابع

جوهر الشخصية الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ

إذا كان العرف الدبلوماسي المعاصر قد اوجب ان يكون الدبلوماسي حسن المنظر والمظهر، فان ذلك لا يعني ان يكون على حساب جوهر شخصيته الدبلوماسية. ذلك ان حسن المنظر والمظهر ما هو المفتاح للوصول إلى جوهر الشخصية الدبلوماسية، التي تعد الأساس في تنفيذ المهمة الدبلوماسية. فالدبلوماسي الناجح هو الذي يستطيع ان ينفذ إلى قلوب المرسل إليهم ويرسل الرسالة المكلف بحملها إليهم وإقناعهم بمحتواها.

ومن الأمور المؤثرة في جوهر الشخصية الدبلوماسية، فصاحة اللسان، والإلمام بلغة القوم المرسل اليهم، وعراقة النسب، والأخلاق العالية، التي تمكنه من التأثير في قلوب الناس بيسر وسهولة.

وقد كان النبي ﷺ افصح الناس لغة، وأعرفهم نسبا وأعلاهم أخلاقا. وبناء على ذلك فقد تضمن هذا المبحث المطالب الآتية:

لولا : فصاحة الدبلوماسي اللغوية

من المسلمات التي يجب ان تتوافر بالمبعوث الدبلوماسي، ان يكون فصيح اللسان، تمكنه فصاحة لسانه من التعبير عن أفكار مرسله بصورة واضحة، وان يوصل المطلوب للمرسل إليه بيسر وسهولة. وان يستخدم الألفاظ والمعاني المناسبة بحسب فهم وإدراك المرسل إليه. ويستخدم الكلمات الفصيحة الجميلة التي تجذب السامع إليه وتجعله يستمتع باقواله.

فسلاح الدبلوماسي لسانه الفصيح ، فكلما ملك اللسان ملك زمام الموقف واستطاع التعبير عن مرسله وكسب المعركة لصالحه. ولهذا فان الدول تهتم بتثقيف دبلوماسييها لغويا. وقد تختار لهذه المهمة من يجيدون أدب اللغة ويعرفون فنونها. خاصة

إذا تعدد المرسل إليهم واختلفت ثقافتهم ومشاربهم ونزعاتهم. فالدبلوماسي الناجح هو الذي يستطيع الولوج والنفاذ إليهم كل بحسب مقامه ومقدرته. فيتكلم ويحاور قلوب الناس على قدر اتساع هذه القلوب واستجابتها وقدرتها على الاستيعاب والفهم، بحيث لا يشذ عنه شاذ. فلا يتكلم مالا يفهم، ولا يفصل ما يجب ان يوصل. وان يؤدي المهمة على الوجه الأكمل بدون إسفاف أو اختزال.

وقد كان النبي ﷺ افصح أهل الأرض. وكان عذب الكلام سريع الإداء، حلو المنطق، يأخذ حديثه بالقلوب، ينطق بكلام مفصل مبين، يستطيع السامع ان يعيد كلماته، لأنه ليس مسرعا ولا متقطعا تتخلله فترات السكوت. وقالت عائشة رضي الله عنها:" ما كان رسول الله يسرد سردكم هذا. ولكن يتكلم بكلام مبين يبينه ويفصله فيحفظه من يسمعه "[1]. وكان يعيد الكلام ثلاثا[2].

ويتضح ان النبي ﷺ وضع ضوابط لكلام الدبلوماسي تتجسم فيما يأتي:

1. سرعة أداء الكلام، ولا يقصد بالسرعة في تواتر الكلمات، وإنما سرعة الإجابة والبديهة.
2. التفصيل المبين. فلا يخلط الكلمات مع بعضها. وإنما يفصلها عن بعضها البعض .
3. الكلام بهدوء بحيث يستطيع السامع ان يعيده.
4. غير متقطع الكلمات.
5. تتخلل الكلام فترات سكوت. وهي فترات التأمل للمتكلم وللمستمع.
6. إعادة الكلمات المهمة ثلاثاً لكي يحفظها المستمع.

---

(1) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 219.

(2) يوسف بن اسماعيل النبهاني ، مصدر سابق، ص 201.

وقد كان النبي ﷺ فصيح اللغة. وكان يعتد بذلك، فقد روي عنه انه قال: " أنا افصح العرب ". وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا. قال: " كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظنيها ". وعن علي كرم الله وجهه انه قال: قلنا يا نبي الله نحن بنو أب واحد ونشأنا في بلد واحد، وانك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره. فقال: " إن الله عز وجل أدبني فاحسن تأديبي. نشأت في بني سعد بن بكر ". وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت افصح منك، قال: "أدبني ربي ونشأت في بني سعد "[1].

ويتضح من ذلك ان الصحابة وهم من أبناء القبائل ولهم الاطلاع على تفاصيل اللغة العربية، كانوا منبهرين بفصاحة النبي ﷺ . وانه كان يرد ذلك إلى عاملين أولهما هو ان تلك الفصاحة هي من الله عز وجل. والثاني هو انه نشأ في بني سعد.

وقيل للنبي محمد ﷺ يا رسول الله ما رأينا الذي افصح منك قال: " ما يمنعني، وانما انزل القران بلساني بلسان عربي مبين "[2]. أي انه عايش القران الذي انزل بلسانه العربي وتفهمه . فنهل من القران، فزاد بيانه .

وكان النبي ﷺ يتفاخر بعروبته. فقد روي عنه انه قال: " أنا أعربكم، أنا من قريش ولساني عربي بني سعد بن بكر". وقال: " انا أعرب العرب ولدت في قريش ونشأت في بني سعد فانى يأتيني اللحن"[3].

ويتضح من ذلك ان النبي ﷺجمع بين العروبة والنسب من قريش واللسان المبين الفصيح والبادية العربية التي نشأ فيها وتعلم من قيمها وأخلاقها وأدبها وفروسيتها وشجاعتها وكرمها.

(1) يوسف بن إسماعيل النبهاني ، مصدر سابق، ص 201والخصائص الكبرى ، مرجع سابق، ص 158

(2) الخصائص الكبرى ، مرجع سابق، ص 157.

(3) المصدر السابق، ص 157

وقد وصف بأنه مشروع الفصاحة ومعدن البلاغة، رئيس الفصحاء وأمام البلغاء، وكان افصح العرب لسانا وأعذبهم منطقا وأسداهم لفظا وابينهم لهجة وأقومهم حجة واعرفهم بالخطاب [1].

وقد روي ان النبي ﷺ قال: " من تعلم صرف الكلام ليستبي به قلوب الرجال لم يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل ".

وقد أمر المسلمين بالامتناع عن كثرة الكلام والتكلف أو التصنع باللفظ. فقال: "أن من احبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا. وان أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون ". وقالوا يا رسول الله وما المتفيقهون، قال " المتكبرون ". والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم مع التظاهر بالفصاحة[2]. ذلك ان التصنع والتكلف بالكلام والتظاهر بالفصاحة تخرج المتكلم عن سياقه المعتاد، وتخرجه من حالته الطبيعية، وتقوده إلى حالة التمثيل المصطنع. فلا يعبر كلامه عن خلجات قلبه، فيصبح وكأنه لا يؤمن بما يقوله. فالتواضع والبساطة وعدم التكلف بالكلام اقرب إلى قلوب الناس.

وقد ملك النبي ﷺ الحجة ووسيلة التعبير عنها. ولهذا فلم ينازعه منازع. فقد ذهب إليه الكثيرون وهم مسلحون بالحجج والأدلة التي يظنونها قاطعة وفي رؤوسهم أفكار بلغت لديهم مبلغ العقيدة التي لا تزعزع. فكان النبي ﷺ يناقشهم ويحاورهم ويتجاوب معهم هنا ويعارضهم هناك. وبعد ان يسدل الحوار أستاره، فإذا بهم معجبون بقدرته الفعلية وفصاحته اللفظية. يسوق الحكمة إليهم مفضلا قلة الكلام على كثرته[3].

وتقضي القواعد السليمة في خلق الدبلوماسي وقدرته، انه لا يتكلم إلا بعد ان يستمع إلى الطرف الآخر وما عنده من آراء ومقترحات، وبعد ان يفرغ الطرف الآخر ما

---

(1) علي حسين علي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 12.

(2) محمد عطية الأبرش ، مصدر سابق، ص 303.

(3) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 657.

عنده تتضح الصورة بشكل جلي أمامه لكي يحدد الموقف الذي يراه مناسبا. فقد يمنح الطرف الآخر فرص الكلام ما لم يتوقع ذلك.

وقد كان النبي ﷺ دبلوماسيا في هذا المجال. فلا يتكلم إلا بعد ان ينتهي الطرف الآخر من الكلام، ثم يسأله " أقد فرغت ". ومن بعد ذلك يبدأ الكلام بعد ان استوعب ما لدى الطرف الآخر وفهم مقاصده وما يريده[1].

وتظهر براعة الدبلوماسي عندما يجيد لغة القوم المرسل إليهم. ولهذا تحرص الدول المتقدمة على ان تختار من مبعوثيها من يجيدون لغة الدولة التي يبعثونهم إليها لكي يتمكنوا من أداء مهمتهم بصورة جيدة. ذلك ان الترجمة غالبا ما تخلق حاجزا نفسيا بين المتخاطبين، وقد لا يؤدي المترجم مهمته بصورة جيده، أو انه قد يخطئ في الترجمة، أو لا يستطيع مواصلة الترجمة لسرعة المتكلمين وعدم قدرته على متابعتهم مما قد يجعله يتجاوز بعض الأمور المهمة. إضافة إلى ان الترجمة لا تحافظ على سرية المداولات. وقد يعمل المترجم لصالح جهة أخرى. ودفعا لهذه المحاذير فقد عملت الدول على ان تعلم مبعوثيها الدبلوماسيين لغة الدولة التي يبعثون إليها.

ولما كانت مهمة الرسائل السماوية من الأمور التي تتطلب الدقة في إيصال الرسالة لما فيها من الأحكام الدقيقة، فقد قال الله تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[2]. وقيل في تفسير هذه الآية: وما أرسَل الله رسولاً إلا بلغة قومه الذين هو منهم، وبعث فيهم ليبين لهم ما أمروا به فيفهموه منه بيسر وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم فانهم أولى الناس به بان يدعوهم وأحق بان ينذرهم ولذلك أمر النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولا. ولو نزل بغير لغتهم، لأدى ذلك إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة منها وما في ذلك من إتعاب للقرائح وكد للنفوس من القرب المقتضية لجزيل

(1) محمد زكي يحضون ، مصدر سابق، ص 80.

(2) سورة ابراهيم الآية 4.

الثواب وقرئ بالسن وهو لغة فيه. وقيل ان الله تعالى انزل الكتب كلها بالعربية ثم ترجمها جبريل عليه السلام[1].

يتضح من ذلك ان إرسال الرسول بلسان المرسل إليهم هو لغرض ان يبين لهم أحكام الدين. ذلك ان الديانات السماوية قبل الإسلام كاليهودية والمسيحية في شبه الجزيرة العربية لم تكن باللغة العربية، وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى عزوف العرب عن الدخول في تلك الديانتين، رغم وجود اتباعهما في شبه الجزيرة العربية. فلم يدخل إليهما إلا العدد القليل، بسبب عدم معرفة العرب بلغة اتباع الديانتين، ولان كتبهم المقدسة لم تكتب بالعربية، ولأن أنبياءهم لم يكونوا من العرب.

ومن مميزات الدبلوماسي الناجح هو ان يتقن اللغات واللهجات المختلفة بصورة صحيحة. ويعد ذلك من أهم أدوات عمله. اذ انه يستطيع معرفة المقصود وإيصال المطلوب للآخرين بسهولة. وعلى الرغم من التطور العلمي الهائل في مجال الترجمة الفورية، إلا ان معرفة لغة المرسل إليهم تعد افضل وسيلة في المفاوضات وإيصال المطلوب بصورة مباشرة. كما ان معرفة لغة القوم المراد مخاطبتهم تحافظ على سرية المعلومات. فكثيرا ما يستخدم المترجمون للتجسس ونقل المعلومات. ولهذا تحرص الدول على ان يتعلم مبعوثوها اللغات الأجنبية وهي تنشئ لهذا الغرض المعاهد المتخصصة .

وإذا كانت معرفة الدبلوماسي للغة الأجنبية لها أهمية كبيرة فان معرفته للهجات المحلية للمرسل إليهم لها فائدة اكبر. ذلك ان تكلم الدبلوماسي بلهجة المرسل إليهم يقربه منهم، ويمكنهم من فهمه بصورة أكبر وأدق.

وقد كان النبي ﷺ يخاطب كل قوم بلسانهم على اختلاف لغاتهم وتراكيب كلماتهم. فتراه يخاطب الحضري بكلام سهل ويخاطب البدوي بكلام وعر الألفاظ[2].

(1) انوار التنزيل واسرار التاويل ، مرجع سابق، ص ص 153.

(2) علي حسين علي الاحمدي ، مصدر سابق، ص 12.

وقال ابن الأثير: ان من خصائص النبي ﷺ ان يكلم كل ذي لغة بلغته على اختلاف لهجات العرب وتركيب الفاظها وأساليب كلمها. وكان أحدهم لا يتجاوز لغته وان سمع لغة غيره. فكالعجمية يسمعها العربي. وما كان ذلك منه إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية. لأنه بعث إلى الخليقة سودا وحمرا، ولا يوجد غالبا متكلم بغير لغته إلا وكان قاصرا نازلا عن صاحب الأصالة بتلك اللغة إلا النبي ﷺ، فانه كان يتكلم لغة العرب افصح منها بلغة نفسها. وجدير به ذلك، فقد أوتي في سائر القوى البشرية المحمودة زيادة على سائر الناس ما يضبطه قياس[1]. ومن قدرته البلاغية انه كان يتكلم مع كل ذي لغة غريبة بلغته، ومع كل لغة بليغة بلغته اتساعا في الفصاحة[2].

ولا نبالغ إذا قلنا ان النبي ﷺ كان يعرف جميع الألسنة. بل قيل أنه كان يعرف جميع اللغات التي كانت في عصره. والدليل على ذلك انه أرسل إلى الأمم كلها على اختلاف ألسنتهم ليفهم عنهم ويفهموا عنه. ويستدل بقوله تعالى: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا "[3]. وهذا يعني انه أرسل للناس جميعا. ولما كان الرسول لا يرسل إلا بلسان قومه. فالناس كلهم قومه. لقوله تعالى:" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم "[4]. فان ذلك يعني ان قوم النبي هم الناس جميعا، وانه ارسل بلغة الناس جميعا، فلابد ان يعرف لغتهم جميعا. ولهذا قيل انه كان ﷺ يعرف جميع اللغات لانه مرسل للجميع. وانه يفهم كل اللغات وان كان عربيا لان الله بعثه للناس كافة. ولذلك كلم سلمان الفارسي بالفارسية. وعندما امر زيدا ان يتعلم كتابة السريانية أو العبرية فان ذلك لتحريم الكتابة عليه[5].

---

(1) يوسف بن إسماعيل النبهاني ، مصدر سابق، ص 207.

(2) السيرة الحلبية الهامش ج3 ، مرجع سابق، ص 83. وعلى بن حسينعلي الأحمدي ، مصدر سابق، ص 12.

(3) سورة سبا الآية 28.

(4) سورة ابراهيم الآية 4.

(5) الشيخ عبد الحي كتاني ، مصدر سابق، ص 209.

وفي الشفاء للقاضي عياض، في بيان علم النبي ﷺ باللغات المختلفة وكذلك في حفظه لكثير من اللغات كقوله في الحديث " سنة سنة " وهي حسنة بالحبشية. وقوله " يكثر الهرج "، وهو القتل بها وقوله في حديث أبي هريرة " اشكنب ورد "[1].

وقيل انه لما حضر عنده بلال وتكلم بلسان الحبشية " اره بره كنكره كري كري منذره " فتحير الحاضرون فبينه النبي ﷺ.

وروي بان وفدا جاء للنبي ﷺ فلما دخل الوفد المسجد الحرام، لم يعرف النبي، فقال رجل منهم من " ابون اسران " ويعني أيكم رسول الله. فلم يفهم الحاضرون فقال النبي ﷺ" اشكد اور" يعني اقبل ههنا. ومعنى " اشكد " تعال وقيل وهلم. أما " اور " معناه هنا[2].

والواقع أني لا استبعد معرفة النبي ﷺ باللغات الأجنبية لأسباب متعددة منها ما ذكر أنه أرسل للناس كافة، وهذا لا يتعارض مع كونه أرسل إلى قومه. فإذا كان قد أرسل للناس كافة فان قومه هم الناس كافة. غير ان القران نزل بالعربية ولم ينزل باللغات كافة وحرمت ترجمته إلى هذه اللغات لأجل ان يحفظ من التحريف. ولأنه نزل بين العرب، فقد نزل بلغتهم لأنها وصلت مرحلة النضوج والاكتمال في ذلك العصر. ولم يترجم إلى اللغات الأخرى، لعدم استيعاب هذه اللغات معنى نصوص القران.

فعلى الرغم من التطور الذي يشهده المجتمع الدولي في الوقت الحاضر في فن الترجمة إلاّ أن الدول عندما تحرر معاهدات بينها بلغة الدولتين المتعاقدتين تحررها بلغة ثالثة لتكون مرجعا عند اختلاف اللغتين التي حررت بهما المعاهدة. وهذا يعني ان الترجمة لا تجئ بالصورة الدقيقة رغم تحريرها من قبل المتخصصين من قبل الطرفين. لهذا فان الحفاظ على القران بنصوصه العربية التي نزل بها هو للمحافظة عليه من التحريف. ولان اللغة العربية تعد اكثر اللغات دقة في تحديد المعني المقصود.

1) علي بن حسين علي الاحمدي ، مصدر سابق، ص 15.

2) المصدر السابق، ص 15.

فقد نزل القران الكريم بلغة فصيحة بليغة تفوق قدرات البشر في ان يأتوا بمثله رغم فصاحة العرب وقدرتهم اللغوية. ونزول القرآن الكريم بهذه اللغة دليل على اهتمام الإسلام باللغة العربية، فأصبحت اللغة العربية علما يجب على كل مسلم ان يتعلمه من اجل ان يفهم القران الكريم، ويعرف أحكامه. ويستند علماء اللغة إلى القران الكريم في إيضاح قواعد اللغة العربية وبيان معانيها. وما يزال القران الكريم حتى يومنا هذا العمود الفقري للغة العربية، وهو الذي حافظ عليها، ونشرها للعالم.

وربط النبي ﷺ بين تعلم اللغة العربية وفهم القران الكريم، وأوجب على كل مسلم تعلم اللغة العربية. فقد روي عنه انه قال: " أعربوا الكلام كي تعربوا القران ". أي تعرفوا ما فيه من بدائع العربية ودقائقها وأسرارها[1].

كما ان النبي ﷺ عمل بالتجارة واطلع على اللغات الأجنبية كالرومية والسريانية عند سفره للشام، والحبشية والفارسية عند سفره لليمن التي كانت فيها بقايا من الأحباش والفرس. كما ان وجوده في المدينة وفر له فرصة الاطلاع على العبرية بسبب تواجد اليهود فيها. كما تعلم لهجات العرب من البادية فقد نشأ في بني سعد وعاش في مكة التي كانت كعبة العرب فيها، ولو كان العرب بمختلف لهجاتهم يتوافدون إليها. فتعلم لهجات البادية والحضر.

يضاف إلى ذلك ان نظام الرق من أجناس مختلفة الذي كان قائما عند العرب قبل الإسلام وفر فرص الاطلاع على لغات الشعوب.

ومن هنا فان معرفة النبي ﷺ باللغات الأجنبية التي كانت سائدة في عصره أمر وارد ومنطقي تدعمه النصوص. إضافة إلى ان الله قادر على كل شئ وهو الذي تولى إعداده لهذه المهمة.

ثانيا : اخلاق الدبلوماسي الحميدة

الدبلوماسي عقل مرسله، وهو صورة حية لصفات قومه، والمعبر عن أفكارهم وثقافتهم وأخلاقهم. ومن اجل ان يؤثر في الوسط الذي يعمل فيه، فان عليه ان يتحلى

(1) فيض القدير ج1 مرجع سابق، ص558.

بالصفات الحميدة والأخلاق القويمة، ويتصف بالصدق والصراحة والأمانة وحسن الطوية وسلامة التصرف. وعليه ان يبتعد عن كل ما هو سيء أو يمس سمعته أو شخصه. لان ما يقوم به من تصرفات لا تنسب إليه إنما تنسب إلى مرسله، وهي دولته.

وكان النبي ﷺ صادقا حازما، إذا قال فعل، وعازما صارما إذا هم أو مضى، وصابرا إذا أتته الشدائد، وأبيا إذا أصابه الضيم، عصيا إذا دعا الخسف والظلم، عزيزا إذا أريد على الهوان، عادلا إذا حكم، وحكيما إذا تصرف أو قضى. جمع الله له عقلا وافرا وخلقا رضيا، ويدا كريمة، ونفسا عفيفة، وأنفا حميا، وضميرا نقيا، وصدرا رحبا واسعا[1] وذهنا حاضرا ورأيا سديدا، ونظرا بعيدا، وتدبيرا حسناً. اتسعت دائرة علومه ومعارفه من غير دراسة ولا مطالعة ولا جلوس إلى المعلم، إنما هي فطرة الله الذي احسن كل شئ خلقه.

وقد عرف النبي ﷺ بالحلم عند المقدرة، والصبر على احتمال المكاره، وما خير بين امرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما. فان كان إثما كان ابعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم[2]. وقد يكره المتكلم ولا يكره الكلام إذا كان حقا. وقد يحب المتكلم ويكره الكلام إذا كان باطلا. ومثال ذلك شفاعة ابنته فاطمة في امرأة سارقة. كان يغضب ولكنه لا يحقد، ويحزن ولا يستسلم للحزن[3]. وكان ابعد الناس غضبا وأسرعهم رضا، ولا يبارى في الجود والكرم والسخاء والنجدة والشجاعة والحياء والإغضاء وحسن المعاشرة والشفقة والرحمة والرأفة بالجميع ، وان كانوا من أعدائه. يصل الرحم ويفي بالعهد وكان يتصف بالعدل والأمانة والعفة والزهد في الدنيا والصدق في القول والتواضع مع علو منصبه ورفعة رتبته وطول صمته[4]. وكان افضل قومه مروءة وأنبلهم خلقا، وأكرمهم معاشرة ومصاحبة وأحسنهم حوارا ومناقشة واصدقهم حديثا وأوفاهم عهدا واطهرهم

(1) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 221.

(2) محمد عطية الأبرش ، مصدر سابق، ص 244.

(3) محمد لطفي جمعة ، مصدر سابق، ص 262.

(4) محمد عطية الأبرش ، مصدر سابق، ص 245.

سريرة وأبعدهم عن الفحش. وكان يمازح أصحابه ويحادثهم ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. ويبدأ بالسلام والمصافحة. يكرم من يدخل عليه وربما بسط ثوبه. ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه بالجلوس. ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب اسمائهم، ولا يقطع على أحد حديثه إلاّ بانتهاء أو قيام. وقد روي انه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته. فإذا فرغ عاد إلى صلاته[1]. وقد روى أبو نعيم عن وهب بن منبه انه قال: قرأت واحداً وسبعين كتابا فوجدت في جميعها ان الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل النبي ﷺ إلا كحبة رمل من بين جميع رمال الدنيا. وهو ارجح الناس عقلا وخلقا[2].

وقد وصف الله النبي ﷺ بقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. وهو الخلق الذي امره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وعن عائشة رضي الله عنها قالت ان سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: "كان خلقه القران"[4].

لقد اهتم الإسلام بحسن الأخلاق الإنسانية، واعتبر ان الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرقة ثمرة سوء الخلق. وان حسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق بين أبناء البشر.وروى الغزالي عن النبي ﷺ انه قال:" اكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق " وقيل للنبي ﷺ، ما خير ما أعطي الإنسان فقال " خلق حسن ". وقال: " بعثت لأتمم محاسن الأخلاق ". و قال: " اثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن ". وقال: " ان أقربكم مني مجلسا أحسنكم أخلاقا الموطئون اكنافا الذين يألفون ويؤلفون ". وقال: " المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ". وقال:" ما تحاب اثنان في الله إلا كان احبهم إلى الله أشدهما حبا لصاحبه"[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 301.

(2) الخصائص النبوية ، مرجع سابق، ص 30.

(3) سورة القلم الآية 4.

(4) الكشاف ج4، مرجع سابق، ص 141.

(5) تراجع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ومصادر إخراجها: إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبي محمد الغزالي طبع مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة 1967،ص 200.

ودعا النبي ﷺ المسلمين إلى التحلي بالأخلاق الحسنة. فقد قال: " ان المؤمن ليدرك بحسن خُلقه درجة الصائم "[1]. والمعروف ان الصيام ركن من أركان الإسلام. وبالمقابل فان خلق المسلم يوصله إلى درجة الصائم القائم، أي قائم الليل في الطاعة. وقد أعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم لان الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة أهوائهم، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طباعهم وأخلاقهم فكانه يجاهد نفوسا كثيرة، فادرك ما أدركه الصائم القائم وربما زاد عليه لأن حسن الخلق أصبح مقياسا يقاس به المؤمن. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخُلق"[2].

ويلاحظ ان حسن الخلق في الإسلام للمؤمن يعد بمثابة أحد مستلزمات الإيمان، وهذا يدل على مدى اهتمام الإسلام في خلق مجتمع تسود فيه الفضيلة والإنسانية. وإذا كان الإسلام قد فرض على المسلم التحلي بالأخلاق بهذه الدرجة، فما هي الدرجة الأخلاقية التي يجب ان يتحلى بها الدبلوماسي الذي يعد مرآة تعكس قيم وأخلاق المسلمين.

ولم يكن فرض الأخلاق على المسلم من باب تقويم الشخصية الإنسانية له فحسب، بل ان الأخلاق درجة من أعلى الدرجات الموصوفة في الجنة. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه". أما سيء الخلق فانه لا يدخل الجنة. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: "لا يدخل الجنة الجوّاظ ولا الجعظري ". وقال: " الجواظ الغليظ الفظ ".أي سيء الخلق. وقيل الجواظ كثير اللحم المختال في مشيه. وقيل الجموع المنوع، أو القصير البطيء الجافي القلب، أو

(1) سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 300.

(2) المرجع السابق، ص 300.

الفاجر، أو الأكول. أما الجعظري الفظ الغليظ المتكبر وقيل هو الذي لا يصدع رأسه والذي يمتدح وينفخ بما ليس عنده[1].

وسجية المسلم هي الأخلاق. ولما كانت الأخلاق جزءا من الإيمان فإنها لا تتأثر بالظروف والأحوال. بل تبقى ثابتة قائمة في حياته لا تتغير. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا. وإذا سمعتم برجل زال من خُلقه فلا تصدّقوا، فإنه يصير إلى ما جبل عليه ". ومعنى ذلك أنه إذا أخبركم مخبر بان جبلا من جبال الدنيا تحول وانتقل من محله الذي هو فيه إلى محل آخر فصدقوا. فانه لا يخرج عن دائرة الإمكان. وإذا سمعتم برجل قد فعل خلاف ما تقتضيه جبلته ، فلا تصدقوا وان بدر منه على سبيل الندرة خلاف ما يقتضيه طبعه، فما هو إلا كطيف منام ان برق لاح وما دام. وتأتي الطباع على الناقل وحال المتطبع كالجرح يندمل على فساد، فلابد ان ينبعث عن فتق ولو بعد حين. وكما ان العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه وان جاهد فمتى يحركه إلى اليمين تحرك إلى الشمال فكذا المتطبع، وان جاهد نفسه فان قواه تأبى مطاوعته، وهذا الخبر الصحيح في حسن الخلق لا يمكن اكتسابه، لكنه منزل على تغيير القوة نفسها التي هي السجية لا على أساسها. وقيل الطبع اصله من طبع السيف. وهو إيجاد الصورة المخصوصة في الحديد. وكذا الطبيعة والغريزة لما غرز عليه وكل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل إلى تغييرها. والسجية اسم لما يسجى عليه الإنسان[2].

واكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره. لكن الخلق تارة يقال للقوة الغريزية وهو المراد هنا. وتارة جعل اسما للحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خلقياً ان يفعل شيئا دون شيء . وتارة يجعل الخلق من الخلاقة أي الملابسة. وكل اسم مأمون عليه الإنسان من العادة، وهو الذي يقال باكتسابه فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكرة ومراسما للفعل الصادر عنه باسمه وعلى ذلك

---

(1) المصدر السابق، ص301.

(2) فيض القدير شرح الجامع الكبير للمناوي ج1، مرجع سابق، ص 380.

اسماء أنواعها من نحو جميعا. فإذا سمعت ان الرجل الكيس يصير بليدا أو بالعكس وان العاجز يرجع قويا وعكسه فلا تصدقوه[1].

ومن قيم النبي ﷺ في التواضع. أنه مهما بلغ الإنسان مرتبة في العلم والدين والسياسة فإن أخلاقه يجب ان تكون محكومة بالتواضع. وبعد فتح مكة جاء رجل للنبي ﷺ وهو يرتعد خوفا ليبايعه، فقال له: " هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[2].

ومفهوم الأخلاق عند النبي ﷺ ليست في مواجهة الله والناس فحسب، بل إنها سلوك إنساني ينعكس على تصرفات وعواطف الشخص، في سروره وغضبه ومشيه وجميع التصرفات الخاصة به. فكان النبي ﷺ لا يخفف عاطفته وانفعاله، فإذا كره شيئا ظهر في وجهه. وكان يعجب ويضحك مما يضحك الناس، ويتعجب من مثله، ويستغرب وقوعه، أو يستندر. وكانت طبيعته الهادئة لا تسمح بالصخب ولا القهقهة، بل كان معظم ضحكه ابتسامة تظهر نواجذه. وإذا مشى كان يتوكأ والاتكاء عند العرب بمعنى السعي الشديد[3]. وروي انه إذا مشى كأنما يهوي في صبب. أي ينزل في حوض منخفض، والصبب ما انحدر من الأرض.

وكان من أخلاقه ان يقرأ نفوس المستمعين له ومدى تفاعلهم معه. فقد كان يبتعد عن الهذر من الكلام ويقتصر الخطبة لئلا يملّ سامعوه فقد روي عنه أنه :" كان يذكر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة ولا يأنف ان يمشي مع الأرملة والمسكين ويقضي الحاجة "[4].

وإذا كان الإسلام قد جمع جميع القواعد الأخلاقية وافترضها في المسلم. فان ذلك بالنسبة للدبلوماسي يكون من باب أولى. فكل مسلم هو في واقعة دبلوماسي

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، مرجع سابق، ص 381.

(2) محمد عطية الابرش ، مصدر سابق، ص 246.

(3) حاشية عون المعبود على سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 317.

(4) ابن الأثير ج11 ، مرجع سابق، ص 252.

يحمل رسالة الله إلى البشر، ويبشر بها، وهذا جزء من واجبه. ولهذا فان المسلم هو مرآة تعكس القيم الإسلامية في التعامل بين المسلمين ومع الآخرين على حد سواء. ولهذا كان للدور الكبير الذي قام به تجار المسلين في نشر الإسلام في العديد من المناطق في العالم وخاصة في دول جنوب شرقي آسيا الأثر البالغ في اعتناق شعوب هذه المناطق الإسلام لما كان يتصف به هؤلاء التجار من القيم الأخلاقية التي أثرت في هذه الشعوب وجعلتها تعتنق الإسلام بالاستناد إلى ما وجدوه عند هؤلاء المسلمين من قيم أخلاقية عالية أثرت في نفوسهم التأثير الكبير. فكان هؤلاء التجار حملة رسالة إلى هذه الشعوب.

ثالثا : كياسة الدبلوماسي

من ابرز صفات الدبلوماسي ان يتحلى بالأخلاق الفاضلة وان يكون كيسا، وديعا ودودا، معاشرا، محبا للناس، متعففا، كريما، متحليا بالحياء بعيدا عن التملق غير المنصف، صادقا، مسالما، غني النفس، يعامل الناس بلطف وبحسب مواقعهم ومراتبهم، يجيد أساليب التعارف والتقرب من الناس، رفيقا بنفسه وأهله والغير، ودودا عند السفر، صبورا مؤدبا عند الإثارة، كاظما للغيظ، جلدا في المهمات، عافيا عند الظفر، متواضعا عند علو منصبه، مبتسما عند الفرح والكرب، ثابت الشخصية في المسرات والنكبات.

وفي الواقع العملي فانه من الصعوبة ان نجد شخصا في الوقت الحاضر يتحلى بهذه الصفات. ولهذا فإن الدول تحاول بشتى الأساليب بناء الشخصية الأخلاقية للدبلوماسي من الناحية الشكلية. أي ان الدبلوماسي يتظاهر بهذه الصفات أمام الناس وان كان جوهره يخالف منطقه وعمله. فهو يتصنع الأخلاق والانزعاج بحسب ما تمليه عليه مصالح دولته. وقد يتصرف بما يخالف ما يؤمن به. فتجده ودوداً لطيفاً في مناسبة، وفظاً غليظاً في أخرى.

وبصراحة يمكن ان نقول ان الدبلوماسي الناجح في الوقت الحاضر هو الذي يتمتع بشخصية مزدوجة. واحدة للخير وأخرى للشر بحسب ما تمليه عليه مصالح دولته. في حين ان الشريعة الإسلامية أوجبت ان تكون الأخلاق سمة الدبلوماسي شكلا وجوهرا. فمن هذه الأخلاق ما هو مطلوب في كل مسلم بصورة عامة. ومنها ما هو خاص بالدبلوماسي تبعا لظروف المهمة المكلف بها.

وتعد أخلاق النبي ﷺ الرمز الفريد للشخصية الدبلوماسية التي يتطابق فيها الجوهر مع المظهر. وهي في المرتبة العليا لاخلاق البشر لأسباب متعددة، منها كونه نبيا مبعوثا اختاره الله عز وجل وتولى تربيته وللبيئة التي نشأ بها. فهو الأسوة الحسنة والنموذج المشع للإنسانية، ومنارة يقتدى بها كل من يسعى بإخلاص إلى خدمة وطنه وامته.

ان الكلام عن الشخصية الأخلاقية للنبي ﷺ بشكلها الصحيح لا تتسع لها هذه الدراسة ولكننا نحاول ان نحدد الأخلاق الدبلوماسية التي اتبعها النبي ﷺ في إيصال الرسالة المكلف بها.

ولهذا سنحاول دراسة شخصيته الدبلوماسية في مجال الأخلاق من حيث احترامه للناس والحياء والتواضع والصدق في التعامل وذلك في الفقرات الآتية:

أ - حب الدبلوماسي للناس واحترامهم

من الأمور التي يجب على الدبلوماسي في الوقت الحاضر ان يتصف بها هي حبه للناس. وإذا كان الحب أمرا غريزيا في الشخص لا دخل لإرادته فيه، فان كظم الغيظ والانفعالات والصبر من الأمور التي هي كثيرا ما تقرب الناس إلى المبعوث الدبلوماسي وتمكنه من إيصال رسالته على الوجه الأكمل. فليس كل ما في داخل الشخص من حب أو كره يستطيع ان يظهره في تصرفاته، فبعض الأمور تبقى حبيسة النفس وملكا لصاحبها لا يتمكن من البوح بها لأسباب عديدة. فكلما تمكن الدبلوماسي من كظم غيظه وانفعالاته اقترب من نجاحه في أداء مهمته. فلا يتصرف الدبلوماسي بناء

على ما يحمله من حب أو كره للمرسل إليه، بل ان جميع تصرفاته لا بد أن تكون محكومة بحدود المهمة المكلف بها. وبالتالي قد يعاني الدبلوماسي من ازدواجية الشخصية، فيتظاهر بالحب أو الكره للآخرين خلافا لما يكنه في نفسه من عواطف. لان مهمته تتطلب ذلك. وإذا جاءت عواطفه مطابقة لتصرفاته أمام المرسل إليه فيكون الدبلوماسي اكثر تعبيرا في أداء مهمته.

2- معيار الحب والكره

إذا كان الحب والكره أمراً غريزيا خارجاً عن إرادة الإنسان، فان احترام الآخرين ليس كذلك. فاحترام الآخرين سلوك إنساني يصدر عن إرادة الشخص ويتحكم به. وهو أمر يتطلب من الدبلوماسي ان يحترم من يتعامل معه وان كان في ذروة انفعالاته وبغضه للطرف الآخر. فالدبلوماسي محكوم في إطار أداء المهمة المكلف بها.

وكان النبي ﷺ خير من أدى هذه المهمة. فقد سبق القول بأنه قد يحب المتكلم ولا يحب الكلام، وقد يحب الكلام ولا يحب المتكلم. وهذه الميزة تمثل عدالة في النفس وعدالة في التصرف. وإذا كان الحب والكره حالة غير إرادية كامنة بالنفس، فان النبي ﷺ أوجب على المسلم ان يتحكم في تصرفه قبل الآخرين للتعبير عن سلوك معين، ويؤخذ هذا السلوك بأنه نابع من محبة ذاتية. ولكن ما هو المعيار المحدد لهذا السلوك؟.

وضع النبي ﷺ معياراً محدداً للتعبير عن الحب بسلوك خارجي، قائم على تعادل أطراف العلاقة. فالمطلوب من المسلم ان يكون تصرفه تجاه الآخرين كتصرف الآخرين تجاهه. فقد روي عنه انه قال: " أحب للناس ما تحب لنفسك "، وان تفعل ما تحب ان يفعلوا معك، وتعاملهم بما تحب ان يعاملوك به وتنصحهم بما تحب تنصح به نفسك، وتحكم لهم بما تحب ان يحكم لك به، وتحتمل أذاهم وتكف عن أعراضهم وان رأيت فيهم حسنة أذعتها أو سيئة كتمتها . ذلك ان المرء مطبوع على حب الإيثار. وان محبة

المرء لنفسه إنما هي باعتبار عقله أي يحب له ذلك ويؤثره من جهة عقله أما التكليف من جهة الطبع فصعب لأنه مطبوع على الاستئثار[1].

وطبقا لذلك فقد حدد النبي ﷺ للنفس الإنسانية للمتصرف معيارا لحب الآخرين في التصرف معه. وهذا المعيار يشجع الشخص على التعمق في حب الآخرين لكي يتعمقوا في حبهم له ويتصرفوا معه على أساس ذلك. فإذا أراد ان يتعامل مع الناس وهو في موقع أعلى فان عليه ان يتذكر ما هو المطلوب من الناس ان يتعاملوا به معه وهو في موقع أدنى وهم في موقع اعلى.

3 - واجب احترام الآخرين

كان النبي ﷺ في تصرفه يحترم الناس كثيرا. فقد روي عن انس انه قال: "ما رأيت رجلا التقم أذن النبي ﷺ فينحني رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحني رأسه وما رأيت رجلا اخذ بيده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده". وكان ﷺ يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف مع أهل الشرف بالبر بهم، لا يقسو على أحد[2]. ورغم علو النبي ﷺ إلا ان البساطة هي وسامة في التعامل مع الآخرين. لا خوفا بل احتراما وتقديرا لهم.

وكان النبي ﷺ يستقبل الشخص بالود والترحاب وكأنه كان يعرفه منذ مدة طويلة. ويتأنى ويرفق به ويناديه بكناية محببة له. وروي عنه انه قال: "ان استقبال المرء صاحبه بعيونه إفحاش والله لا يحب الفحش ولكن الواجب ان يتأنى به ويرفق به ويكنى في القول ويوري ولا يصرح". وتطبيقا لذلك فقد روي عن عائشة رضي الله عنها إنها قالت ان رجلا استأذن على النبي ﷺ فقال النبي بئس أخو العشيرة، فلما دخل انبسط إليه رسول الله ﷺ وكلمه، فلما خرج قلت يا رسول الله لما استأذن قلت بئس

(1) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي، مرجع سابق، ص 176.

(2) سنن ابي داود ج4، مرجع سابق، ص 398.

العشيرة فلما خرج انبسطت إليه. فقال رسول الله ﷺ يا عائشة ان الله لا يحب الفاحش المتفحش "[1].

ان احترام النبي ﷺ للناس واحترامهم له، كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشر الرسالة الإسلامية.

4 - حدود الحب والكره

والتمادي بالحب أو الكره أمر غير مرغوب فيه. ذلك ان العلاقات لابد ان تكون متوازنة. فقد يكون صديق اليوم عدوا في يوم غد، والعكس صحيح أيضا. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " أحبب حبيبك هونا ما عسى ان يكن بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ". فإذا أحببت فلا تسرف في حبك إذ ربما انقلب ذلك بتغير الزمان والأحوال بغضا فلا تكون قد أسرفت في حبه فتندم عليه إذا ابغضته أو حبا فلا تكون قد أسرفت في بغضه فتستحي منه إذا أحببته. وقيل ان معنى الحديث الشريف ان القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، فقد يعود الحبيب بغيضا وعكسه، فإذا مكنته من نفسك حال الحب ثم عاد بغيضا كان لمعالم مضارك اجدر لما اطلع منك حال الحب بما أفضيت إليه من الأسرار. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يكن حبك كلما ولا بغضك تلفا[2].

والقاعدة التي وضعها النبي ﷺ في الحب تتلاءم في الزمان والمكان، وهي تقوم على أسس منطقية. فالحب أمر كامن بالنفس، فقد تحب شخصا يحبك فعلا، أو يتظاهر بذلك فتحول الظروف حبه إلى كره في يوم ما. وقد تخطئ معه في يوم ما فيتحول الحب إلى كراهية. والكراهية بعد الحب اشد وقعا من الكراهية المتأصلة بالشخص ضدك.

---

(1) الأمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2 مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة 1967 ص462

(2) فيض القدير شرح الجامع الكبير للعلامة المناوي ج1، مرجع سابق، ص 176.

5 - الحب وحسن الخلق

واحب الناس إلى الله احسنهم خُلقًا. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: " احب عباد الله إلى الله احسنهم خُلقًا ". وحسن الخلق مرتبط بحب الناس. ويعني بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه والتواضع، وقهر النفس ومجاهدتها. وقد روي عن أسامة انه قال كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ وكأنما على رؤوسنا الطير ما يتكلم منا متكلم إذ جاءه أناس فقالوا من احب عباد الله إلى الله فقال ﷺ: " احب عباد الله إلى الله احسنهم خُلقًا "(1).

ومن الأمور التي تحبب الدبلوماسي للناس وتوددهم إليه أن يظل مبتسماً طيلة أداء المهمة. فالدبلوماسي الناجح هو صاحب الوجه البشوش الذي يبتسم لمن صادفه. ولذلك قال النبي ﷺ: " تبسمك في وجه أخيك لك صدقة "(2). ومن هذا يتضح ان الحب والخلق متلازمان، فلا يمكن ان يكون الحب بدون أخلاق، ولا أخلاق بدون حب الناس.

6 - الكرم

يعد الكرم من سمات النبي ﷺ. وقال في ذلك: " المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم "(3). وقال: " إذا آتاكم كريم قوم فأكرموه" وكان اكرم الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فَضُل شيء ولم يجد من يعطيه له لم يأو إلى منزله حتى يتبرع به إلى من يحتاج، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه(4).

كان النبي ﷺ كريما لا يخشى الفاقة ،كما وصفه اصحابه، ويتصف بالجود والسخاء. والكرم عنده سجية(5).

(1) فيض القدير شرح الجامع الكبير للعلامة المناوي ج1، مرجع سابق، ص 174.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني المجلد الثاني، مرجع سابق، ص 113.

(3) المصدر السابق، ص 644.

(4) الأمام ابو حامد الغزالي، مرجع سابق، ص 458.

(5) جمال عبد الرزاق البدري، محمد الثورة والحضارة، ط2 دار القادسية، بغداد 1980ص 152

والكرم من صفات العربي الحميدة. وقد خلد التاريخ العربي رجالا اتصفوا بالكرم. وقد كان النبي ﷺ اكرم قومه. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه، انه قال: " كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة "[1]. وروي عن ابن انس: ان رجلا سأل النبي ﷺ غنما بين جبلين، فاعطاه إياه. فأتى قومه قائلا: أي قوم اسلموا، فوالله ان محمدا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر. فقال انس: ان كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام احب إليه من الدنيا وما عليها[2]. وفي هذا الكرم لم يكن النبي ﷺ يقصد ان يكون إسلام الرجل مقابل المال، وإنما ان يقترب الرجل من المسلمين وبعد ذلك فان إسلامه سوف يضعه أمام خيار العمل الصالح الذي ينال فيه الآخرة بدل الدنيا.

وقد روي عن ابن المسيب: ان صفوان بن أمية قال: والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وانه لا بغض الناس الي، فما برح يعطيني حتى انه لأحب الناس إلي"[3]. وقد روي عن جابر بن عبد الله انه قال: " ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا "[4].

وقد كان كرم النبي ﷺ له الأثر الكبير في حب الناس له وتوددهم إليه. فالمحتاج لا يفكر إلا بحاجته، ومتى قضيت حاجته التفت إلى ما هو مطلوب منه. ولهذا فقد كان كرمه دليل محبته للناس، فلا يضن بالمال على المحتاج.

(1) الإمام ابو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم ج4 دار الفكر بيروت طبعة عام 1878 ص 1803.

(2) المرجع السابق، ص 1806.

(3) المرجع السابق، ص 1806.

(4) الامام ابو حامد الغزالي، مرجع سابق، ص 459.

الباب الثاني

الدبلــوماسية الإســلامية

بعد عهد النبي محمد ﷺ

الباب الثاني
الدبلوماسية الاسلامية بعد عهد النبي محمد ﷺ

استمرت الدبلوماسية الاسلامية بعد عهد النبي ﷺ وقد تبلورت بشكل أوضح في عهد الخلفاء الراشدين سواء في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ ، أو عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، وكذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه من بعده .

يتطرق هذا الباب إلى المرحلة السابقة إضافة إلى مرحلة الدبلوماسية الاسلامية في العهد الأموي، سواء في دمشق أو في الأندلس، كما يعالج الدبلوماسية الاسلامية في العهد العباسي من خلال التوقف عند التاريخ السياسي للدولة العباسية وكذلك مظاهر الدبلوماسية الاسلامية في هذا العصر ، هذا وتختتم فصول هذا الباب من خلال عرض للدبلوماسية الاسلامية في العهد العثماني يتضمن نشوء الدولة العثمانية وكذلك دبلوماسيتها بعد احتلال الوطن العربي .

وقد جاءت فصول هذا الباب على النحو التالي :

الفصل الأول : الدبلوماسية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين .

الفصل الثاني : الدبلوماسية الاسلامية في العهد الأموي .

الفصل الثالث : الدبلوماسية اسلامية في العهد العباسي .

الفصل الرابع : الدبلوماسية الاسلامية في العهد العثماني .

الفصل الأول

الدبلوماسية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

وضع النبي ﷺ أصول الدبلوماسية الإسلامية القائمة على الفضيلة والإنسانية. وقد أصبحت هذه القواعد منارة استنارت بها الدولة الإسلامية على مر الزمن. خاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية وأصبحت تجاور العديد من الأمم والشعوب.

وقد اتبع الخلفاء الراشدون سيرة النبي ﷺ في الاعتماد على الدبلوماسية لنشر الدعوة الإسلامية. ولم تقل براعتهم في الدبلوماسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عجل. ذلك انهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين يبغي عليهم حكامهم، والذين كانوا مستعدين لاستقبال المسلمين بترحاب وحبور. وقد عرف الخلفاء كيفية حمل غيرهم على الدخول في الإسلام بدون استخدام القوة. فكانوا يرسلون الرسل للبلاد الأخرى قبل إرسال الجيش لفتحها[1].

وقد استخدم الخلفاء الراشدون الدبلوماسية في وقتي السلم والحرب، فعندما يقررون فتح مدينة يرسلون الرسل إلى أهلها لدعوتهم للإسلام. فالمسلمون لا يستخدمون الحرب المباغتة وسيلة لفتوحاتهم وإنما يجب أن يسبق ذلك الدعوة إلى الإسلام، وهذه الدعوة تتم عن طريق استخدام الرسل[2]. وإذا رفض أهل المدينة الدخول في الإسلام فيطلب منهم دفع الجزية. وإذا رفضوا ذلك منحوا ثلاثة أيام يتخيرون فيها فإذا أصروا على الكفر فعند ذلك يبدأ القتال إلى ان يقولوا لا إله إلا الله.

وعامل الخلفاء الراشدون الرسل الأجانب ذات المعاملة التي كان النبي ﷺ يعاملهم بها. إذ كان يعطيهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ولم يخضعهم لضريبة العشر[3].

وقد ساهم عمله في التجارة وخاصة التجارة الخارجية في زيادة معرفته بأمور الأمم والدول المجاورة ومعرفة ما تحتاجه دولة المسلمين وما تستطيع التعامل به مع الغير.

---

(1) كتابنا، تطور الدبلوماسية عند العرب، دار القادسية بغداد 1984ص83.

(2) أبو الحسن المرغيناني، الهداية شرح بداية المبتدي، ج2 مصطفى البابي القاهرة 1936 ص136.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ص 294.

المبحث الأول
الدبلوماسية في عهد أبي بكر الصديق

لم يتعرض أبو بكر الصديق ﷺ إلى الوفود التي جاءت إليه من المرتدين عن الإسلام رغم انهم جاءوا للمدينة ليطلعوا على وضعها العسكري لغرض احتلالها[1]. ذلك أن معرفة سوء النية ليس أمرا ميسورا رغم الشكوك بنواياهم. وكانت معاملته للرسل تقوم على القيم والأخلاق الكريمة. ولأن الرسول معبر عن مرسله.

فقد اتبع أبو بكر ﷺ خطى النبي ﷺ في حماية الرسل لأن الاعتداء عليهم اعتداء على الدولة الإسلامية. فعندما قتل أحد رسل النبي ﷺ من قبل الروم جهز النبي جيشا لمحاربة الروم وحاربهم. وجهز جيشا آخر لمحاربة الروم في مؤتة وليثار للمسلمين بقيادة أسامة بن زيد. وقد مرض النبي ﷺ فلم ترسل الحملة.

وقد أولى أبو بكر الصديق ﷺ العلاقات الدبلوماسية أهمية بالغة خاصة الرسل وذلك لعقد معاهدات هدنة مع الدول المجاورة للدولة الإسلامية، فأرسل رسله للمقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم وكسرى ملك الفرس لعقد معاهدات هدنة[2]. ومعاهدات الهدنة هذه ليست لإنهاء حالة حرب قائمة وإنما لتفادي حرب مستقبلية. وهي ما يطلق عليها في الوقت الحاضر بالمعاهدات الدولية الخاصة بعدم التعدي.

وقد أرسل إلى قيصر سفارة من ثلاث مبعوثين يطلب منه وشعبه الدخول في الإسلام. غير أن قيصر رفض ذلك[3].

(1) محمد حسين هيكل، الصديق ابو بكر، مطبعة مصر 1958 ص 114.

(2) يونس عبد الحميد السامرائي، السفارات في التاريخ الإسلامي حتى قيام الدولة العباسية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية دار العلوم _ جامعة القاهرة، 1976ص267.

(3) الدكتور كاظم هاشم النعمة، الوجيز في العلاقات الدولية، جامعة بغداد 1992ص25.

المبحث الثاني
الدبلوماسية في عهد عمر بن الخطاب

بعد وفاة أبي بكر الصديق جاء من بعده عمر الخطاب ﷺ وكان في حكومة الملأ قبل الإسلام. واشتغل في شبابه بالتجارة. وكان يتولى السفارة بين قريش والجماعات الأخرى كما كان يتولى المنافرة والمفاخرة عنها. وكان يتميز بالنضج واللباقة والدهاء وقوة العارضة إضافة لما كان يتمتع به من تقدير واحترام. وقد أثر أن النبي ﷺ دعا الله أن يعز الإسلام بأحب الرجلين إليه عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام[1].

ويعد عمر بن الخطاب ﷺ من الشخصيات المعروفة عند العرب قبل الإسلام، وممثلا لحكومة الملأ في مكة. وقد استفاد كثيرا أثناء فترة أسره في الشام.

ومن القواعد الدبلوماسية المعمول بها في الوقت الحاضر اللين والشدة. فقد روي عنه انه قال: " لا ينبغي أن يلي هذا الأمة إلا رجل فيه أربع خلال: اللين من غير ضعف، والشدة في غير عنف، والإمساك في غير بخل، والسماحة في غير سف"[2].

وقد حدد عمر بن الخطاب ﷺ شروط اختيار الرسل فقال في ذلك: " يزنن لكم، فيقدم أحسنكم اسما، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجهاً، فإذا نطقتم ميزتكم السنتكم ... وكانت أعين الملوك تسبق إلى ذوي الرواء من الرسل، إنما توجب ذلك في رسلها لئلا ينقص اختيارها حظا من حظوظ الكمال، ولأنها تنفذ واحدا إلى أمة، وفذا إلى جماعة وشخصا إلى شخوص كثيرة فاجتهدوا في أن يكون ذلك الواحد وسيما جسيما يملأ العيون المتشوقة إليه فلا تقتحمه ويشرف على تلك الخلق المتصدية فلا تستصغره "[3].

---

(1) الدكتور احمد الشلبي، مصدر سابق، ص 390.

(2) محمد عزة دروزة، مصدر سابق، ص 115.

(3) ابن الفراء، رسائل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت 1972 ص247.

المبحث الثالث
الدبلوماسية في عهد عثمان بن عفان

تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بثلاث أيام. وذلك في اليوم الثالث من شهر محرم سنة 24- 35 هـ. 644- 656 م [1].

كان عثمان ﷺ سفير النبي ﷺ إلى قريش في السنة السادسة للهجرة، حين حالت قريش دون دخول النبي ﷺ إلى مكة لأداء العمرة[2]، لما يتمتع به من شخصية مؤثرة لدى قريش واستطاع أن يستميل أكثرهم. وكان كاتب النبي ﷺ. ويحبه ويكرمه لحيائه ودماثة أخلاقه.

وبعد أن تولى عثمان ﷺ الخلافة خصص مبالغ معينة من بيت المال لاستقبال الرسل الأجانب وتغطية نفقات إقامتهم[3]. وعلى الرغم من التطور الذي يشهده القانون الدولي في الوقت الحاضر إلا أن الدول لا تتحمل نفقات إقامة البعثات الأجنبية في بلدها.

وكان عثمان ﷺ أول من عقد مؤتمرا دبلوماسيا جمع فيه عماله في الأمصار للتباحث حول أمور الدولة بحضور كبار الصحابة من المسلمين للتباحث في شؤون الدولة[4].

---

(1) جون باجوت كلوب، مصدر سابق، ص 54.

(2) الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1 مكتبة النهضة المصرية 1964 ص 253.

(3) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي، المسلمون والجرمان، دار المعرفة، القاهرة: 1990ص 281.

(4) رزق الله منقريوس الصدفي، مصدر سابق، ص 39.

المبحث الرابع

الدبلوماسية في عهد علي بن أبي طالب

وضع الأمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه القواعد السليمة التي يتم بها اختيار الرسل. وعدّ الرسول معبرا عن مرسله فقال : " رسولك ترجمان عقلك وكتابك أبلغ ما ينطق عنك "[1] . وهذا يعني أن الرسول معبر عن مرسله. ويتكلم باسمه. ورغم أن الأمام علي عد الرسول معبرا عن مرسله إلا أنه جعل الكتاب الذي يحمله الرسول ابلغ ما ينطق به المرسل.

ولما كانت وسيلة الرسل هي الكلام فقد كان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ركن العربية في علومها كما كان ركن الإسلام في علومه. وقد ساعده تبحره فيها ومنطقه السليم وقواه الذهنية الخارقة أن يبادر إلى ضبط العربية بأصول وقواعد تستند إلى الدليل والبرهان، مما يشير إلى مقدرته العقلية على الوزن والقياس. فهو بحق واضع الأساس في العلوم العربية وممهد طريقها لكل من أتى بعده. ومما يثبته التاريخ أن عليا هو واضع علم النحو. فقد دخل عليه تلميذه وصاحبه أبو الأسود الدؤلي يوما فرآه مطرقا مفكرا فقال له : فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا – يعني الكوفة – لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية ثم القي إليه صحيفة فيها كلام اسم وفعل وحرف...الخ. فقال الإمام علي كرم الله وجهه اكتب ما أملي عليك..[2]

ومن كتاب له إلى بعض عماله: " أن دهاقين أهل البلد شكوا منك غلظة وقسوة واحتقارا وجفوة. ونظرت فلم أرهم أهلا لان يدنوا لشركهم. ولا أن يقصوا ويجفوا

---

(1) نهج البلاغة مرجع سابق، ص 72.

(2) محمد عزة دروزة ، مصدر سابق ، ص101 .

لمهدهم. فالبس لهم جلبابا من اللين وتشويه بطرف من الشدة. وداول لهم بين القوة والرأفة. وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء إن شاء الله"[1].

وتعد هذه القواعد من أهم القواعد الدبلوماسية التي يجب أن يتبعها كل دبلوماسي. ذلك أن الغلظة والقسوة واحتقار الآخرين تتنافى مع مهمة المسؤول أو الدبلوماسي.

ومن رسائله إلى الأشعث بن قيس عامله في أذربيجان: "وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة وأنت مسترعٍ لمن فوقك. ليس لك أن تفتات في رعيه ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال الله عز وجل وأنت من خزانه حتى تسلمه إليَّ، ولعلي أن لا أكون شر ولاتك لك والسلام "[2].

ومن وصيته إلى الحسن والحسين: "... أي بني إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر مخيلة وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفوق وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت في مقتبل العمر ومقتبل الدهر ذو نية سليمة ونفس صافية..."[3].

(1) محمد عزا دروزة ، مصدر سابق ، ص 264 .

(2) نهج البلاغة مرجع سابق، ص288 .

(3) نهج البلاغة مرجع سابق، ص309 .

الفصل الثاني

الدبلوماسية الإسلامية في العهد الأموي

يعد العصر الأموي من أهم العصور الإسلامية التي استخدمت الدبلوماسية في إنشاء الدولة وإدارتها والتعامل بينها وبين الدول الأخرى. فالأمويون كانوا بارعين بالدبلوماسية لدرجة كبيرة. فإذا أرادوا شيئا لجأوا أولا إلى الوسائل الدبلوماسية للحصول عليه. ولم يستخدموا الحرب إلا عند الضرورة.

وبظهور الدولة الأموية ظهرت الإمبراطورية الرومانية التي قوي ساعدها واشتد عودها وأصبحت ندا قويا للدولة الأموية. وقد تعامل الأمويون مع الروم بالحرب أحيانا وبالدبلوماسية أحيانا أخرى .

وقد نقلت الدولة الأموية الخلافة من العراق إلى الشام. وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية التي امتدت من أوروبا إلى الصين. وقد استطاع الأمويون السيطرة على أرجاء دولتهم المترامية الأطراف بسبب حكمتهم الدبلوماسية وقدرتهم على الإدارة. فهم بارعون في القتال كما انهم بارعون بالدبلوماسية فحيث ما وجدوا ان القوة غير قادرة على تحقيق أهدافهم تراجعوا ولجأوا إلى الدبلوماسية لأخذ ما لم يحصلوا عليه.

وقد تمكنوا من إقامة الدولة العربية الاسلامية بالأندلس مما زاد في علاقاتهم الدبلوماسية بسبب مجاورتهم العديد من الدول الأوربية. واستطاعوا التفاعل مع هذه الدول بشكل كبير.

وسنتناول الدولة الأموية في دمشق والدولة الأموية في الأندلس في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول
الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية في دمشق

انتقلت رئاسة الدولة العربية الإسلامية إلى أسرة عربية من قريش هي الأسرة الأموية نسبة إلى أمية بن عبد شمس . ويعد الخليفة معاوية المؤسس للخلافة الأموية التي نشأت عام 660م . وقد حاول استخدام الأساليب الدبلوماسية في كسب ود الناس فقيل عنه إنه يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى وثق به أكثر الناس.

وقد وصف معاوية بأنه رجل دبلوماسي متمرس، حليم يحتفظ برباطة جأش مطلقة. ويتخذ القرارات الحاسمة بعد تفكير طويل حكيم. ويرفض استخدام القوة لتسوية المنازعات. وينظر إلى القضية من كل جوانبها ليرى جميع القوى الفاعلة فيها ليتمكن عن طريق إعادة ترتيب هذه القوى بصورة بارعة من الوصول إلى تسوية مقنعة، ويعامل خصومه المغلوبين بسخاء وشهامة لا غطرسة فيهما. مما يحفظ لهم كرامتهم واحترامهم ويكسبه ولاءهم.

وقد كان معاوية ذا عقلية واقعية وسياسية إلى حد بارز، مميزاً بالانضباط ورباطة الجأش. وقد عمل على إقامة نظام مستقر في وقت كانت الفئات السياسية المختلفة متباينة إلى حد بعيد ومتناقضة بحيث كان يستحيل التوفيق بينها في حالات كثيرة. وكانت ميزة الحلم التي تحلى بها معاوية هي الصفة المناسبة في هذه الحالة فقد أدرك أنه لا مجال لأية فئة أن تحقق جميع رغباتها تحقيقا كاملا. فاستغل الرغبة الشاملة بالسلم للوصول إلى تفاهم عام قائم على تسوية سلمية متجنبا اللجوء إلى غطرسة السلطة. وإذا كان معاوية خليفة للمسلمين جميعا إلا إنه لم يتعامل مع القادة العرب وكأنه الأول بين المتساوين. ولم يدعِ أية سلطة دينية[1].

ومن التعمق في دراسة حياته وأسلوبه بالتعامل مع الآخرين وجدنا انه كان يبحث عن عوامل اللقاء بين الناس في الإطار العام. ويترك ما يمكن أن يميز الناس عن بعضهم ويثير تناقضاتهم. فهو الرجل المرن القادر على التراجع من غير التنازل عن مطالبه. فهو يقدم اللين على الشدة. ويدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف. ويتمتع بقدرة كبيرة على كظم الغيظ.

---

(1) محمد عبد الحي محمد شعبان ، مصدر سابق، ص 90.

وقد وردت صفات معاوية وقدرته على التأثير بالناس في العديد من الكتب التي ارسلها إليه الإمام علي كرم الله وجهه. منها: " وارديت جيلا من الناس كثيرا خدعتهم ببغيك والقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم وتولوا على أدبارهم وعولوا على أحسابهم"[1].

وقيل عن معاوية بأن صفاته أهلته للنجاح في المنصب الكبير الذي تولاه. فمنصب الحاكم يحتاج إلى حزم أحيانا والى سماحة أحيانا أخرى. وكان معاوية موهوبا من الناحيتين. وهو يتقن السياسة وحسن التدبير لأمور الدنيا وكان عاقلا، حكيما، فصيحا، بليغا يحلم في موضع الحلم ويشتد في موضع الشدة إلا ان الحلم كان الغالب عليه.

وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة. مشغوفا بها، حسن الصلة بأفذاذ الرعيته، فلا يزال أشراف قريش يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضي حوائجهم ولا يزالون يحدثونه اغلظ الحديث ويجبهونه اقبح الجبه وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة. ومن حلمه أنه قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة: يا قيس والله ما كنت أود ان تنكشف الحروب التي كانت بيني وبين علي وأنت حي. فأجابه قيس: والله إني كنت أكره ان تنكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين فلم يقل له شيئا[2].

ومن اشهر القواعد الدبلوماسية التي وضعها معاوية والتي لا تزال معمول بها في التعامل الدبلوماسية وتعد مضربا للأمثال الدبلوماسية، ما يطلق عليه بـ" شعرة معاوية ". حيث قال : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها[3].

ومن فلسفته الدبلوماسية قوله: إني لا أحمل سيفي على من لا سيف له، وإن لم تكن إلا كلمة يتشفى بها متشف جعلتها تحت قدمي ودُبرَ أذني. وقال: إني لأرفع

(1) نهج البلاغة مرجع سابق، ص 218.

(2) الدكتور احمد الشلبي، مصدر سابق، ج2، ص38.

(3) المصدر السابق، ص 38.

نفسي عن أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من علمي، وعورة لا أداريها بستري، وإساءة أوسع من إحساني. وقوله : ما من شئ ألذ عندي من غيظ أتجرعه[1].

وعلى الرغم من الدبلوماسية التي كان عليها معاوية إلا انه كان قائدا عسكريا بارعا. فقد تمكن من تنظيم الجيش تنظيما متقدما وإنشاء أسطول بحري استطاع ان يهزم الأسطول البحري الرومي. وتتقدم قواته البرية الى حصار بيزنطة عاصمة الروم الشرقية عدة مرات[2].

ولم يتظاهر معاوية بأنه يهدف إلى التغيير. فقد احترم القوى القائمة وحصر نفسه بموازنة حكيمة بين قوة وأخرى. واعتمد على القرشيين بتعيينهم في مناصب مهمة، مفضلا استخدام مكانتهم وقدراتهم في خدمته لا في مقاومته. وكان في الوقت ذاته سياسيا لبقا إلى حد كاف إذ تتصل من القرشيين المتطرفين الذين ثاروا مع طلحة والزبير . وكان شديد العناية أيضا باحترام قوى المجموعات القبلية المتعددة . وعامل الذين ناصروا عليا كرم الله وجهه بشهامة رجل الحلم غير المذلة وغير المتغطرسة فكسب بالمقابل دعمهم الذي كان بحاجة إليه[3].

وكان معاوية يهدف إلى المركزية في السلطة ولكنه من جهة أخرى يدعم القبائل المتشددة في تمسكها باستقلاليتها في الولايات. سواء أكانت مناصرة أو معارضة له. فقد أدرك ضرورة السماح للقبائل بان تتمتع بقسط من الاستقلال الذاتي. وكانت سياسته تقوم على تأكيد سلطة الحكومة المركزية حين يكون ذلك ممكنا. غير أنه كان يتراجع بلباقة أمام اعتراض رجال القبائل. وكان هذا الاحترام للأمرين معا أي للاستقلال الذاتي للقبائل ولسلطة الحكومة المركزية يتطلب كل اللباقة والحنكة السياسيتين من معاوية ومن الولاة الذين كان يختارهم للولايات . وعمل على فتح باب الحروب الأجنبية في إغناء بيت المال المركزي الذي وفر له القوة لتحقيق أهدافه[4].

وقد ابتكر معاوية أمورا في خلافته لم يُسبق إليها. فهو الذي أمر أن ترفع الحرب بين يديه، وهو الذي وضع المقصورة ليصلي بداخلها في المسجد ليأمن هجمات الأعداء

(1) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 38.

(2) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 125.

(3) محمد عبد الحي محمد شعبان ، مصدر سابق، ص 91

(4) المصدر السابق، ص 91.

عليه حين صلاته. وطور نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة في مراكز على طول الطريق فيركب صاحب البريد ويسرع حتى يصل إلى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا. وانشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم[1].

وتعمل الدول في الوقت الحاضر بما اصطلح على تسميته "تصدير المشاكل". فعندما تواجه أزمات داخلية وحروبا أهلية تعمد الدولة إلى خلق مشاكل خارجية كإثارة مشاكل قديمة مع دولة أخرى وقد يتطور ذلك إلى استخدام القوة العسكرية. من اجل ان تقف كل القوى الوطنية إلى جانب الدولة وتترك مشاكلها الجانبية .

وقد استخدم معاوية هذه السياسة. فعندما كانت الدولة الأموية تواجه ظروفا وفتنا داخلية لجأ إلى الحروب العديدة مع الروم وغيرهم وكثف الفتوحات. فأصبح الجهاد غاية الجميع. واتجهت جيوشه شرقا وغربا. وبذلك استطاع إشغال القبائل المتصارعة. وأوجد لها عملا اشغلها فيه، وأبعدها عن بعضها إلى مناطق بعيدة ونائية. وشاركها في الغنائم، مما حفزها على خفض الحروب وتناسي المشاكل التي كانت قائمة بينها. واصبح هم الجميع هو الفتوحات. وبهذه الطريقة استطاع ان يوطد الحكم في الداخل ويوسع الدولة في الخارج.

ومن فطنة معاوية انه اعتمد على عمرو بن العاص. رغم العداء فيما بينهما. ذلك ان أحاسيس عمرو تجاه معاوية لم تكن ودية، ولا كانت أحاسيس معاوية ودية تجاه عمرو. ولكن إدراك معاوية أن عمرا أحد الدهاة المشاهير وانه بحاجته . وإدراك عمرو انه يستطيع أن يجني ثمار ما يقدمه لمعاوية من خدمات. هذا الإدراك من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ويخفي كل منهما ما في نفسه تجاه الثاني. وقد كان ذلك الإحساس المكنون يظهر من حين لآخر، ولكن كلا منهما كان من القوة والفطنة بحيث يستطيع أن يعيد هذا الإحساس إلى ستره ومخبئه[2]. وقد حاول كل منهما ان يتظاهر بالمودة تجاه الآخر. وان يكظم غيظه تاركا للأيام تصفيه الأمور وبلورة النتائج. فظهرت في الاثنين لقاء الأهداف وكنمت في نفسيهما عوامل الفرقة.

ووازن كتاب التاريخ العربي بين ضرورة استخدام القوة أو استخدام الدبلوماسية عندما يتطلب الأمر كل بحسب ظروفه. ومن تلك الموازنات ما جاء عن حكم الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق واتباعه أساليب الوحشية والقتل ، حيث كان خصوم أهل

---

(1) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج 2 ص 39.

(2) المصدر السابق، ص41.

العراق معجبون بالحجاج ويعتبرونه الرجل الوحيد الذي عامل أهل العراق بما يستحقونه، وقد اختير ثلاثة من الحكام القساة لمعالجة الوضع في العراق على التوالي. وهم زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف. وقيل بان الدموية، التي استعملها هؤلاء الثلاثة في العراق وفرت عهودا من الاستقرار والسلام. بينما تميزت عهود الولاة الضعفاء والمعتدلين بالاضطراب والفوضى. وقد اعتقد هؤلاء الولاة ان العراق لا يمكن ان يحكم إلا بالقوة . وقد ظهر عدم دقة هذه النظرية من الناحية العملية. حيث شهد العراق عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية الأول والعديد من العهود اللاحقة سلاماً واستقراراً دون استخدام القوة[1]. وهذا يعني ان استخدام الوسائل الدبلوماسية حتى في حالة الثورة والعصيان اكثر نفعا من استخدام القوة. ذلك ان الظلم لا يولد إلا ظلما.

وقد اهتم معاوية بالدبلوماسية. فأنشأ ديوان الخاتم. وهو عمليه نسخ كتبه وأوامره وبلاغاته ويودع هذا الديوان في مكان أمين بعد حزمة بخيط وختمه بالشمع الأحمر بخاتم صاحب الديوان أو رئيس الديوان. ويمكن ان يقارن اليوم بما يسمى بالأرشيف والسجلات والأضابير[2].

وتوفي معاوية وجاء من بعده ابنه يزيد سنة 60هـ ـ 680م. وقد واجه يزيد حروبا وثورات داخلية عديدة. ولكنه مع ذلك استطاع أن يحدث خلال حكمه القصير وفي شكل لا يخلو من البراعة إصلاحا في الإدارة المالية وان يوجه اهتمامه إلى ري الغوطة واحة دمشق. وكان ابنه معاوية الثاني حدثا عندما بويع في دمشق بالخلافة ولكنه توفي بعد فترة قصيرة جدا من حكمه[3].

وفي خلافة معاوية الثاني سنة 64هـ ومروان بن الحكم نشبت حروب في سورية بين القبائل العربية وحدثت ثورات في أرجاء الدولة الأموية. وقيل أن مروان كان يتصف بحكمة وسداد رأي وفصاحة وشجاعة وكان يجيد قراءة القرآن. ويروي كثيرا من الأحاديث عن كبار الصحابة وبخاصة عمر بن الخطاب وعثمان. وإليه يرجع الفضل في ضبط المكاييل والموازين. وجاء من بعده عبد الملك بن مروان[4].

---

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 302.

(2) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 315.

(3) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 130.

(4) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 54.

وواجه عبد الملك سنة 65هـ حروبا داخلية أيضا وحربا مع الروم. وقام بضرب النقود الخاصة بالدولة الأموية سنة 693م ليحرر النقد العربي من النقد الرومي. وعربت الدواوين بعد ان كانت باليونانية وحد من الحريات الممنوحة للمسيحيين. وادخل عبد الملك روحا جديدة إلى بلاطه فلم يعط شيوخ القبائل أهمية في بلاطه وإنما حكم الدولة حكما مطلقا. ووسع من نفوذ الفقهاء. وأدى الفروض الدينية بأمانة وحرص، ولكن هذا لم يمنعه من أن يدعو إلى بلاطه الشاعر المسيحي " الاخطل " الذي ولد في الحيرة من قبيلة تغلب. وضمن عبد الملك ولاء الأمصار بأن أعطى كلاً منها إلى أحد أنسبائه ما خلا العراق[1].

وكان عبد الملك أول من عرب النقود وسكها. فكان أول من ضربها من المسلمين وذلك سنة 76هـ. وكان السبب الذي دعاه لضربها انه كتب في صدور الكتب إلى الروم " قل هو الله أحد" وذكر النبي. فكتب إليه ملك الروم أنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون. فعظم عليه ذلك فاحضر خالد بن يزيد بن معاوية واستشاره بالأمر فقال له حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة ففعل ثم نقش الحجاج فيها " قل هو الله أحد" فكره الناس ذلك لأنه قد يمسها غير طاهر وفيها آية القرآن. ثم بالغ في تخليص الذهب والفضة من الفض وزاد ابن هبيرة عليه في أيام يزيد بن عبد الملك. ثم زاد خالد القسري عليهم في أيام هشام. ثم افرط يوسف بن عمرو من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية[2].

ويرى المؤرخون ان عبد الملك وضع نظاما رفيعا لتنظيم البريد . فقد اعتنى بديوان الرسائل[3]. وطور وسائل البريد على أساس ربط دمشق بجميع أرجاء الدولة الإسلامية. وكان يقوم على أساس وضع الجياد المضمرات في عدة أماكن. على طول الطرق الممتدة من دمشق إلى الأطراف الأربعة من الأمصار الإسلامية واستخدم العرب أيضا حمام الزاجل في مراسلاتهم[4].

(1) جون باجوت كلوب ، مصدر سابق، ص 181. وكارل بروكلمان مصدر سابق ص 136.

(2) رزق الله منقريوس الصدفي ، مصدر سابق، ص 63.

(3) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 314.

(4) جون باجوت كلوب ، مصدر سابق، ص 218.

ولم تكن مهمة البريد في البداية حمل الرسائل الشخصية وإنما حمل الرسائل الرسمية. وبعد ذلك اتجه إلى حمل الرسائل الشخصية. وكان عامل البريد في الإمارات والأمصار من أهم موظفي الدولة. إذ انه كان يجمع في عمله بين مراقبة البريد وبين عمل المخابرات. وكان من أهم أعماله تزويد مقر الخلافة في دمشق بالتقارير السرية عن كل ما يقع في المكان الذي وصل إليه. فكان صاحب البريد يمثل دور المراقب الفعال على أعمال الحاكم أو الأمير وغيره من كبار الموظفين. وكان عليه ان يبعث التقارير إلى الخليفة ويخبره عن انتشار الدعوات المعادية للدولة الأموية. وعن الضرائب وملتزماتها وشراء عمال الخليفة للجواري وغير ذلك من الأمور. وكان يطلب من صاحب البريد ان يعد تقريرا مفصلا عن كل موضوع، حتى تتمكن الحكومة المركزية في دمشق عند تلقيها تقاريره من توزيعها على الدواوين المختلفة[1].

وإذا أنيطت بصاحب البريد مراقبة عمال الخليفة، فإن ذلك لا يعني التدخل في أعمال الولاة. لان مهمته تقتصر على إشعار الخليفة بكل ما يحصل.

وذهب البعض إلى ان لفظ البريد لفظ فارسي معرب، اصله بلغة الفرس "بريده دم" ومعناه البغل مقصوص الذنب. لأن الفرس كانوا يقصون أذناب البغال المخصصة للبريد لكي تتميز عن غيرها من الدواب الأخرى. ثم أطلقوا عليها اسم البريد تجوزا على الرسول. وهذا التفسير القائم على نظام البريد يرجع إلى أكاسرة الفرس الذين وضعوه وحسنوه واحكموه. وقيل ان الروم عرفوا أيضا نظام البريد وعنوا بأمره وأصلحوه. وقد احتاجه العرب واستخدموه ونظموه سواء أكانوا قد نقلوه عن الفرس أم عن البيزنطيين. ثم حاولوا أن يجدوا له في العربية اشتقاقا فقيل إنه من برد او أبرد بمعنى أرسل كما في قولك بردت الحديد إذا أرسلت منه ما يخرج منه وهذا الاشتقاق لو صح لا ينفي أن العرب في نظام البريد مقلدون[2].

ونرى ان العرب لم يتأثروا بالفرس في استخدام البريد. فقد استخدم النبي ﷺ الرسل لنقل الرسائل إلى الملوك والأمراء لنشر الدعوة الإسلامية. وفي جميع الأحوال فإن اتصال العرب بالفرس كان قليلا. بينما كان اتصالهم بالروم عن طريق الشام كبيرا. كما سبق القول ان الدول القديمة التي حكمت في وادي الرافدين قد عرفت البريد المنظم.

(1) جون باجوت كلوب، مصدر سابق، ص 329.

(2) الدكتور صبحي الصالح، مصدر سابق، ص 331.

وكان معاوية اول من وضع البريد ثم أتم عبد الملك بن مروان عمل معاوية في تنظيم البريد. فاحكمه واعطاه طابعة النهائي وأمسى يدعى عند العرب "جناح المسلمين". وكان من شدة حرصه على البريد يوصي رجاله بحمل البريد في أي ساعة من ليل أو نهار. فقيل: "فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة"[1].

وقد ساهم تنظيم البريد في عهد الدولة الأموية في اطلاع الخلفاء الأمويين على مشاكل الدولة وإيصال الأوامر إلى الولاة بسرعة كبيرة. كما اعتمد البريد وسيلة استخبارات بجمع الأخبار عن المدن والأمصار وعن الأشخاص وأسلوب الولاة في الحكم وطريقة تعاملهم مع الناس.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك 86 هـ – 705م نشبت الحرب بين الدولة الأموية والروم. حيث فتحت طوانة من أعمال آسيا الصغرى. ثم توسعت الفتوحات في الشرق في بخارى وسمرقند. وفي الغرب اجتاز الأمويون مضيق جبل طارق في تموز عام 711 م ووجهوا ضربة قاضية للمملكة القوطية بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير.

ومن أعماله أنه تعهد الأيتام وكفلهم وعين لهم المؤدبين، كما رتب للزمني من يخدمهم وللاضراء من يقودهم، ورتب لهؤلاء جميعا الأرزاق المنتظمة. ووضع المصابين بمرض الجذام في بيت يرعاهم طبيا حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق وأعطى كل مُقعد خادما يهتم بأمره وأجرى له الأرزاق الوافية. واهتم أيضا بالعمران فأنشأ الطرق ومهدها وبخاصة الطرق المؤدية للحجاز، كما حفر الآبار على طول الطريق. ووظف من يعنى بهذه الآبار ويمد الناس بمائها. وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك[2].

وكان الوليد لا يحسن النحو ويبدو انه لم يكن كثير الاهتمام بتعلم اللغة في صباه. ويقال ان أباه بعد ان يئس من تعليمه طلب من أساتذته ان يتركوه وشأنه. وكان لحنه قد أثار قلق والده الذي تميز ببلاغة القول. وروي ان الوليد أدى فريضة الحج عندما كان عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة. فصعد المنبر في المسجد النبوي وألقى

(1) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 332.

(2) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 73.

خطبة ارتكب فيها عددا من الأخطاء وبينها خطأ في إحدى آيات القران الكريم. وقد اخذ عليه ذلك عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك اللذان كانا يقفان إلى جوار المنبر. غير ان كتاب التاريخ يشيدون بعهد الوليد لأنه كان حاكما حازما وقديرا حققت الدولة العربية في عهده اعظم أمجادها[1].

ومن المآثر الدبلوماسية التي حصلت في عهد الوليد، هي ما يسمى في الوقت الحاضر " باللجوء الدبلوماسي ". فقد أودع الوليد يزيد بن المهلب السجن. ولكنه تمكن من الهرب واللجوء إلى سليمان. فطلب الوليد من أخيه سليمان تسليمه المهلب. غير ان سليمان أبى تسليمه جريا على عادة العرب. وقد توتر الجو بين الخليفة وأخيه. مما جعله ينذره بعواقب وخيمة لولا ان يزيد بن المهلب آثر تسليم نفسه إلى الخليفة. فقرر سليمان في النهاية أن يرسل ولده مع يزيد مقيداً بنفس القيد ليرجو الخليفة ان لا يلوث شرف أبيه كعربي يلحق الأذى بمن أجاره. وتبين ان الوليد أطلق سراح يزيد[2].

وبعد وفاة الوليد جاء أخوه سليمان سنة 96هـ، واتخذ مقرا له في الرملة بفلسطين حيث كان يعيش قبل ان يستلم الخلافة. واكتسب محبة السكان وولاءهم، وجعل دابق في شمالي سورية معسكرا كبيرا للحرب ضد البيزنطيين وكان كثيرا ما يختلف إليه بنفسه ابتغاء الأشراف على سير العمل فيه . بيد انه لم يوفق إلى تحقيق نصر حاسم رغم تقدم جيوشه غربا وتطويق القسطنطينية عاماً كاملا[3]. وكان سليمان محبا للغزو. وقد آثر المصلحة العامة للمسلين على مصالح ولديه . فولى من بعده عمر بن عبد العزيز، وكان سليمان يمتاز عن غيره بأنه تأنق في قصره بالرملة. وامتاز بشباب مورق وجمال رائع وكان يعجب بنفسه إذا نظر في المرآة ويقول أنا الملك الفتى[4].

ومن الأعمال الدبلوماسية المشهورة في هذه المرحلة هي السفارة العربية إلى الصين. فعندما تقدم قتيبة سنة 713م لاحتلال المدن الصينية طلب إمبراطور الصين من قتيبة إرسال وفد عربي إلى عاصمة الصين. وقد اختار قتيبة وفدا من اثني عشر رجلا يتميزون بالقامة الفارعة وبلاغة القول وجهزهم تجهيزا رائعا. ثم زودهم بتعليماته وأمرهم بالخروج من "كاشغر". وعندما تهيأوا لمقابلة امبراطور الصين للمرة الأولى

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 306.

(2) المصدر السابق، ص 307.

(3) كارول بروكلمان ، مصدر سابق، ص 148.

(4) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 78.

استحم أعضاء الوفد ولبسوا احسن ثيابهم وأجملها وتعطروا بالطيب. ولم تطل المقابلة الأولى. ولم يدر فيها حديث كثير وانصرف العرب إلى أماكن نزولهم، وفي أثناء ذلك راح الإمبراطور يسأل رجاله عن رأيهم في هؤلاء الغرباء فقالوا له انهم يظنونهم اقرب إلى النساء بملابسهم المترفة الناعمة وروائح الطيب المنتشرة منهم(1).

وعندما حان موعد المقابلة الثانية ولبس الرسل العرب ملابس بسيطة نظيفة سأل الإمبراطور رجاله بعد خروج العرب عن رأيهم فيهم فقالوا انهم بدوا هذه المرة اد كثر رجولة. ولبس العرب في المقابلة الثالثة دروعهم وخوذهم وسيوفهم إلى جوانبهم بينما تعلقت قسيهم بأكتافهم ووصلوا إلى قصر الإمبراطور على متون جيادهم المطهمة، وقد اشرعوا رماحهم في أيديهم وعندما وصلوا إلى الإمبراطور، اسندوا رماحهم إلى الأرض وترجلوا عن جيادهم ثم تقدموا من عرش الملك بسلاحهم و دروعهم وكأنهم ماضون إلى القتال. وعندما انتهت المقابلة عادوا فاستقلوا جيادهم و راحت جياده به خببا وهم يشتركون في معركة صورية بالسيوف والرماح وعاد الإمبراطور فسأل رجاله عن رأيهم فيهم فردوا بأنهم لم يروا من قبل رجالا مثل هؤلاء(2).

وقيل بان إمبراطور الصين استدعى في النهاية رئيس الوفد العربي إلى مقابلة شخصية. حيث جرى بينهما الحديث الوحيد الذي رواه المؤرخون العرب وهو أن الإمبراطور استهل حديثه قائلا ان الوفد العربي قد رأى اتساع مملكته وان أرواح أعضائه بين يديه ثم قال انه سيوجه إليه سؤالا فإن كذبه القول قتله وراح بعد يسأله عن السبب في تغيير قيافتهم في كل مقابلة. فرد الموفد لعربي بأنهم لبسوا في اليوم الأول ما يلبسونه في بيوتهم وبين نسائهم وعائلاتهم أما في اليوم الثاني فقد لبسوا الملابس التي يقابلون بها حكامهم ولبسوا في اليوم الثالث الملابس التي يقابلون بها أعداءهم.

ورد الإمبراطور بأن هذا التعليل مقبول ثم قام فقال أما لان فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له أن ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا فسوف ابعث عليكم من يهلككم ويهلكه.

وقال العربي بمنتهى الشجاعة والجرأة ... كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون . وكيف يكون حريصا من خلف لدنيا قادرا

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 295.

(2) المصدر السابق، ص 296.

عليها وغزاك؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه.

فأجابه إمبراطور الصين .. فما الذي يرضي صاحبك؟

فقال هبيرة الباسل .. حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية.

فقال الإمبراطور مستسلما دون أن يحس بالمهانة من دفع الجزية كما يبدو ... إننا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من أرضانا فيطأها ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها.

فدعا إمبراطور الصين بصحاف من ذهب فيها تراب من ارض الصين وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من أبناء ملوك الصين ليختمهم قتيبة ثم يعيدهم إلى بلادهم. ثم أجاز الوفد بعد ان حمله بالعطايا والهدايا فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمان و ردهم ووطئ تراب الصين[1].

ومن الأمور التي حصلت في عهد سليمان محاولة قتيبة بن مسلم ان يستقل بالعراق كدولة مستقلة عن الدولة الأموية في الأندلس خاصة وانه كان يملك جيشا قويا في الشرق ومعه جيشه الظافر. فقد أخذ قتيبة بالنصيحة السيئة وجمع رجاله وراح يخطب فيهم ويعلن عصيانه على الخليفة الجديد في دمشق. وراح يقول لهم انهم سيجدونه عراقيا في كل شئ فهو عراقي المولد، وعراقي من أبيه وامه، وعراقي في عواطفه وتفكيره وولادته. وأخذ يناشدهم ان لا يسمحوا لجيش الشام بالمجيء إلى العراق لتدمير بلادهم ثم راح يبين لهم مدى ما هم فيه من رخاء وازدهار. حيث الأمن مستتب والطرق مامونه، والتجارة رائجة وان في وسعهم ان يتنقلوا الآن بأمن وحرية إلى بلخ وبخارى وسمرقند وأنهى خطابه مناشدا إياهم ان يقفوا إلى جانبه لمنع أهل الشام من التدخل في شؤونهم. وعندما لم يستجب إليه قادة الجيش من رؤساء القبائل قام بسبهم وإهانتهم الأمر الذي شعروا معه بالإهانة فوثبوا عليه فقتلوه. وتوقف الزحف في الشرق بموت قتيبة لأنه ليس من السهل العثور على قائد في قدرته[2].

وعلى الرغم من أن القادة الذين كانوا مع قتيبة هم من العراق، إلا انهم وجدوا أن قوة الدولة الإسلامية بوحدتها. وإن إقامة دولة ثانية في العراق ستجعلها ندا للدولة

---

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 297.

(2) المصدر السابق، ص 309.

الأموية مما يؤدي إلى الحروب المروعة بين الدولتين المسلمتين. ولهذا فلم يقبلوا بفكرة قتيبة بالاستقلال بالعراق.

وبعد وفاة سليمان جاء ابن عمه عمر بن عبد العزيز سنة 99هـ. وكان عمر أميرا على الحجاز. وخالط الفقهاء والتابعين وألف منهم مجلسا دائما يستشيرهم ويعد من افضل الخلفاء الأمويين . وهو أول خليفة أموي أوقف الفتوحات الإسلامية فاصدر أمره إلى الجيوش الإسلامية العامة في آسيا الصغرى بالرجوع رغبة منه في الانصراف إلى الإصلاحات الداخلية وتحقيق الرفاهية. غير انه لم يستطع ان يمنع عماله من التقدم العسكري في أقصى الغرب. فتجاوزوا جبال البرانس وانقضوا على فرنسا الجنوبية. حيث أقاموا مركزا دائما للقيادة في اربونة. واستمال العلويين والمسيحيين وخفف من ثقل الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وآيلة ونجران وساوى بين الموالي والعرب في الوضع الشرعي. وأعفى المحاربين في خراسان من الخراج. وقام بالإصلاح المالي[1].

وقيل ان عمر بن عبد العزيز أوقف الحروب والفتوح من اجل الإصلاحات الداخلية. وانه أراد الاعتماد على الوسائل الدبلوماسية لنشر الدعوة الإسلامية والقضاء على خصوم الدولة الأموية. وانه استبدل دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. كما حاجَّ المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والإقناع. وقيل ان عمرا انتصر في الحالتين. انتصر في دعوته لغير المسلمين للإسلام وانتصر في مناظراته مع الثائرين من المسلمين. وكانت سيرته العطرة خير مساعد له لتحقيق هذا الانتصار . فدخل ملوك السند الإسلام بدعوته وتبعتهم شعوبهم. كما دخل الإسلام كثير من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام من قبل على الرغم من دخول الإسلام إلى بلادهم. مكتفين بدفع الجزية والدخول في الذمة. ثم جذبتهم سماحة عمر إلى الإسلام مما جعل عصره يسمى " بعصر إسلام البلاد المفتوحة "[2].

وكانت الدبلوماسية التي استخدمها عمر بن عبد العزيز قد اثرت في إسلام العديد من المسيحيين والمجوس وغيرهم. ودخولهم الإسلام برغبة وليس برهبة.

أما الخوارج فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم المعادي والتقوا مع عمر للتفاهم معه فغلبهم بخلقه وعمله وبيانه وانصاع له كثيرون منهم. وخفف عمر من أثقال الخراج الذي يؤخذ من النصارى. وأوقف اخذ الجزية ممن دخل الإسلام منهم فدخل

(1) كارول بروكلمان ، مصدر سابق، ص 150.

(2) الدكتور احمد شلبي ، مصدر سابق، ج2، ص 86.

الناس الإسلام تقديرا له ولعمر خليفة المسلمين . وساوى عمر بين العرب وغيرهم كما تقضي شريعة الإسلام. فأوقف مشكلة الموالي التي اكثر المؤرخون الحديث عنها. وامتاز بكثرة الإصلاحات التي تدل على النضج في التفكير والوعي الكامل . وكان يرسل بكتب إلى عماله بشكل دوري، وهو أشبه بنشرة دورية يشرح فيها بعض المشاكل. وتمثل هذه الكتب مواد القانون الدستوري للدولة الإسلامية في عهد عمر. ونظم الحالة الاقتصادية للدولة الأموية حيث تشير المراجع إلى ان الفقر والعوز والحاجة قد اختفت في عهده. ولم يعد لهما وجود تقريبا. وقيل ان مولاة سوداء اسمها فرتونه من مصر أرسلت له خطابا تقول فيه ان عندها حائطا قصيراً وان دجاجها يضيع بسببه. فرد عليها عمر يذكر انه كتب لعامله في مصر ليرفع لها الحائط ويؤمن دجاجها[1].

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد الثاني بن عبد الملك 101هـ. ورغم ما قيل عنه فقد تمكن من توحيد الإدارة في مكة والمدينة وادخل إصلاحات على ديوان القبائل في مصر. وجاء من بعده أخوه هشام 105هـ. واتخذ قصرا له في الرصافة. وقام بتجفيف مستنقعات دجلة الأدنى حول مدينة واسط، فأحيا أراضي واسعة للزراعة. وقد حارب هشام البيزنطيين واشترك في القتال بنفسه عندما هاجم البيزنطيون ملطية بعد ان انزلوا بالعرب هزيمة قاسية. وقد اندفع العرب تجاه الغرب وواجهوا تقدمه تجاه نهر لوار. وقيل أن هشام اشتهر بالحلم والعفة ونظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة[2].

وجاء من بعده ابن أخيه الوليد الثاني سنة 125هـ. ثم خلفه يزيد الثالث سنة 126 وإبراهيم بن الوليد سنة 126 هـ. وقام بعد ذلك مروان بن محمد سنة 127هـ وهو الذي قاد عصيانا للسيطرة على الخلافة الأموية. فنقل مقر إقامته إلى حران. وانتهت الدولة بثورة العباسيين عليهم. وقيل ان مروانا كان شجاعا صاحب دهاء ومكر. وكانت له خبرة واسعة في الحروب. وألف جيشا نظاميا[3].

وقد شهدت الدولة الأموية تطورا جديدا في نظام الحكم وانتقال السلطة. ومن أهم التطورات التي حصلت في عهد الدولة الأموية ما يأتي:

(1) الدكتور احمد شلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 89.

(2) المصدر السابق، ج2 ص 96.

(3) المصدر السابق، ج2 ص 106.

1. انتقال عاصمة الدولة العربية الإسلامية إلى دمشق التي أصبحت من كبرى المدن العربية الإسلامية ومركزا حضاريا وفكريا مهما.
2. استقرار الأوضاع في مناطق الدولة العربية الإسلامية كافة بفضل السياسة التي سار عليه الخلفاء الأمويون الأوائل واعتمادهم على عدد من الولاة المخلصين الذين يتمتعون بالكفاءة الإدارية. وقسمت الدولة إلى سبع ولايات كبرى يتبعها عدد من المدن والنواحي.
3. تحول الخلافة من نظام انتخابي قائم على الشورى في العهد الخلفاء الراشدين إلى نظام وراثي غير مباشر وهو تطور جديد في النظام السياسي أملته الأحداث التي أعقبت وفاة الخلفاء الراشدين.
4. بروز مكانة العرب والاعتماد عليهم في الأمور السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية. فكان منهم المستشارون والولاة والقضاة و قادة الجيش .
5. تطور اللغة العربية وعلومها واعتمادها لغة للتخاطب وللإدارة وللدواوين وحرصوا على التحدث بالفصيح.
6. بناء بعض المدن لتكون قاعدة عسكرية للجيش العربي الإسلامي مثل مدينة القيروان وبناء أخرى لأسباب إدارية وسياسية مثل مدينة واسط. أو لأغراض سياحية مثل مدينتي الرصافة والرملة في بلاد الشام وغيرهما.
7. تطور الجيش من حيث عدده وتنظيمه وأساليب القتال التي اتبعها. واتساع الدولة الإسلامية.
8. انتشار الإسلام واستمرار الجهاد في سبيل الله فكانت حروب التحرير والفتح العربية الإسلامية قد اتجهت الى المشرق والمغرب فوصلت إلى أقصى امتداد لها[1] .

على الرغم من ان الأمويين استخدموا الطرق العسكرية في استلامهم السلطة، إلا انهم اعتمدوا كسب ود الناس وتأييدهم بالطرق الدبلوماسية لما يتمتع به الأمويون من دهاء دبلوماسي . فقد تمكنوا من كسب ود الأصدقاء والأعداء أو تحييد الأعداء أو تحجيم دورهم أو شق صفوفهم . وتلك ميزة تميزوا بها دون غيرهم من العرب .

(1) الدكتور شاكر محمود عبد المنعم ، الأمويون ، التاريخ العربي الإسلامي ، شركة الوفاق للطباعة الفنية، بغداد 1998 ص 107.

وفي عهد الدولة الأموية تطورت العلاقات الدبلوماسية الإسلامية تطورا كبيرا للأسباب الآتية :

1. اتساع الدولة الأموية وامتدادها لمناطق واسعة ومجاورتها للعديد من الدول والحضارات المختلفة . فقد امتد نفوذها من أوروبا إلى الصين . مما أدى إلى حدوث منازعات ومشاكل عديدة بسبب هذا الاتساع، وهو أمر تطلب الاعتماد على الرسل لتسوية هذه المنازعات والمشاكل الجديدة التي ظهرت بسبب مجاورة الدولة الأموية للعديد من الدول .
2. اشتهر الأمويون بالدهاء الدبلوماسي واعتمدوا الوسائل الدبلوماسية في تثبت خلافتهم والاستمرار بالحكم . وقد جمعوا بين الشدة واللين والموازنة بينهما . ولا يزال الدبلوماسيون في الوقت الحاضر يرددون مقولة " شعرة معاوية " وهي تعني البقاء على العلاقة مع جميع الأطراف في كل الظروف والأحوال[1].
3. اجتذب الأمويون الأشخاص الذين لهم معرفة تامة في المفاهيم الدبلوماسية وأصحاب الشخصيات المؤثرة في الأقوام الأخرى . كالمغيرة بن شعبة الذي قدم خدمات دبلوماسية جليلة أثناء الحروب ضد الإمبراطورية الساسانية ولإتقانه اللغات الأجنبية [2].
4. تطور التجارة في عهد الخلافة الأموية مما أدى إلى اتساع آفاق الدبلوماسية العربية إلى النطاق العالمي . حيث ساعد اتساع التجارة الى الاختلاط بأقوام وأمم أخرى ، وظهور منازعات يتطلب حلها الطرق الدبلوماسية.
5. عندما يحقق الأمويون النصر على أعدائهم فإنهم لا يتركونهم في الذل والمهانة، وإنما يعمدون الى الصلح معهم وترضيتهم بشتى الوسائل وفي مقدمة ذلك إرضاؤهم بالأموال لتعويضهم عن الخسارة التي تعرضوا لها لإزالة البغض والحقد من صدورهم[3] .
6. تمكن الأمويون من تصفية مشاكل الدولة الداخلية. وقد تميزت فترة حكمهم بالفتوحات الخارجية . فكان اتصالهم بالعالم الخارجي كبيرا وواسعا مما أتاح لهم التعامل بالطرق الدبلوماسية مع الشعوب التي جاوروها .

---

(1) أبو عمر احمد بن عبد ربه الأندلسي ، كتاب العقد الفريد ج 1 ط2 مطبعة لجنة التاليف 1948 ص 25.

(2) الدكتور علي ابراهيم حسن ، التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة 1963 ص 267.

(3) الدكتور عبد الأمير دكسن ، الخلافة الأموية ، دار النهضة العربية بيروت ص 162.

7. تميزت الدولة الأموية بتطورها الحضاري ونظمها الحضارية. وقد اتسمت حضارتها بانفتاحها وتفاعلها واقتباس ما ينسجم مع القيم العربية الإسلامية.
8. تطور الدواوين وازدياد عددها مثل ديوان الرسائل والخاتم والبريد والخراج، وتعريب هذه الدواوين في الولايات التابعة للدولة الأموية، بعد ان كانت مكتوبة بالفهلوية في العراق والمشرق وبالرومية في بلاد الشام وبالرومية والقبطية في مصر.
9. استحدث الأمويون منصب السكرتير وأطلقوا عليه " نظام الحجابة ". حيث وضعوا حاجبا على أبوابهم لتنظيم الدخول والخروج إلى مجالسهم، وضمانا لتحقيق الجانب الأمني . فكانوا يختارونهم من بين الذين يثقون بأمانتهم وإخلاصهم ونباهتهم. وكان على الحاجب ان يتصرف بطريقة لائقة مع من يرتاد مجالس الخلفاء لأن ذلك دليل على حسن اختيارهم، وان يعرف أقدار الناس ومنازلهم وطبقاتهم وانسابهم[1].
10. عرف الأمويون الكثير من القواعد الدبلوماسية لتسوية منازعاتهم. فعندما يفشلون في تحقيق أهدافهم بالقوة فإنهم يلجأون الى حل مشاكلهم بالطرق الدبلوماسية عن طريق استخدام الرسل . وكذلك يلجأون للرسل حتى في حالة إنهاء الحرب [2].
11. كان خلفاء الدولة الأموية يوصون رسلهم الذين يبعثون بهم إلى الدول الأجنبية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لتلك الدول. واحترام سيادتها ونظامها السياسي وعدم الاتصال بالأشخاص الذين ترتاب بهم تلك الدول[3].
12. احترم الأمويون الرسل الأجانب . على أساس ان احترام الرسل يعد احتراما لمرسليهم . فعندما أرسل البيزنطينيون رسولا يدعى " يوحنا " الى دمشق بعد حصار القسطنطينية وكان رجلا حكيما لبقا اعتمد عليه البيزنطينيون في تسوية منازعاتهم مع الأمويين ، استقبله الخليفة معاوية استقبالا كبيرا وكان معه عدد من رجال البيت الأموي ، وقد تمكن يوحنا من ان يكسب عطف

---

(1) الدكتور شاكر محمود عبد المنعم ، مصدر سابق، ص 117.

(2) الدكتور علي حسني الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، مصر 1959 ص 375.

(3) الدكتور كاظم هاشم النعمة ، مصدر سابق، ص 26.

معاوية لما أظهره من احترام وتقدير للدولة الأموية، وعقد صلحا معهم أمده ثلاثون عاما[1].

13. اعتمد خلفاء الدولة الأموية من الرسل من لهم قدرة فائقة في ميدان الدبلوماسية. فقد اختار عبد الملك بن مروان رسولا هو الفقيه عامر بن شرحبيل الشعبي فأرسله الى إمبراطور الروم برسالة . وعند الانتهاء من مهمته أرسل معه إمبراطور الروم رسالة إلى عبد الملك يعرب فيها عن استغرابه من استتباب أمر الخلافة له مع وجود عامر بن شرحبيل الشعبي في دولته[2].

14. تعددت أغراض إرسال الرسل الى الخارج في عهد الدولة الأموية. فبالإضافة لاستخدام الرسل لأغراض إنهاء حالة الحرب وتبادل الأسرى، فقد استخدم الرسل من أجل عقد معاهدات التحالف وإقامة علاقات طيبة[3]. ومن جراء اعتماد الأمويين على الدبلوماسية لحل مشاكلهم فقد وصفوا بالدهاء الدبلوماسي[4]. وقد وضعوا برنامجا خاصا للرسل الأجانب ، وظهرت خلال هذه الفترة اتصالات دبلوماسية و نظم خاصة . حيث زود الرسول بخطاب يحمل تعريفا بشخصيته وحدود تخويله بالتحدث باسم الدولة[5].

15. استمرار العلاقات التجارية مع أعداء المسلمين. فعلى الرغم من أن العلاقات بين الدولة الأموية والروم كانت غير جيدة إلا ان الاتصالات الدبلوماسية والتجارية لم تنقطع بينهما. فحينما أراد الخليفة الوليد بن عبد الملك بناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل وفدا إلى إمبراطور الروم فبعث له مائة ألف مثقال من الذهب، ومائة عامل فني، وأربعين حملا من الفسيفساء، وكذلك أهدى للمسجد الأموي في الشام آلات وفسيفساء في وقت كانت الحروب قائمة بين الدولتين في منطقة الأناضول[6].

---

(1) الدكتور إبراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون، مصدر سابق ، ص 282.

(2) يونس عبد الحميد السامرائي ، مصدر سابق ، ص 407.

(3) الدكتور ابراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة 1963 ص 280.

(4) السيد احمد محمد الشحاذ ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ، منشورات وزارة الإعلام العراقية بغداد ص 64.

(5) الدكتور إبراهيم احمد العدوي ، مصدر سابق ، ص 283.

(6) الدكتور كاظم هاشم النعمة ، مصدر سابق، ص 28.

16. اهتمت الدولة الأموية بالرسائل الدبلوماسية حتى أصبحت الرسائل الدبلوماسية صناعة يتخصص بها من يجيدها . فاهتموا بالرسائل وخصصوا لها ديوانا خاصة أطلقوا عليه " ديوان الرسائل " يتولى رئاسته من حذقوا الإنشاء والترسل والبلاغة، وكانوا يكتبون للدول الأخرى في شتى المجالات ، ترسم فيها سياسة الدولة الخارجية. واختاروا لكتابة هذه الرسائل رجال الفقه والبلاغة والأدب والكياسة والدهاء والحيلة والفهم بأمور السياسة ، فأطلقوا عليهم "حكماء دولة وسيوف صولة ورؤوس رعية وعقول أمة ". فكانوا أمراء الكتابة وقدوة الكتاب في زمانهم[1]. أما الديوان الذي تحفظ فيه الرسائل التي تردهم من الخارج فأطلقوا عليه ديوان " الخاتم " . وبذلك فقد أسس الأمويون مؤسسة دبلوماسية أطلقوا عليها "ديوان الرسائل" و "ديوان الخاتم" [2]. كما انشأوا ديوان "الطراز" . وهو الديوان الخاص بتنظيم الأزياء الرسمية والأعلام في الحرب، والشارات والشعارات في جميع الاحوال[3].

17. امتاز الأمويون باسلوب دبلوماسي خاص في استقبال الرسل الأجانب، يدل على هيبة وعظمة الدولة الأموية . وقبل ان يقابل الرسل خلفاء الدولة الأموية يقوم أحد عمالها بتلقين الرسول أصول مقابلة الخليفة . ولا يسكن الرسول إلا في المكان الذي يخصص له . ويمنح الامتيازات والحصانات الدبلوماسية ، كما كانوا يقومون بإطلاعه على الأماكن المهمة للترفيه عنه ويمنحونه الهدايا لدرجة المبالغة فيها . ومن جهة أخرى فإن خلفاء الدولة الأموية كانوا يخشون الرسل الأجانب، وكانوا يحيطونهم برجال الأمن لئلا يقوموا بالتجسس والاتصال ببعض المعادين لهم [4].

ويمكن ان نقول ان الدولة الأموية قد تميزت باتباعها الأسلوب الدبلوماسي لنشر الدعوة الإسلامية ولتوسيع رقعتها وكسب ود الإمراء وشيوخ القبائل العربية.

---

(1) محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، المجلد الخامس ، مكتبة الآداب 1955ص 83.

(2) الدكتور حسن إبراهيم حسن ، ، مصدر سابق ، ص 449.

(3) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 315.

(4) الدكتور إبراهيم احمد العدوي ، مصدر سابق ، ص 283.

المبحث الثاني
الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية في الأندلس

كانت أسبانيا قد قضت سبعة قرون وهي تؤلف جزءا من الممتلكات الرومانية. وكانت الأوضاع الاجتماعية فيها عندما فتحها "القوط" في منتهى السوء. فكانت هناك مجموعة صغيرة من الأسر النبيلة العريقة تملك الإقطاعات الكبيرة التي يعمل في فلاحتها ألوف الزراع من الأرقاء والعبيد الذين يؤلفون الشطر الأكبر من الشعب. كما كانت هناك عصابات كثيرة من اللصوص وقطاع الطرق تجوب أنحاء الريف[1].

وقد توسعت الدولة الأموية في الغرب في خلافة الوليد بن عبد الملك. حيث عبر طارق بن زياد البحر الأبيض المتوسط ونزل جنوده قرب جبل أطلق عليه "جبل طارق" في تموز من عام 711م، 92 هـ وألحق هزيمة نكراء بالمملكة القوطية التي عملت الاضطرابات الداخلية على تفسخها في معركة وادي بكحة. وفي هذه المعركة قتل لذريق آخر ملوك القوط. وكان موسى بن نصير أمير أفريقيا الشمالية قد بعث طارق بن زياد كفرقة استطلاع.

وقد حقق طارق هذا النصر مما دفع موسى بن نصير إلى ان يعبر بنفسه مضيق جبل طارق على رأس جيش عربي حتى انتهى الى ابعد نقطة مما انتهى إليه طارق. وأتم موسى في حملته فتح مدينة "شذونة" و "قرمونة" ليقضي بعد ذلك عاما كاملا في حصار إشبيلية وماردة. بينما كانت بعض جيوش الإسلام تقاتل الأمير القوطي، والتقى بجيش طارق عند طليطلة فوفق بالاشتراك معه الى إخضاع أسبانيا الشمالية كلها من سرقسطة الى نبرة. وفي سنة 714م رجع موسى الى أفريقيا بغنائم عظيمة وسار في موكب نصر الى سورية حيث كان الوالي ينتظره بفارغ الصبر. وما كاد يبلغ دمشق حتى توفي الخليفة في شباط 715م[2].

وقد استطاع عبد الرحمن الملقب بصقر قريش ان يطأ ارض الأندلس في 755م وجعل قرطبة قاعدة لدولته بعد ان بايعه الناس بالإمارة. وحاول شارلمان ملك الفرنجة استغلال الانقسامات في صفوف الجيش العربي الأندلسي فجهز جيشا لاحتلال الأندلس ووصل جيشه الى " سرقسطة " سنة 778م غير انه لم يتمكن من احتلالها فاضطر الى

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 240.

(2) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ص 126. كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 139.

الرجوع عن مشروعه. وقد اندفع عبد الرحمن الداخل في اتجاه الشمال فتمكن من احتلال سرقسطة سنة 780م. وتوفي عبد الرحمن تاركا لابنه هشام دولة الأندلس حسنة التنظيم يدعمها جيش قوي وجاء من بعده الحكم الأول سنة 801 م وعبد الرحمن الثاني[1].

وقد سارع الرقيق والعبيد في الأندلس من المسيحيين الى اعتناق الإسلام من اجل تحريرهم من الرق والعبودية[2].

وقد شهدت الأندلس حركة دبلوماسية في عهد عبد الرحمن الثاني فاستخدمت القنوات الدبلوماسية من اجل تسوية المنازعات مع الدول المجاورة والتحالف مع بعضها. فقد بعث الخليفة بشاعره يحيى بن الحكم الغزال الى زعيم النورمانديين بإحدى الجزر الدانمركية ليفاوضه في الصلح. وقد أتم مهمته بنجاح[3].

وخلف عبد الرحمن الأمير محمد الأول عام 852م. وقد سعى محمد الى عقد صلح مع الفونس الكبير. وقام محمد بإصلاحات مالية في الدولة. ثم جاء بعده الأمير منذر. وجاء من بعده اخوه عبد الله عام 888م.

وقد جاء من بعده حفيده عبد الرحمن الثالث سنة 992م. ويعد عبد الرحمن من اعظم الأمراء الأمويين في أسبانيا الإسلامية. فقد حكم اكثر من خمسين سنة. عمل فيها على إقرار السلام في ربوع البلاد وسط متاعب هائلة. وتمكن من إقامة علاقات جيدة مع الدول الأخرى. واستطاع بحكمة وكياسة ان يكتسب رجال الحكم في جيان والبيرة واستطاع توحيد أسبانيا تحت سلطته. وهزم عبد الرحمن أردون الثاني ملك ليون الذي سبق ان تحالف مع شانجة " مانشو" ملك نبرة . وسمى عبد الرحمن نفسه أمير المؤمنين ولقب بالناصر لدين الله. وانشأ اسطولا بحريا قويا[4].

وكان اليهود في أوروبا يقومون بتجارة الرقيق. الذين يحصلون عليهم من أسرى الحروب الناشبة في جميع المستقعات الألمانية الشرقية المأهولة بالسلاف. بعد ان يباعوا في أسواق الرقيق. وكانت بيزنطة تقدم أنواعا أخرى من الرقيق الذين تغنمهم من

(1) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 188.

(2) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 259.

(3) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 291.

(4) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 294.

حروبها في البحر الأسود. وكان القراصنة الأسبان يغذون الأسواق بالرقيق بثمرات غاراتهم على الشواطئ الفرنسية والإيطالية[1].

وعقد العديد من الملوك والأمراء المسيحيين الصلح مع عبد الرحمن. وفي عهده عاشت الأندلس بحضارة زاهية أثارت إعجاب أوروبا في العصر الأوسط. فقد اهتم بالزراعة والبستنة والتجارة والصناعة. ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة الى اليوم في حقول النخيل في أنش جنوبي مقاطعة بلنسية. وانشأ مدينة الزهراء سنة 936 عند سفح جبل العروس شمال قرطبة. ومدينة الزهراء أنشئت على ثلاثة طوابق بعضها فوق بعض. وفي الطبقة السفلى منازل الموظفين في البلاط . أما قصر الخليفة فكان يشرف على ذلك كله. وكانت قاعته الرئيسة تتألف بكاملها من الذهب والرخام ذي الألوان[2].

وقد ازدهرت في الأندلس العلوم بمختلف أنواعها وخاصة الدينية والفلسفية وفقه اللغة والتاريخ والطب. فكانت الحلقات العلمية تعقد بصورة مستمرة وبرع العديد من العلماء في ذلك. وأنشئت العديد من المكتبات التي تضم انفس الكتب العلمية في العالم. وشهدت الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث ترجمة نظريات الطب والهندسة وخاصة نظريات " ديسقوريدس" في الأدوية المفردة وضعت على نسخ يونانية أرسلت إليه من القسطنطينية. وكان ابنه الحكم الثاني 961م نصيرا صادقا للعلم والعلماء. وكان يبعث الى بلاد المشرق من يشتري له نفائس المؤلفات، حتى اجتمع في خزانة كتبه ما يقارب الـ "اربعمائة الف" مجلد. ونشر المعرفة في جميع بلاد الأندلس، فبنى له في قرطبة سبعا وعشرين مدرسة وادخل الفقراء من الطلاب فيها مجانا[3].

وجاء من بعده ابنه هشام سنة 976م وكان عمره عشر سنوات. فأنشأ عاصمة جديدة على أبواب قرطبة أطلق عليها " الزهراء ". وجاء بعده محمد الثاني الذي لقب بالمهدي، ثم خلفه سليمان بن الحكم. وبعد ذلك تقسمت الأندلس الى إمارات متصارعة. وبدأت قوة فرديناند ملك قشتالة وليون بالتصاعد أمام انقسام الأندلس الى إمارات صغيرة متناحرة. فبدأ التفاوض بين هذه الإمارات وفرديناند[4].

(1) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 295.

(2) الدكتور احمد الشلبي ، مصدر سابق، ج2 ص 127. وكارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 298.

(3) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 302.

(4) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 307.

وعلى الرغم من وصول الدولة الإسلامية العربية في الأندلس مرحلة الانحطاط السياسي والعسكري إلا أن الحركة الأدبية قد ازدهرت. فنشط أدب الرسائل المتبادلة بين الأمراء وإفراغها في قوالب أدبية رائعة. واشتهر " ابن الوليد " بحكمته كسفير[1].

وبعد ان كان اليهود يعملون لدى المسيحيين بصفة موظفين في الأندلس قبل الفتح الاسلامي، فقد لعب اليهود دورهم في داخل الدولة العربية الإسلامية في الأندلس. فقد كان " حداي ابن شبروط " الطبيب الخاص لعبد الرحمن الثالث والمسؤول عن الشؤون المالية. واستطاع اليهودي " إسماعيل بن نغزالة " ان يتلقد منصب الوزارة في ظل الأمير حبوس الذي استلم الأمر في غرناطة سنة 1024م. وبرز من اليهود من الأدباء والشعراء مثل " سليمان بن يحيى بن جبيرول الذي اشتهر بنقل الأدب العربي الى الشعر العبري. وظهر من اليهود من اشتهر بالفلسفة مثل يوحنا الأسباني الطليطلي و " أبن ميمون "[2].

وفي سنة 1479م عزمت ايزابل الكاثوليكية بعد ان تم اتحاد مملكتي قشتالة وارغون بزواجها من فرديناند الثاني على ان تقضي نهائيا على بني الأحمر وتخرج المسلمين جميعا من ارض الأندلس وتم القضاء على آخر أمراء غرناطة وهما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وبعد سقوط الأندلس قرر ديوان التفتيش إكراه من بقي من المسلين في أسبانيا على اعتناق النصرانية غير عابئ بما نصت عليه شروط الاستسلام[3] .

(1) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 310س

(2) المصدر السابق، ص 315.

(3) المصدر السابق، ص 344.

الفصل الثالث

الدبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي

بعد انتهاء الدولة الأموية في دمشق قامت الدولة العباسية سنة 132هـ 750م واستمرت هذه الدولة فترة طويلة من الزمن شهدت فيه تطوراً وتقدما كبيرا في جميع المجالات السياسية والعسكرية والعلمية والأدبية. كما شهدت انتكاسا وتدهورا كبيرا.

وكانت قوة الدولة العباسية وهيمنتها في العصر العباسي الأول قائمة على أساس اعتمادها على العنصر العربي الذي شكل تحالفا كبيرا مع قادة الدولة العباسية. غير ان هذه القوة ما لبثت ان انتكست بسبب الاعتماد على العنصر الأجنبي، وخاصة العنصر الفارسي والسلجوقي. إضافة إلى انغماس بعض الخلفاء العباسيين باللهو، واعتمادهم على أشخاص لم يخلصوا للدولة العباسية وللإسلام بصورة خاصة.

وسنتناول التاريخ السياسي للدولة العباسية واهم مظاهر العلاقات الدبلوماسية في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول : التاريخ السياسي للدولة العباسية.

المبحث الثاني : الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية في الأندلس.

المبحث الأول
التاريخ السياسي للدولة العباسية

قامت الدولة العباسية في سنة 132هـ – 750م . بعد قتل مروان بن محمد. وقد بويع أبو العباس السفاح بالخلافة في مسجد الكوفة. وعرف بالسفاح، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه في الخطبة التي القاها يوم مبايعته بالخلافة.

ورأى أبو العباس ان قدمه لا تثبت بالخلافة إلا إذا تمكن من القضاء على بني أمية جميعا حتى من كان قد أمنهم وبايعوه. وساعده في موقفه هذا كثيرون من المقربين منه. وكان أبو العباس من اكرم الناس واوفاهم بوعده. فلم يعد وعدا إلا وفاه [1].

وتوفي أبو العباس السفاح بالأنبار الجديدة (الهاشمية) سنة 136هـ وعمره ثلاث وثلاثون سنة[2].

واتبع بنو العباس في ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد ولى السفاح عهده لرجلين يلي احدهما الآخر وهما اخوه أبو جعفر المنصور والآخر ابن اخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي. فلما تولى أبو جعفر و شب ابنه محمد المهدي عز عليه ان يولي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه.

ويبدو ان انتقال الخلافة العباسية من خليفة إلى آخر كانت تتم عن طريق البيعة له: بموافقة الخليفة وقادة الجيش والمتنفذين. وعند وفاة الخليفة يسلم خاتمه والصولجان " القضيب " إلى خلفه[3].

وكان انتقال الخلافة الراشدة يتم عن طريق تسليم خاتم النبي ﷺ. وقد سقط هذا الخاتم من يد عثمان رضي الله عنه. ولم يكن الصولجان عادة عربية معروفة بانتقال الخلافة من شخص لآخر.

ولما تولى أبو جعفر الخلافة انتقل من الانبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام فيها إلى ان عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى

---

(1) رزق الله منقريوس الصدفي ، مصدر سابق، ص 84.

(2) المصدر السابق، ص 86.

(3) المصدر السابق، ص 13.

ومظهر فخرهم وكان يريد ان يكون بعيدا عن الكوفة فخرج يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويبتني فيه مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دخلة ليس بيننا وبين الصين شئ يأتينا فيه كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجئ فيه كل شئ من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة بين دجلة والفرات. ثم أمر بخط المدينة وهي مدورة الشكل وجعل لها سورين أحدهما داخلي وهو سور المدينة وارتفاعه في السماء 35 ذراعا وعليه أبرجه. وفيصل بين السورين بحدود 60 ذراعا. وللمدينة أربع أبواب. وابتنى قصره الذي يسمى بقصر الخلد على دجلة[1].

وكان اختيار مدينة بغداد لتكون عاصمة العباسيين ليست مدينة بازدهارها السريع لعناية الخليفة فحسب بل لموقعها الملائم الذي جعلها تتمتع بأهمية بالغة حتى بعد انحلال الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية[2].

وقد اثبت تاريخ الدولة العباسية حسن اختيار بغداد لأن تكون عاصمة الدولة العباسية. فهي تتوسط الدولة في الجهات الأربع مما جعلها تصلح لأن تكون مركزا سياسيا وعسكريا واقتصاديا. حيث كانت خيرات الدولة الإسلامية تأتي من ارض العراق. إضافة إلى توفر المياه العذبة.

ومن الأمور الخارجية التي حصلت في عهد الخليفة العباسي المنصور هو هروب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى بلاد الأندلس وتأسيس الدولة الأموية الثانية فيها . وقيام الروم بقيادة ملكهم بالإغارة على ملطية سنة 138هـ فجهز المنصور جيشا إلى ارض الروم ونجح في غزوهم . واستقر الأمر بين المنصور والروم على المفاداة فاستنقذ المنصور أسراه المسلمين من الروم [3].

وكان المنصور يهتم بالولاة الذين يعينهم ويتابع أخبارهم وتصرفاتهم. وكان عامل البريد يكتب عن تصرفات الولاة. وعن أسعار السلع وكل ما يقضي به القاضي.

---

(1) الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الامم الاسلامية، (الدولة العباسية) المكتبة التجارية الكبرى القاهرة 1970ص78

(2) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 178، وجون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 469.

(3) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 80.

وما يرد لبيت المال. وكان المنصور شديد الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت الخزينة بالأموال[1].

وقد استخدمت الدولة العباسية أسلوب الدولة الأموية في الاهتمام بالبريد فقد كانت مهمة البريد هي نقل الأخبار والرقابة على أعمال الدولة.

ومن القواعد الدبلوماسية التي أرساها المنصور في التعامل بين الرئيس والمرؤوس، ما روي عنه أنه كان ذات يوم خارجا مع رجاله فسمع أحد رجاله يحدو الأبل وهو يقودها فاعجب بصوته، وأعطاه نصف درهم فقال الشيخ أنه قد أنشد الخليفة هشاما ذات يوم وكان شابا فنقده عشرة الاف درهم. ورد الخليفة غاضبا بان هشاما لم يكن صاحب حق في أن يعطيه من بيت مال المسلمين. ثم استدعى كاتبه وامره بان يصدر امرا يرغم الرجل العجوز على أن يعيد عشرة الآف درهم إلى بيت مال المسلمين. وأن يظل يرعى ابل الخليفة بعد ذلك التاريخ دون اجر. ولا ريب في أن من واجب الإنسان إذا تحدث إلى حاكم ان يكون كيسا في مخاطبته[2].

وتعد هذه القاعدة في الوقت الحاضر من أهم القواعد الدبلوماسية في التعامل بين الرئيس والمرؤوس. حيث يجب على المرؤوس ان يحترم رئيسه ويحسن الكلام معه.

وللمنصور فلسفة خاصة في الشدة واللين إذ أن هناك فرقاً بين ان يكون الشخص طبيعيا وبين ان يكون حاكما. فقد جاء أحدهم إلى المنصور فقال له ان هناك رجلا من الذين انزل بهم عقابه يقول: " لقد هجمت بالعقوبة كأنك لم تسمع بالعفو". فرد المنصور قائلا: " لان بني مروان لم تبل رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة"[3].

وهذا يعني ان المنصور يقر باللين ولكن الظروف التي تمر بها الدولة العباسية تتطلب الحزم والشدة.

---

(1) ولى المنصور رجلا من العرب حضرموت فكتب إليه والي البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد اعدهما فعزله وكتب إليه " ثكلتك امك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التي اعددتها للنكاية في الوحش إنا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك امور الوحوش سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق باهلك ملوما مدحورا "

الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 82

(2) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 477.

(3) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 419.

ومن أبرز ما حدث في عهد المنصور أنه أنشأ ديوانا خاصا لحفظ أسماء من صودرت أموالهم وسماه ديوان الصادرات[1].

ويعد المنصور من مؤسسي الدولة العباسية ولهذا فقد اتصف بالشدة والاقتصاد في إدارة أموال الدولة.

وبعد وفاة المنصور جاء من بعده إبنه محمد المهدي في سنة 169هـ – 785م. وأول عمل قام به هو إطلاق سراح السجناء السياسيين. وتنظيم الدواوين، وحدد صلاحيات الوزارة. وكانت العلاقة في عهده مع الروم سيئة فكانت الحروب بينهم مستمرة. وحقق انتصارات كبيرة على الروم. وعقدت بين الدولة العباسية والروم معاهدة صلح وموادعة وإعطاء الفدية وقدمت الروم الجزية. وقد امتاز المهدي بالجود وفصاحة اللسان والعدل والحلم والعفو[2].

ونظم المهدي البريد. وفي سنة 166هـ أقام بريدا بين مكة والمدينة عن طريق استخدام البغال. كما قام بسك النقود[3].

وفي عهد المهدي كان هارون الرشيد قائدا عسكريا استطاع ان يجهز حملة، تتألف من (95) ألف مقاتل لمحاربة الروم وتمكن من اجتياح آسيا الصغرى حتى لاحت له أسوار القسطنطينية مما دفع الإمبراطور "ابرين" إلى طلب الصلح فأرسل وفدا إلى هارون وعقد اتفاقا بينهما على ان يدفع الإمبراطور جزية إلى العباسيين مقدارها (70) ألف دينار. وعاد هارون مكللا بالنصر[4].

ان لجوء الخلفاء العباسيين إلى تكليف ابنائهم وأخوانهم بولاية العهد يعد ممارسة لرئاسة الدولة في ظل توجيه آبائهم مما يكسبهم خبرة قبل استلامهم السلطة. كما إن تكليفهم بقيادة الحملات العسكرية يعني حرص قادة الجيش والجنود على الإخلاص والعطاء ما داموا يشعرون بأن الخليفة أرسل معهم ولي عهده. وهذا ما يمنح الأمان لكافة المقاتلين.

واستحدثت في عهد المهدي دواوين "الأزمة" التي كانت عبارة عن دواوين أو دوائر صغيرة تشرف على أعمال الدواوين الكبيرة حتى كأنها دواوين محاسبة. إذ كانت

---

(1) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 316.

(2) الشيخ محمد الخضير بك ، مصدر سابق، ص 63.

(3) رزق الله منقريوس الصدفي ، مصدر سابق، ص 12.

(4) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 496.

تعنى بالدرجة الأولى بالتدقيق في الحسابات والشؤون المالية التي يتصرف بها كل ديوان من الدواوين الصغيرة على حدة. كما أنشئ في عهده ديوان "زمام الأزمة" لينظم في آن واحد جميع دواوين الأزمة. ويلاحظ هنا أن تسمية الديوان بالزمام لأنه كان قواما لكل أمر عالجه ديوان ما على حدة في كل مرفق من مرافق الحياة المدنية[1].

كذلك انشأ المهدي ديوانا أطلق عليه "ديوان المظالم" وكان يتعلق بالشكاوي والدعاوى لمعرفة ما تشتكي منه الرعية من ظلم بعض ولاتها وجورهم وتعسفهم. وينظر هذا الديوان في غلاء الأسعار إذا زادت عن حدها. أو في كثرة إيداع الناس في السجون من غير نظر دقيق في دعاويهم[2].

ان الاهتمام بالدواوين يعد تقدما إداريا كبيرا في عهد الدولة العباسية. وخاصة تلك الدواوين التي استحدثتها الدولة المتعلقة بالأزمة وزمام الأزمة. وهذا يعني الدقة الكبيرة في السيطرة على أعمال الدولة. فإشراف أحد الدواوين على جميع الدواوين الأخرى يتطلب إمكانية إدارية لدى الموظفين. خاصة وان الدولة العباسية مترامية الأطراف وتجاور العديد من الدول. ولها معاملات مالية ودبلوماسية واسعة مع الولايات التابعة لها والدولة المتعاقد معها.

وبعد وفاة المهدي جاء من بعده ابنه موسى الهادي بن محمد المهدي الذي تولى الخلافة في سنة 169هـ – 785م. وكانت مدة حكمة سنة وشهر واحد. وكان شجاعا. ومطلعاً على أحوال الرعية بنفسه. ومنع أمه الخيزران من التدخل في شؤون الدولة[3].

وبعد وفاته جاء أخوه هارون الرشيد بن المهدي سنة 170هـ –786م. وحكم مدة 23 سنة وشهرين. وقد أصبحت الدولة العباسية في عهده في أعلى درجات تطورها سلطانا وثروة وعلما وأدبا وارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها. وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال ممن تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب فعظمت هيبة الدولة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما ساعد على هذا الرقي[4]. وقد درس هارون الرشيد على يد كبار رجال العلم والفقه[5]. ومن ابرز السمات التي اتسمت بها الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد انها بلغت من

(1) الدكتور صبحي الصالح، مصدر سابق، ص317.

(2) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 317.

(3) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 100.

(4) الشيخ محمد الخضري بك ص102.

(5) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 193.

العلم والأدب وعلوم الدين ما لم تبلغه أية دولة إسلامية سابقة أو لاحقة لها. فكانت مركزا عالميا لطالبي العلم.

وقد واجه هارون الرشيد مشكلة كبيرة لم يواجهها أي قائد عربي قبله وبعده. وهذه المشكلة تتجسد بان عصر هارون شهد قادة عظماء. منهم عبد الرحمن الداخل في الاندلس، وادريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب الأقصى وشارل الكبير في فرنسا وقسطنطين في مملكة الروم في القسطنطينية. فظهور هؤلاء القادة في عهده فرض عليه ان يكون بالمستوى الذي يؤهله للتفوق عليهم. وهذا ما تطلب منه ان تكون قوته العسكرية قادرة على مواجهة التحدي الخارجي الذي يهدد الدولة العباسية.

ومن اجل قوة الدولة العباسية ومنعتها فقد اهتم هارون الرشيد بالجيش وكان يشرف عليه إشرافا مباشرا. ويقود الحملات العسكرية ضد أعداء الدولة العباسية بنفسه. فعزز ثغور الدولة وعين القادة القادرين على المواجهة. وبالنظر لقوة الأخطار التي كانت تحيط بالدولة العباسية فقد كان لزاما عليه ان يستخدم الطرق الدبلوماسية لتقوية قدرته العسكرية والسياسية. فلجأ إلى التحالفات والهدنة مع بعض القوى المعاصرة لحكمه.

وقد استغل هارون الرشيد العداء بين دولتي الروم الشرقية والغربية. فعقد هدنة مع الملك قسطنطين ملك الروم الشرقية " القسطنطينية " سنة 790م مقابل جزية تدفع له. للتفرغ إلى دولة الروم الغربية. فقد كان ملكها شارلمان يريد توسيع دولته. وعندما حصلت هدنة بين الروم الشرقية والروم الغربية. أرسل نقفور ملك الروم الشرقية كتابا إلى هارون الرشيد جاء فيه: " من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فارجع ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك وإلا فالسيف بيننا وبينك " . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب. فكتب على ظهر الكتاب: " بسم الله الرحم الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك و الجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام".

وجهز هارون الرشيد جيشا بقيادته إلى ان وصل هرقلة ففتح وغنم وحرق. فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديدا. فجهز هارون الرشيد جيشا سنة 190 ففتح هرقلة بنفسه وبث الجيش بأرض الروم واحتل الطوانة فعسكر بها. فبعث نقفور الجزية إلى هارون الرشيد.

وكتب نقفور إلى هارون في جارية سباها المسلمون فجاء بكتاب نقفور: " من نقفور ملك الروم سلام عليك. أما بعد أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة وهي ان تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها له فان رأيت ان تسعفني بحاجتي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته " وارسل نقفور هدايا من الطيب وسرادقا من سرادقاته. فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجليت على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من آنية ومتاع إلى رسول نقفور وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه التمور والأخصبة والزبيب. وأعطى لرسول نقفور دارهم إسلامية[1].

وكان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكا على فرنسا واستولى على لمبارديا وألمانيا وإيطاليا. وكان يهدف إلى التفوق على نقفور في القسطنطينية ليصبح حامياً للمسيحيين في البلاد الإسلامية وخاصة زائري القدس. وان ينصرف إلى إخضاع أوروبا لحكمه. فأرسل إلى هارون الرشيد سفراء لطلب رضائه فتحقق له ذلك . فسعى شارلمان إلى إصلاح القوانين في دولته مقلداً هارون الرشيد. وتعلم في البلاد الإسلامية أطباء أرسلهم شارلمان. وارسل شارلمان يهوديا اسمه " إسحاق " مصحوبا ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض اقمشة نفيسة. فلما نظر إليها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية واوقعتهم في حيرة وهموا بكسر الساعة فمنعهم شارلمان وفي ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس[2].

وكان الرشيد متدينا محافظا على التكاليف الشرعية اتم المحافظة. وكان يقود الحملات العسكرية بنفسه بل كان في الغالب في مقدمة جنده. فكان يغزو سنة ويحج سنة. ويقود الجيش في المسائل الصعبة. ويسمع إلى أقوال الآخرين والوعاظ. وكان رقيق القلب سريع الدمعة. جعل الخلافة علما هو مسماها فكان انيسا وديعا إلى الغاية شديد الرغبة في قضاء حاجات الناس[3]. ويحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل

---

(1) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 132. ـ ٩٠٩ . دار الأرقم

(2) المصدر السابق، ص133.

(3) رزق الله منقريوس الصدفي ، مصدر سابق، ص 99.

الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويحب المديح. وهو شجاع وشديد الغضب ويعاقب المسئ بلا شفقة[1].

وكان راي هارون الرشيد ان يفتح قناة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. في نفس المكان الذي فتحت فيه قناة السويس حاليا. وقيل بان يحيى بن خالد البرمكي هو الذي اقنعه بأن لا يحقق فكرته مخافة ان يتمكن اسطول الروم في البحر الأبيض المتوسط من الوصول إلى البحر وتهديد مكانه [2] .

وبعد وفاة هارون الرشيد جاء من بعده ابنه الأمين وهو محمد الأمين بن هارون وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور. وهو هاشمي أبا وأما. ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ولابنه الحسن رضي الله عنه. ولاه أبوه العهد سنة 175هـ وقتل بعد ثلاث سنوات ونصف تقريبا من حكمه. وعن صفاته فقد اجتمعت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلعه وقتله على القدح فيه وذكر مثالبه التي أودت به، وهذه سنة قديمة في الناس الذين يقفون مع من يساعده القدر فهم أبدا مع القاهر على المقهور لان للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب [3].

ورغم القدح الذي تعرض له الأمين، إلاّ أننا لا نستطيع أن نحكم على أفعاله بعد مرور هذه المدة الطويلة على حكمه. ولكننا في أية حال من الأحوال فإننا لا نبخس عهده، فلولا قدرته وعلمه لما ولاه أبوه هارون الرشيد من بعده. فلو وجد افضل منه من أولاده لولاه مكانه. ونقول ان مجرد اختيار الرشيد للامين ليكون ولي عهده من بعده يدل بوضوح على إمكانيات الأمين وقدرته على إدارة الدولة. ومما ساعد على طمس منجزات الأمين هو ان من تولى من بعده المتهم بقتله أخوه المأمون. ونعتقد ان هارون الرشيد كان قد شعر بالبغض بين الأمين والمأمون، لهذا فقد أبعد المأمون فولاه خراسان لحين وفاة أخيه الأمين.

وطريقة تولية اكثر من ولي عهد أخذها العباسيون من الأمويين. دون ان يلتفتوا إلى ان هذه الطريقة كانت من عوامل ضعف الدولة الأموية. فوقع العباسيون بالخطأ نفسه.

---

(1) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 137.

(2) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 547.

(3) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 157. وكارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 197.

بعد قتل محمد الأمين جاء بعده أخوه لأبيه المأمون. والمأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي سنة 170 هـ. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة اشهر.

وعندما انتصر المأمون على أخيه الأمين انتقل إلى بغداد حاضرة آبائه وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته، وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية بسبب ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة.

وقد وجه المأمون حملة ضد الروم قادها بنفسه ودخل بلاد الروم عن طريق طرطوس في سنة 215هـ – 830م وفتح حصن ماجدة وحصن قره وأمر بهدمه وحصن سندس وحصن سنان. وبعد ذلك وجه المأمون حمله إلى الروم مرة ثانية فنزل على أنطيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصنا. ووجه بعد ذلك العديد من الحملات خلال مدة حكمه.

وقد وجه ملك الروم رسالة إلى المأمون جاء فيها: " أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما في رأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا ان تدع الحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى نفسك وفي علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة واثبا في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح في المتجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا زخرف لك في القول فإني خائض إليك غمارها آخذ عليك اسدادها شانٌ عليك خيلها ورجلها وان أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام".

ورد المأمون على هذه الرسالة بما يأتي: " أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة و خلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسخ المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال لولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالخط في تقليب الفكرة وإني لا اعتقد الرأي في مستبقه إلا في إصلاح ما أوثر في معتقبه لجعلت لجواب كتابك خيلا تحمل عن أهل الباس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الإمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم

إحدى الحسنيين عاجل غلبه او كريم متقلب غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى". وقد جهز المأمون الحملة العسكرية إلى الرقة بنفسه. وسير ابنه العباس إلى ارض الروم وأمره بنزول الطوابة وبنائها فابتدأ البناء وجعل سورها على ثلاثة فراسخ. فسار المأمون إلى الروم من ناحية طرسوس وكانت هناك وفاته[1].

وقد اتصف المأمون بالعفو. وكان ميالا للنقاش وفي جدله إلى الإقناع. فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله في الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن يناقشه وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ فيما يريد أن يفعل. ولم ينخدع المأمون برياء الناس ونفاقهم وإظهارهم ما ليس من شيمهم. و إلى جانب ذلك كان المأمون أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجب به منه ثوابا فوق كل أمل[2]. وقد اهتم المأمون بعلوم اليونان واستقطب العلماء في مختلف العلوم وقد جمع في مكتبته كنوز العلوم الإسلامية والعلوم الأجنبية. وقد ظهر في عهده كبار العلماء والفلاسفة مثل الكندي والحجاج بن يوسف بن مطر وإبراهيم الرازي ومحمد الخوارزمي واحمد بن حنبل وغيرهم من كبار العلماء والفقهاء[3].

كان توما الجزيوري قد أراد السيطرة على السلطة في القسطنطينية وبعد فشله ابعد إلى الشام. وقاد توما ثورة أخرى عامي 803- 813م على "ليو الخامس". وقد عجز الخليفة المأمون عن شن حملة ضد توما. ولذا فقد بدأت المفاوضات بين المأمون وتوما خاصة وان توما كان منفيا عشر سنوات عند العرب في الشام ويعرف أمور سياستهم. وتم التوصل إلى اتفاق سريع. وتعهد المأمون بأن يساعد الثائر على الحصول على العرش مقابل ان يتخلى توما عن بعض الحصون والقلاع على حدود المسلمين وان يدفع الجزية إلى الخليفة. وسرعان ما توج بطريك الروم في انطاكية "توما" امبراطورا على بيزنطة داخل الأرض العربية. وراح توما يحاصر القسطنطينية فتمكن ميخائيل من ضرب

---

(1) الشيخ محمد الخضري بك ، مصدر سابق، ص 224.

(2) المصدر السابق، ص 227.

(3) كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 204.

جيش توما وأسره ومن ثم قتله. ويرى بعض الباحثين ان الاتفاق بين توما والمأمون يدل على ان مسيحيي الإمبراطورية الرومانية لم ينظروا إلى العرب كأعداء قوميين يكرهونهم[1].

وقد عهد المأمون بالخلافة إلى أخيه أبي إسحاق محمد بن الرشيد الملقب بالمعتصم في سنة 218هـ – 842م. وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية اشهر. وقد حارب الروم بمعركة كبيرة وانتصر عليهم. ونقل العاصمة العباسية من بغداد إلى سامراء. وقد اتصف المعتصم بالشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة[2].

جاء بعد المعتصم العديد من الخلفاء الضعفاء وهم: الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والراضي والمتقى والمستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم والمقتدي بأمر الله والمستظهر بالله والمسترشد بالله والراشد بالله والمقتفي لأمر الله والمستنجد بالله والمستضئ بالله والناصر لدين الله والظاهر بأمر الله والمستنصر بالله والمستعصم. وكان عدد خلفاء الدولة العباسية سبعاً وثلاثين خليفة[3].

(1) جون باجوت جلوب ، مصدر سابق، ص 605.

(2) الشيخ الخضير بك ، مصدر سابق، ص 247.

(3) يراجع كارل بروكلمان ، مصدر سابق، ص 208 وما بعدها.

المبحث الثاني
مظاهر الدبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي

تصف المصادر التاريخية الدولة العباسية بأنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب فيه نافقة، وشعائر الدين معظمة، والخيرات فيها عميمة ، والدنيا عامرة، والحرمات مرعية، والثغور محصنة، وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها فانتشر الجبر واضطرب الأمر. وقسمت الدولة العباسية إلى ثلاث مراحل أساسية. منها مرحلة البناء والقوة والتوسع (132- 247 هـ) التي استطاع فيها خلفاؤها الأقوياء توحيد أقاليم الدولة عدا الأندلس التي ظلت تحت حكم الأمويين، ومن القضاء على الأعداء والمناوئين. والثانية مرحلة ضعف الخلافة وتدهورها (247- 551 هـ). بسبب تدخل النفوذ المعادي للعرب وتسلط الأجانب. والثالثة مرحلة انتعاش الخلافة العباسية واستقلالها (551- 656هـ). باستعادة مجدها ومكانتها. وبخاصة بجهود الخليفة الناصر لدين الله[1].

ومن ابرز ما قام به العباسيون ما يأتي:

أولاً : منصب الوزارة

استحدث العباسيون مناصب الوزارة. وهو مصطلح عربي في أصله استدعته الظروف والرغبة في المركزية في زمن الخلفاء الأوائل فبرزت الحاجة إلى شخص من غير آل عباس يتمتع بحكمة ودراية ومؤهلات خاصة ليعينه الخليفة لتدبير أمور الدولة سياسيا وإداريا وتقديم المشورة ومتابعة تنفيذ أوامر الخليفة. وقد تطورت مهمة الوزارة مع تطور الاتجاهات السياسية والإدارية ونزعة الخلفاء العباسيين وقوتهم.

وكان الاهتمام بالوزارة قد وفر للخلافة الاعتماد على بعض المتخصصين في أمور الدول وإبداء المشورة. خاصة وان بعض الوزراء من غير العرب لهم اطلاع على الأقاليم غير العربية.

(1) الدكتور محمد مفيد آل ياسين، العباسيون 132- 656هـ، التاريخ العربي الإسلامي، شركة الوفاق للطباعة الفنية، بغداد 1998ص 132.

ثانيا : الدواوين الخاصة بالعلاقات الخارجية

تطورت العلاقات الدبلوماسية في زمن الدولة العباسية. نتيجة لاتساع الدولة ومجاورتها للعديد من الدول. وظهور العديد من الدول. الأمر الذي انعكس على تطور المؤسسات الخاصة بإدارة العلاقات الدولية. فقد تم استحداث منصب الوزارة التي كان من مهماتها متابعة العلاقات الدبلوماسية. وطور العباسيون الدواوين التي ورثوها من الدولة الأموية. وهي ديوان الرسائل وديوان الخاتم، واستحدثوا دواوين في عهد الخليفة المهدي والرشيد والمأمون والمتوكل وغيرهم، أهمها دواوين الأزمة سنة 162هـ التي أنشئت نتيجة توسع مهام الدواوين وكثرة عددها. ومهمة هذا الديوان هو السيطرة على الدواوين الأخرى. وفي زمن المهدي سنة 168 انشئ ديوان زمام الأزمة للإشراف على دواوين الأزمة وتنظيم أعمالها تمشيا مع تطور سلطة الدولة واتساعها. وطوروا الدواوين التي ورثوها من الدولة الأموية مثل ديوان البريد وديوان المستغلات وديوان الطراز. ومركز الدواوين في بغداد، ودواوين محلية في الأقاليم والولايات هي في واقعها صور مصغرة للدواوين بغداد. واصبح لكل ولاية ديوان خاص في بغداد. وقد أمر الخليفة المعتضد بجمع هذه الدواوين في ديوان واحد سمي بديوان الدار او الديوان الكبير. ولم تمض مدة حتى انشطر هذا الديوان إلى ثلاثة دواوين : ديوان المشرق ينظر بأمور الولايات الشرقية وديوان المغرب لأمور الولايات الغربية وديوان السواد لأمور العراق. والظاهر ان ديوان الدار يعد ديوانا مركزيا لهذه الدواوين[1].

كما انشئ ديوان خاص أطلق عليه ديوان الاستخراج. وهو عبارة عن دائرة رسمية تسعى إلى تتبع الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالمحسوبية والرشوة لكي تحصي أسماءهم وتحدد أوضاعهم ثم تصادر بأمر من الخليفة أموالهم التي جمعوها من الحرام. كما انشئ ديوان الخاصة المتعلق بأموال الخليفة وعقاراته المكتوبة باسمه الراجعة إليه وإلى ورثته[2].

وإذا كانت الدولة العباسية قد احتفظت ببعض التنظيمات الإدارية التي كانت في عهد الدولة الأموية إلا إنها طورت تلك التنظيمات بصورة ملحوظة. وأوجدت دورا للدواوين وأشكالها وما تتناوله من سلطات أصحابها المشرفين عليها. ومن اهم ما

---

(1) الدكتور محمد مفيد ال ياسين ، مصدر سابق، ص 127.

(2) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 319.

احدثته في الدواوين هو إنها جمعت في دفاتر او سجلات بدلا من ان تكون صحفا مبعثرة[1].

إن اهتمام العباسيين بالدواوين يدل على قدرتهم على التنظيم الإداري والمالي. ذلك ان الدواوين تمثل أرشيفا من السجلات والأضابير التي تمكن الخلافة من معرفة كل ما يعني الدولة العباسية. كما ان الخليفة الجديد يطلع على ما عمله الخليفة السابق من معاهدات ومكاتبات وعهود مع الدول الأخرى. والدول في الوقت الحاضر تقوم بالعمل نفسه الذي كانت تقوم به الدولة العباسية.

ثالثاً : تطور العلاقات السياسية

على الرغم من مركزية الدولة العباسية فقد أدى النفوذ الأجنبي إلى ظهور دول مستقلة تتمتع باستقلال في اتخاذ قرارها. ومن هذه الدول الإمارة الحمدانية في الموصل والجزيرة (293- 380هـ) وإمارة عمران ابن الطائع في جنوب العراق (228- 616هـ). والإمارة المزيدية في الحلة (387- 558هـ). وانصب جهد امرائها على تحدي السلطة الأجنبية بتوسيع نفوذ إماراتهم على حساب البويهين والسلاجقة والامتناع عن دفع الأموال لهؤلاء الأجانب. وكانت بعض هذه الإمارات تخضع لسلطة ونفوذ الخليفة العباسي مباشرة وبعضها تخضع لنفوذه بالإسم فقط[2].

وكان اتساع الدولة العباسية قد جعلها قريبة من العديد من الدول مما فرض عليها ان تنظم علاقات سلم او حرب بينها وبين هذه الدول. وتسوية المنازعات الناشئة بينها. وقد شهدت الدولة العباسية حركة دبلوماسية وتبادل الوفود مع الدول المجاورة بشكل لم تعهده أية دولة إسلامية.

ومن مظاهر تطور السلطة في الدولة العباسية وتقدمها ما أقامته من علاقات سياسية ودبلوماسية مع الدول المعاصرة لها. صديقة كانت او عدوة. وبخاصة عن طريق السفارات والبعثات السياسية التي كان لها أهداف وأغراض متعددة إلى جانب المواصفات والمؤهلات التي لابد أن يتحلى بها من يختار للسفارة. كما ترسخت أعراف

(1) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 316.

(2) المصدر السابق ص 127.

وتقاليد عند استقبال السفراء واستضافتهم وتوديعهم وتمتعهم بالحصانات والامتيازات الدبلوماسية. وهذا ما تميز به تاريخ الدولة العباسية واصبح سمة علاقاتها الدولية[1].

رابعاً : المؤلفات الدبلوماسية

نظراً لتطور العلاقات الدولية فقد ظهرت في عهد الدولة العباسية العديد من المؤلفات العلمية الخاصة بإدارة العلاقات الدولية. فصدرت موسوعات تناولت الدبلوماسية والسياسية الخارجية وجاءت بأسلوب حديث متطور. ومن ابرز تلك المؤلفات كتب السير والمغازي (السلام والحرب) والوقائع والفتوح والأنساب والأمم والأديان والتراجم والطبقات والحوليات والخطط. ومن ذلك أيضا الكتب التي ظهرت في ذلك العصر والتي تناولت تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري. وكتاب السير لمحمد بن الحسن الشيباني والمبسوط لشمس الدين السرخسي وخاصة ما جاء في الجز العاشر منه الخاص بالدبلوماسية. وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغات الأجنبية نظراً لأهميتها. وكل ما ورد فيها من أحكام تخص الدبلوماسية والعلاقات الخارجية تعد أساسا للقانون الدولي في الوقت الحاضر.

وقد ساهم بيت الحكمة الذي أنشاه الخليفة هارون الرشيد وطوره المأمون في تطوير الدراسات المتعلقة بالسياسة الخارجية. فقد كان لبيت الحكمة بناء خاص في جانب الرصافة يضم عددا من الأقسام والقاعات والغرف للتدريس وإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات العلمية. وكانت مكتبته تزخر بنفائس الكتب بمختلف العلوم واللغات وتشغل عددا من الغرف المخصصة لها المزودة برفوف لصف الكتب.

وكانت للمترجمين في بيت الحكمة غرف خاصة بهم وأخرى لمراجعي الترجمات، إلى جانب الغرف المخصصة للنساخين والمجلدين وتوسع نطاق العمل في بيت الحكمة نتيجة ما تم جلبه في زمن الرشيد والمأمون من خزائن الكتب القديمة من آسيا الصغرى والهند وإيران وقبرص وبلاد الروم. إضافة إلى ما جلبة السريان من كنائسهم وأديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة . لذا عين لبيت الحكمة رئيس يتولى إدارته ويشرف على شؤونه وكان يطلق عليه " صاحب بيت الحكمة".

وقد استقطب بيت الحكمة كبار العلماء والمفكرين في العصر العباسي وتمت تهيئة الجو المناسب لوضع مؤلفاتهم في شتى صنوف المعرفة فمن مشاهير هؤلاء العلماء

(1) المصدر السابق ص 139.

ابن الفراء والمؤرخ الكبير المسعودي ومعاصره العالم المعروف بحمزة بن الحسين الذي وضع كتابه "تاريخ الملوك والانبياء".

وقد ساهمت حركة الترجمة في الاطلاع على أحوال الدول وعاداتهم وإدارتهم للسياسة الخارجية. فقد ترجمت الكتب عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والعبرية والقبطية والنبطية من مترجمين مختصين بموضوعات الكتب التي يراد ترجمتها. وكان المأمون يدفع للمترجمين زنة ما يترجمونه ذهبا. وقد أنشئت في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ومرو وامد ونيسابور وهراة واصفهان العديد من المدارس[1]. وقد أسهم بيت الحكمة والمدارس التي أنشئت وما وضع من ترجمات عديدة من الكتب الأجنبية في اطلاع الخلفاء العباسيون على أحوال الأمم والدول وعاداتها وكيفية التعامل معها.

خامساً : تطور العلاقات التجارية الخارجية

نشطت الحركة التجارية في عهد الدولة العباسية واتسمت بالعالمية لشمولها العالم المعروف في ذلك الوقت. حيث ربطت بين أجزائه . لأن موقع الخلافة في بغداد جعلها تملك قلب العالم المعروف بالعصر الوسيط وتشرف على أغلب الطرق التجارية الممتدة من أواسط آسيا والصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

وكانت بغداد حاضرة الخلافة في العراق وملتقى كثير من الطرق التجارية. فالطريق البري العالمي إلى الهند والصين والذي يعرف بطريق الحرير العظيم كان يبدأ من بغداد ويسير شرقا عبر العديد من المدن إلى ان يصل إلى الصين. وتتفرع من هذا الطريق الرئيس العديد من الفروع، فرع يتجه إلى الهند والسند والملتان ، وفرع آخر إلى الشمال يصل بلاد البلغار والقالبة وقد أقيمت مدن إسلامية كثيرة في هذه المناطق .أما الطريق البحري الموصل إلى الهند والصين فكان يبدأ من البصرة ميناء العراق وثغره وينتهي بموانئ العالم المعروفة.

والشيء الملفت للنظر ان قيام حالة الحرب بين الدول لا يؤثر على العلاقات التجارية الخارجية بينها . حيث تستمر العلاقات التجارية بين الدول المتحاربة رغم قيام حالة الحرب.

---

(1) الدكتور محمد مفيد آل ياسين ، مصدر سابق، ص144.

سادساً : تبادل التمثيل الدبلوماسي

تطورت العلاقات الدبلوماسية في عهد الدولة العباسية لمجاورتها أمماً ودولاً عديدة وخاصة الدول الأوروبية المسيحية . وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد وأصبحت الدولة مترامية الأطراف مجاورة للعديد من الدول. وقد استفاد العباسيون من الدهاء الأموي ، واعتمدوا الأسلوب الدبلوماسي في حل مشاكلهم مع الدول المجاورة خاصة بعد ان ازدادت العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفراء ومنها سفارة الخليفة المنصور وملك الإفرنج ، وملك الروم ، وبين الخليفة هارون الرشيد وشارمان ملك الإفرنج سنة 797م و802 م ، وبين الخليفة المأمون والبيزنطيين[1].

فقد أرسل الخليفة ابو جعفر المنصور 170- 194هـ سفارة إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الشرقية مؤلفة من عدد من علماء المسلمين لجلب الكتب العلمية النادرة. كما أرسل وفدا إلى القسطنطينية لتقديم التهاني إلى الإمبراطور البيزنطي بمناسبة اعتلائه السلطة[2].

ففي عام 790م عقدت معاهدة صلح وسلام بين الدولة العباسية في عهد الخليفة هارون الرشيد والدولة البيزنطية مقابل ان تدفع الدولة البيزنطية الجزية للدولة العباسية. وأقيمت علاقات بين هارون الرشيد وقيصر الروم في المجالات الثقافية والعملية فتم تبادل السفارة بين الدولتين. وتبادل كبار العلماء بين الدولتين. وتوطدت في عهد الرشيد علاقات الصداقة والحقوق الدينية للمسيحيين الأوروبيين في داخل الدول العباسية حينما أرسل الرشيد سفارة إلى شارلمان إمبراطور فرنسا للتحالف والسماح

(1)Bakhrouchine et E. Kosmink , La Diplomatie du Moyen ag- Histoire la diplomate, Paris, 1964, p. 98.

ويراجع ايضا : ابو بكر احمد الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد مطبعة السعادة مصر 1931 ص 78. والدكتور مجيد خدوري ، الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارمان مطبعة التفيض بغداد 1939 ص 20والسيد عبد الجليل عبد الرضا راشد ، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس ، مكتبة النهضة ، الرياض 1969 ص 141والدكتور احمد فكري ، التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوروبية ، مجلة سومر ج1 ، و2 مجلد 23 سنة 1967.

(2) الدكتور كاظم هاشم النعمة ، مصدر سابق، ص 29.

للمسيحيين الأوربيين الذين يقدمون إلى زيارة بيت المقدس عام 1045 للحج مع إعطائه مفاتيح بيت المقدس[1].

وفي عهد المأمون أقيمت علاقات علمية مع الروم. كما أرسل سفارة إلى الروم لعقد اتفاق لتبادل الأسرى والدعوة إلى تحقيق السلام[2].

وقد أرسل الخليفة المتوكل في عام 861م سفارة برئاسة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية لمقابلة إمبراطور الروم "ميخائيل تيوفيل" لأقرار السلام بين الدولتين وتبادل الأسرى وعقدت معاهدة صلح بين الطرفين[3].

وفي عهد الخليفة المعتمد أقيمت علاقات تجارية بين الدولة العباسية ودول غرب أوروبا. ووصلت تجارة العرب إلى أيرلندا والسويد وأيسلندا والدانمارك. وأقام العرب مراكز تجارية في هذه الدول. وفي سنة 961م وصلت تجارة العرب إلى مملكة الروس وأواسط أوروبا حتى مدينة براغ. وتوسعت العلاقات التجارية بين الدولة العباسية وإيطاليا سنة 991م. فقد أرسل الدوق "بطرس" الثاني "أورسلو" حاكم إيطاليا مع وفد إلى الدولة العباسية للتبادل التجاري والترويج لبضائع البندقية حتى أصبحت السفن التجارية تتبادل البضائع الإيطالية مع كافة أنحاء الدولة العباسية. وقد وصلت تلك البضائع إلى فلسطين والخليج العربي والقاهرة عن طريق البحر الأبيض المتوسط. وقد قيل ان أساس قوة الثروة والقوة الاقتصادية في أوروبا كان يكمن في تجارة أوروبا مع العرب. وعندما انخفضت التجارة العربية مع أوروبا هبط الغرب إلى مستوى فلاحين زراعيين. وبعد عام 1270 بدأ تاريخ انتقال كثير من الصناعات من الدول العربية الإسلامية إلى دول غرب أوروبا كصناعة الأسلحة والزجاج والمعادن[4].

(1) الدكتور كاظم نعمة، المصدر السابق، ص20.

(2) وقد حملت رسل ملك الروم رسالة للمأمون جاء فيها: "اكتب إليك داعيا إلى المسالمة راغبا المهادنة لتضع اوزار الحرب عنا مع اتصال في المتاجر وفك المستأسرين وتأمين الطرق". وقد اجابه المأمون إلى طلبه.

يراجع الدكتور كاظم هاشم النعمة ، مصدر سابق، ص 32.

(3) المصدر السابق ص 34.

(4) المصدر السابق ص 36.

ومن الواضح ان تطور العلاقات التجارية بين الدولة العباسية والدول الاخرى يعني قوة الصلات بين هذه الدول واستمرارها، وما يتطلبه ذلك من مشاكل تتطلب تبادل الوفود والزيارات لتسوية المشاكل التجارية بين الدول.

سابعاً : تطور البريد

بالنظر لاتساع الدولة العباسية فقد طور العباسيون البريد بشكل كبير. فقد وضعوا محطات للبريد بلغت نحو ألف محطة تربط العاصمة بغداد بمختلف النواحي وعينوا لكل محطة رئيساً لملاحظة سير السعاة و الخيالة وحالة المحطات. وكان جميع هؤلاء الرؤساء يقدمون تقاريرهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى إدارة البريد العامة بالعاصمة التي كانت تعرض الأمر على الخليفة دون تأخير. وأصبح البريد يخدم أغراض الخلافة بوجه خاص. وكان الخليفة يعين عامل البريد من اقرب المتصلين به كما كان عامل البريد يدخل على الخليفة بلا إذن مسبق [1].

وقد اصبح البريد في العصر العباسي شبيها بالمخابرات في وزارة الدفاع. إذ يراقب صاحب البريد العمال ويتجسس على الأعداء. وأنشئ له ديوانٌ كبيرٌ مزود بمحطات على طول الطريق. وبدالات من الدواب والراكبين على مسافة فرسخين.

وكان عامل البريد يكتب إلى المركز عن معاملة الوالي للرعية. وغلاء الأطعمة وزيادة الأسعار وأمور الخراج ويشرف بنفسه على طرق البريد ومحطاته. ويجمع الرسائل وينظمها ثم يقدمها إلى الخليفة أو الوزير. وربما استعان الخليفة أحياناً بصاحب البريد لرسم خطة الحرب والوقوف على أفضل الطرق لمباغتة عدو أو إنشاء كمين. لذلك كان الخليفة أبو جعفر المنصور يرى ان أركان الملك أربعة لا يصلح الملك إلا بها: كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم واهمها في نظره صاحب بريد يكتب إليه بخبر الوالي والقاضي وصاحب الشرطة وصاحب الخراج[2].

وكان من جراء ازدياد الاهتمام بالبريد أن الخليفة إذا صلى المغرب وافاه صاحب البريد بما حدث في بياض النهار. وإذا صلى الصبح كتب إليه بما جرى في سواد الليل

(1) الدكتور احمد شلبي ، مصدر سابق، ص 419

(2) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 332.

وقد مكنه هذا الاطلاع الدقيق على أحوال البلاد من الإشراف بنفسه على شؤون الرعية، وإعادة الحق إلى نصابه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[1].

وعندما أرسل المعتصم لحرب الزط بالبصرة عجيف بن عنبسة، وأمره بترتيب الخيل في كل سكة من سكك البريد تركض بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عجيف بالبصرة فيصل من يومه إلى المعتصم ببغداد[2].

وقد استخدم البريد الجوي بواسطة حمام الزاجل. ونظم للبريد شبكة من الخطوط وكان للبريد الجوي أبراج بقلعة الجبل. فإذا نزل فيها الحمام نقل البراج ما على جناحه إلى حمامة أخرى توصله إلى المرحلة التالية [3].

وقد أصبحت بغداد عاصمة الدولة العباسية، ولم يعد الخليفة شيخا من شيوخ القبائل العربية ، إنما أصبح ملكا من الملوك الكبار . واصبح بلاط الخليفة مركزا دبلوماسيا يتوافد إليه العديد من الملوك والأمراء والرسل الأجانب من مختلف الأمم. وقد اطلع الخلفاء العباسيون على ممارسات الدول الأخرى في مجال التنظيم الدبلوماسي. فلم يعد القصر العباسي امتيازا وراثيا على تقديم الأقارب والأنساب، بل أصبحت الكفاءات والقدرة هي المعيار التي يلجأ إليه العباسيون في شغل الوظائف الحكومية والوظائف الدبلوماسية[4].

ثامنا : ولاية المظالم

ولاية المظالم كانت صورة من صور القضاء حول تسوية المنازعات بالوسائل السلمية. وقد وصفها إبن خلدون بأنها وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ومنصفة القضاء. وتحتاج إلى علو في السلطة وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصوم وتزجر المعتدي. وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم[5].

ولا يوجد في الوقت الحاضر مثل هذه السلطة. ويقترب منها مجلس الدولة أو المحاكم العليا التي تنشئها الدولة في ظرف معين. او المحاكم الدستورية التي تراقب دستورية القوانين او القرارات التي تصدر من الهيئات العليا في الدولة.

---

(1) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 332.

(2) المصدر السابق، ص 333.

(3) المصدر السابق، ص 333.

(4) كارل بروكلمان ، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها ج2 بيروت 1961ص7.

(5) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، ص 246.

ومن اختصاصات ولاية المظالم ما يأتي:

1. النظر في الشكاوي التي يرفعها أفراد الرعية على الولاة والحكام إذا انحرفوا عن طريق الحق والعدل.
2. النظر في جور العمال فيما يجتبونه من الأموال.
3. النظر في كتاب الدواوين لأنهم أمناء المسلمين على بيوت الأموال فيما يستوفونه ويوفونه.
4. النظر في تظلم المرتزقة إذا نقصت رواتبهم أو تأخر دفعها لهم.
5. رد ما اغتصبته أيدي الظلمة للمستضعفين المظلومين.
6. الإشراف على الأوقاف العامة والخاصة لتجري على سبلها وتمضى على شروط واقفيها.
7. تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة والمحتسبين لأن والي المظالم أقوى منهم يدا وانفذ أمرا.
8. مراعاة إقامة الشعائر والعبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد.
9. إنزال عقوبة التأديب بعملاء الدولة وكبار الموظفين.
10. تاخير البت في بعض القضايا إمعانا في الكشف عن أسبابها وظروفها[1].

تاسعاً : أصناف الرسل

أوجد التعامل الدبلوماسي في عهد الخلافة العباسية ثلاثة أنواع من الرسل :

النوع الأول – الكامل الاوصاف ويشترط فيه ان يكون كامل الاطلاع والمعرفة وهو المفوض إليه بعد المعرفة بفرض مرسله. ولذلك لا يوصى بأن يقول شيئا معينا لاحتمال أن يرى عند المشاهدة ان الصواب في غير ما أوصي به.

النوع الثاني – المتوسط الاوصاف وهو الذي يوصى بأن يقول شيئا معينا من غير زيادة أو نقصان اقتصارا على الثقة والأمانة والتيقظ .

(1) الدكتور صبحي الصالح ، مصدر سابق، ص 326.

النوع الثالث – المقتصر على الأمانة فقط ، وهو الموجه بكتاب ليأتي بجوابه دون أن يوصى بشيء معين . وهذا النوع رتبة متخلفة عن الرتبتين السابقتين ويطلق عليه " رقاصا "[1].

وهذه الألقاب في الواقع لا تخرج عن مفهوم السفير الذي يقوم بالتوسط بين الطرفين لحل مشكلة. والرسول الذي يبلغ رسالة إلى الطرف الآخر. والمبعوث الذي يوفد لهذه المهام ولغيرها.

عاشراً : مبدأ المقابلة بالمثل

وقد طبق العباسيون مبدأ المقابلة بالمثل . فكانت معاملتهم للأجانب تنطلق من معاملة هؤلاء الأجانب لرعايا الدولة العباسية . فإذا قامت الدولة الأجنبية بإعفاء رعايا الدولة العباسية من الرسوم أو فرضت عليهم رسوما أخرى أو منحتهم مزايا فإن رعايا تلك الدولة في الدولة العباسية يعاملون بذات المعاملة . وكان من نتيجة التطور الدبلوماسي ان نصت العديد من المعاهدات التجارية المعقودة بين الدولة العباسية والدول الأخرى على مبدأ المقابلة بالمثل[2].

حادي عشر : معاملة الرسل

بسبب سعة رقعة الدولة العباسية ومجاورتها لدول متعددة وازدياد تبادل الرسل مع هذه الدول، ظهرت الحاجة إلى وضع قواعد خاصة لتنظيم مركز الرسل مع هذه الدول، وقد برع فقهاء الشريعة الإسلامية في وضع القواعد الخاصة بامتيازات وحصانات الرسل واعتبروا الرسول مستأمنا تطبق عليه القواعد الخاصة بالمستأمن[3]. ومنحوه بالإضافة إلى ذلك الامتيازات الآتية:

1. دخول الرسول للدولة العباسية بدون عقد أمان : يتطلب لدخول المستأمن لدولة المسلمين عقد أمان بينه وبين المسلمين أو أي مسلم مكلف مختار.

---

(1) بدائع السلك في طبائع الملك ، مصدر سابق ، ج3 بغداد 2978ص 78.

(2) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، تعريب الدكتور بدر الدين القاسم بيروت 1972 ص 231.

(3) العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي ، غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى ، ط1 القاهرة 1377 ص 474.
والدكتور محمد كمال عبد العزيز ، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي مجلة القانون والعلوم السياسية ، الحلقة الدراسية الثانية بغداد 1969 ، الهيئة المصرية للكتاب 1972 ص 364.

أما بالنسبة للرسل فإن دخولهم الدولة العباسية يكون بدون عقد أمان شريطة ان يراعي واجباته دون تجاوز[1].

2. استقبال الرسل بموكب مهيب : جرت العادة على أن يرافق الرسول الأجنبي منذ دخوله ارض المسلمين وان يستقبل بحفاوة ومراسيم خاصة لا يتمتع بها المستأمنون، وتفوق كثيرا المراسيم التي يستقبل بها رسل المسلمين للخليفة. وعندما يدخل الرسول الأجنبي العاصمة الإسلامية بغداد يدخلها بموكب يجتاز الشوارع ويصطف الجنود له ويطاف به على القصور والأماكن المهمة وتغدق عليه الهدايا بسخاء إكراما لمنزلته عند المسلمين[2].

3. يتمتع الرسول بحق التنقل في أرض المسلمين بحرية تامة والعودة إلى دولته اي وقت يشاء ، وان كانت دولته في حالة حرب مع الدولة العباسية [3].

4. إقامة الرسول : تحدد إقامة المستأمن في الدولة الإسلامية بالمدة التي ينص عليها عقد الأمان وهي في الغالب سنة واحدة بحيث ان زادت يوما واحدا عدّ المستأمن ذميا وأصبح مكلفا بالتكاليف المكلف بها الذمي في الدولة الإسلامية[4].

أما بالنسبة للرسل ، فإن فقهاء الشريعة الإسلامية ذهبوا إلى أنَّ مدة إقامة الرسول تكون مطلقة وغير محددة بمدة معينة لأنه لا يخضع لشروط المدة في عقد الأمان المحددة للمستأمن[5] .

---

(1) العلامة زين الدين بن نجيم البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، دار الكتب العربية القاهرة 1334 هـ 364. والبهوتي ، كشاف القناع عن متن الإقناع ، ج3 ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ص 108.

(2) والدكتور مجيد خدوري الحرب والسلم في شرع الإسلام ،الدار المتحدة للنشر بيروت 1973 ص 325.

(3) الدكتور عبد الكريم زيدان الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ، مجلة القانون والعلوم السياسية ، الحلقة الدراسية الثالثة ، بغداد 1969 الهيئة المصرية للكتاب 1972 ص 163.

(4) علاء الدين الحنبلي، الأنصاف ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة 1956 ص 369. والزيلعي ، الكنز ، ج3 المطبعة الكبرى الأميرية مصر 1313 هـ ص 269.

(5) الدكتور عز الدين فوده ، النظم الدبلوماسية ، دار الفكر ، القاهرة 1961 ص155. وشمس الدين المقدسي ، عقد الفرائد وكنز الدقائق ، المكتب الإسلامي ، دمشق 1964 ص210.

ولا يجوز إخراج الرسول من الدولة الإسلامية ، إلا في حالة قيامة بأعمال خطرة كالتجسس أو الدعوة ضد الدين الإسلامي[1].

ويعود سبب تمديد إقامة الرسول دون المستأمن ، هو ان تحديد مدة للرسول يؤدي إلى الضيق والحرج وعدم إمكان تنفيذ المهمة التي جاء من اجلها . كما ان الاحترام الكبير الذي تمنحه الشريعة الإسلامية للرسول بسبب الدور الذي يؤديه في الصلح بين المسلمين ودولته . أما المستأمن فإنه يأتي من أجل الزيارة أو التجارة وان وجوده فيه شبهة بينهم تقتضي تحديد مدة إقامته بمدة معينة .

5. الإعفاء من التكاليف: اقر فقهاء الشريعة الإسلامية إعفاء الرسول من التكاليف التي تفرض على المسلمين[2] ويقوم هذا الإعفاء على أساس أن الرسول غير مكلف شرعا بهذه الواجبات، فلا يجوز تكليفه بدفع ما هو مفروض على المسلمين كالخمس والزكاة وغيرها لأنه ليس مسلما . كما لا يجوز تكليفه بدفع الجزية التي تفرض على الذميين لأنه لا يتمتع بحماية المسلمين بصورة دائمة، ولان وجوده في دار الإسلام يكون بصفة عارضة.

6. حرمة شخص الرسول وأمواله : ذهب فقهاء الشريعة الإسلامية إلى وجوب إلزام إمام المسلمين بتوفير حماية شخص الرسول[3]. وضمان ممارسة حرية العقيدة ، وأداء أعماله بحرية تامة[4]. فلا يجوز قتله او أسره أو استرقاقه . ولا يجوز التعرض لأمواله[5]. سواء ما حازه بجهده أو ما أوصي له أو ما ورثه من أقربائه لأن حقه في الملكية مصون[6]،وهي مصونة أثناء حياته وردها لورثته بعد مماته إن كانوا معه[7]، وإرسالها لهم إن كانوا خارج ديارالإسلام[8].

(1) الدكتور عز الدين فودة ، مصدر سابق ، ص 155.

(2) العلامة مصطفى السيوطي الرحيباني ، مطالب اولى النهى في شرح المنتهى ، ج 2 منشورات المكتبة المركزية ، دمشق 1961 ص 580.

(3) الإمام ابو محمد بن حزم ، المحلى ، ج 4 المكتب التجاري بيروت 1352 ص307.

(4) الدكتور عبد الكريم زيدان ، مصدر سابق ، ص 196.

(5) الإمام ابو عبد الله الحطاب ، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، ج 3 مكتبة النجاح ليبيا 1329 هـ ص 360.

(6) الشيخ ابو زهرة محمد احمد ، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ، مجلة القانون والعلوم السياسية ، المصدر السابق ص 254.

(7) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، المرجع السابق ص 363 .

(8) الإمام ابن عبد الله الخرشي ، شرح المحقق الجهبذ ، ج3 ، المطبعة الكبرى الاميرية مصر 1317 هـ ص 125.

وأموال الرسول تتمتع بالحرمة حتى إذا كانت هذه الأموال غنيمة غنمها الرسول ، أو أسرى أسرهم في حرب سابقة قبل دخوله لدار الإسلام فإنها لا تنتزع منه ولا يرجع بها إلى دار الحرب[1] .

ويترتب على ضمان حرمة شخص الرسول وحماية أمواله في دار الإسلام ، عدم جواز اعتباره أسيرا ، وأن وافقت دولته على ذلك، كما لا يجوز تسليمه لها وإن هددت دار الإسلام بالحرب لأن تسليمه يعد غدرا به[2].

ولم يلجأ العباسيون إلى مبدأ المقابلة بالمثل في حالة غدر الأعداء برسل العباسيين كما فعل الروم برسل العباسيين . ولذلك كان العباسيون يطالبون الروم والإفرنجة بضمان الحماية لرسلهم وتثبيت ذلك بمعاهدات[3].

7. مساعدة الرسل : ذهب فقهاء الشريعة الإسلامية إلى مساعدة الرسول الأجنبي والإنفاق عليه من بيت المال[4].

ورغم تطور العلاقات الدبلوماسية في الوقت الحاضر وتطور المفاهيم الدبلوماسية فانه لم يتوصل المجتمع الدولي إلى إقرار هذه القاعدة. ذلك ان الدول لا تقدم المساعدات المالية للمبعوثين الدبلوماسيين .

8. الإعفاء من الاختصاص القضائي : يتمتع الرسل بالحصانة القضائية . فقد روي عن أبي يوسف قوله : " لو أن هذا الداخل إلينا بأمان رسول زنى أو سرق فإن بعض فقهائنا قال : لا أقيم عليه الحد فإن كان استهلك المتاع في السرقة ضمنته لأنه لم يدخل إلينا لكونه ذميا تجري عليه أحكامنا "[5].

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن جرائم الحدود والقصاص لا يخضع لها الرسل . أما الإمام الشافعي فقد ذهب إلى التفرقة في شأن جرائم الحدود وبين ما كان الحق

(1) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، المرجع السابق ص 364.

(2) الدكتور عبد الكريم زيدان ، مصدر سابق ، ص 196.

(3) علي بن محمد ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكتاب الجديد بيروت 1972 ص 139.

(4) الدكتور عبد الكريم زيدان ، المصدر السابق ، ص 195.

(5) الدكتور سهيل حسين الفتلاوي ، الحصانة القضائية للمبعوث الدبلوماسي في العراق ، مطبعة اسعد بغداد 1980 ص 65.

خالصا لله تعالى وبين ما كان خالصا للآدميين. فقال بخضوعهم في الأخيرة دون الأولى التي لا يخضع في شانها إلا إذا اشترط عند دخولهم دار الإسلام[1] .

كذلك فقد ذهب جانب من الفقه الإسلامي إلى أن الرسول غير ملزم بإعطاء الشهادة أمام القضاء[2].

9. استقبل الخلفاء العباسيون الرسل في قصورهم في جناح خاص في قصر الخلافة " الخلد " المشتمل على قاعات مزدانة بأبهى الحلي والجواهر والفروش المذهبة . وفي بعض الأحيان كان الخلفاء يخرجون لاستقبال الوفود عند أبواب العاصمة بغداد بموكب ضخم تحيطه الهيبة والإجلال ودلائل القوة[3]، وتقدم للرسل أنواع الهدايا وتحترم أشخاصهم[4].

ويلاحظ أن اهتمام الدولة العباسية بالرسل يفوق ما تهتم به الدول في الوقت الحاضر. ولا توجد دولة في الوقت الحاضر تهتم بالرسل وتمنحهم الامتيازات والحصانات بمثل ما اهتمتْ به الدولة العباسية.

ثاني عشر : تطور علوم الجغرافيا

اهتم علماء الدولة العباسية بالجغرافيا بسبب اتساع الدولة وامتدادها، وانتشار البريد في سائر أرجائها والنشاط التجاري البري والبحري وسيطرتهم على مسالك التجارة العالمية والاهتمام بهذه المسالك والعناية بأخبار البلاد ولاسيما النائية منها وبسبب الحج الذي كان يهيئ للمسلمين المعرفة الجغرافية وبسبب الرحلات العربية والسعي لطلب العلم حيث كثرت الاسفار وازداد عدد الرحالة حتى وصلت رحلات العباسيين في عهد الخليفة هارون الرشيد إلى الهند وسيلان والصين. وقد اهتم علماء

(1) الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، الأم ، ج4 ، شركة الطباعة الفنية المتحدة 1961 ص 358. وحاشية ابن عابدين، رد المحتار ، ج 3 مطبعة بولاق القاهرة 1299 هـ ص 344.

(2) الدكتور سهيل حسين الفتلاوي ، مصدر سابق ، ص 66.

(3) الدكتور عبد الجبار الجومرد ، هارون الرشيد ، ج1 بيروت 1956 ص 315.

(4) الدكتور بدري محمد فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، بغداد 1973 ص 32.

الدولة العباسية بالجغرافية الوصفية. حيث تناول العلماء وصف البلاد والمدن والأنهار والجبال وحالة السكان ودونوا العديد من المؤلفات العملية بهذا الصدد[1].

وقد ساهمت علوم الجغرافيا في رسم حالة البلاد ومعرفة الأقاليم والدول والمدن وطرق الوصول اليها، واحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسكانية، من اجل تسهيل الاتصالات معها.

وبناء على ذلك فان بغداد قد شهدت في عصر الدولة العباسية افضل النظم الدبلوماسية التي لم يتوصل إليها المجتمع الدولي في الوقت الحاضر .

(1) الدكتور بهجت كامل عبد اللطيف التكريتي ، العراق قاعدة نشر الاسلام في المشرق، العراق قديمه وحديثه، شركة الوطاق للطباعة الفنية، بغداد 1992 ص 201.

الفصل الرابع

الدبلوماسية الإسلامية في العهد العثماني

سبق وأن أوضحنا بأن فترة الحكم العباسي شهدت تطورا فريدا لمفاهيم الدبلوماسية الحديثة. غير أن هذا التطور لم يجد المجرى الذي سيصل به تاريخ امتنا المجيدة بمستقبلها المنشود بسبب الانتكاسة التي تعرضت لها الحضارة العربية على يد الجيش التتري بقيادة "هولاكو" عام 656 هـ 1258 م، الذي نشر الخراب في مدينة بغداد ووضع نهاية مؤلمة للحاضرة العربية الإسلامية العريقة التي كانت بغداد عاصمتها[1]. فلم يعد هناك مجالٌ للتحدث فيه عن الدبلوماسية في الفترة اللاحقة للحكم العباسي لاستمرار احتدام الحروب والاضطرابات الداخلية، حيث اتجه هولاكو واحفاده من بعده إلى محاولة تصفية الحضارة العربية الإسلامية التي سادت قيمها الإنسانية والأخلاقية في العالم كله انذاك .

ومما زاد في تدهور القيم الدبلوماسية خلال هذه الحقبة التنافس بين الفرس والأتراك للاستيلاء على الوطن العربي والتنافس الأوروبي على الخليج العربي والحروب الدامية بينهما بصورة مستمرة[2].

وكان الأتراك قد اعتنقوا الإسلام في عهد الدولة العباسية وكان نفوذهم واضحاً على سياسة الدولة العباسية. وتولوا مناصب مهمة فيها. واستطاعوا ان يؤسسوا دولة في آسيا الوسطى وتوسعوا على حساب الدولة البيزنطية وتمكنوا من فتح القسطنطينية والمناطق المجاورة لها. واستطاعت الدولة العثمانية ان تمد نفوذها إلى

---

(1) يراجع عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث مطبعة دار الكتب بيروت 1975 ص 27.

(2) حسين محمد القهواتي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد 1975 ص27.

مناطق في أوروبا. وعلى الرغم من اتسام علاقاتها الدولية بالحروب فقد أقامت علاقات دبلوماسية متطورة وعقدت معاهدات عديدة مع الدول المجاورة.

وقد مرت الدولة العثمانية بمرحلتين: الأولى وهي مرحلة التوجه نحو أوروبا. والثانية التوجه نحو الشرق وبه تم احتلال الوطن العربي.

ونحن ندرس العلاقات الدبلوماسية في عهد الدولة العثمانية على الرغم من إنها ليست دولة عربية، غير إنها احتلت الوطن العربي فترة ما يقارب الأربعة قرون وطبقت عليه ما طبق عليها من علاقات دبلوماسية و معاهدات عقدتها مع الدول الأخرى.

وبناء على ذلك فإن هذا الفصل يتضمن المرحلتين في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول : نشوء الدولة العثمانية .

المبحث الثاني : الدبلوماسية العثمانية بعد احتلال الوطن العربي .

المبحث الأول
نشوء الدولة العثمانية

كان الأتراك يعيشون في سهول سبيريا الشمالية الواسعة وفي البوادي الواقعة شمال بحر قزوين وكان يتولى زعامتهم شخصيات بارزة تحكمهم وتقودهم وفق النظام القبلي الأبوي.

وقد بدأ الأتراك بالاندفاع من تلك المنطقة إلى بوادي آسيا الوسطى. وفي القرن السادس الميلادي كان للأتراك دولتان تمتدان من منغوليا والحدود الشمالية للصين حتى البحر الأسود. وقد دخل الأتراك الإسلام في عهد الدولة الأموية في حدود عام 700م. وبدأت الهجرة التركية من أواسط آسيا نحو المناطق الإسلامية على اثر سقوط الدولة الساسانية في فارس.

وعهد الخليفة المعتصم العباسي إلى الأتراك بأهم مناصب الدولة في الجيش والإدارة. وبدأ الأتراك بالظهور على مسرح الأحداث الإسلامية في العواصم الإسلامية. وقام بعضهم بدور مهم في نشر الإسلام في مناطق نائية. وعرف التاريخ منهم أعلاما من أبرزهم السلطان محمود الغزنوي، الذي امتدت فتوحاته في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي الى بلاد الهند. فأخضعها للإسلام[1].

وقد اشتد الصراع التركي الفارسي للسيطرة على قصر الخلافة العباسية يظهر بوضوح. فكان لهما الدور الكبير في التدخل في شؤون الدولة العباسية وتدهورها.

وفي عام 970 م خرجت طائفة أخرى من الأتراك من سهول تركستان يقودهم زعيمهم سلجوق. وقد اعتنقت تلك الجماعة من الأتراك الدين الإسلامي وتحمست له حماسا كبيرا. وتمكن هؤلاء من فتح خراسان وإيران. ودخل زعيمهم ارطغول بك بغداد عام 1055م فرحب به الخليفة القائم بأمر الله، واستعان به ضد اعدائه. وأسدى السلاجقة للدولة العباسية خدمات كبيرة، لدرجة ان الخليفة أنعم على ارطغول بك بلقب "ملك الشرق والغرب"[2].

---

(1) الدكتور محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، القاهرة 1976 ص 8.

(2) الدكتور محمد كمال الدسوقي، مصدر سابق، ص 9.

وقاد السلاجقة العديد من الحروب. وفي سنة 1071 تمكنوا من اسر الإمبراطور البيزنطي "رومانوس" الرابع واستولوا على بعض أملاك الدولة البيزنطية في أسيا الصغرى. غير ان دولة السلاجقة عانت من التفكك بعد وفاة "ملك شاه" عام 1091م[1].

ولم تعمر الدولة التركية السلجوقية طويلا. وتمكن قائدهم أرطغول من الاندفاع في توسيع إمارته عام 1280م . وقد تولى ابنه عثمان رئاسة هؤلاء وحكم الإمارة العثمانية بعد وفاة والده عام 1299م. وتحمسوا للإسلام واعتبروا جهادهم في سبيل الله[2]. وتوسع عثمان على حساب الدولة البيزنطية المسيحية المتاخمة لحدود إمارته. وأخذت هذه الإمارة اسم عثمان وأطلق عليها بالإمارة العثمانية[3].

وبعد وفاة عثمان 1326م جاء من بعده ابنه أورخان واتخذ مدينة بروسة " البيزنطية " التي فتحها أبوه عاصمة له. وفي عام 1328 سك النقود باسم أورخان. وكان وجه العملة يحمل عبارة: " لا إله إلا الله محمد رسول الله" ووجهها الأخر يحمل عبارة أورخان خلد الله ملكه. وقد شكل أورخان الجيش الانكشاري " القوة الجديدة " التي تتألف من الأسرى الذين وقعوا في أيديهم والأطفال الذين يؤخذون من المناطق التي احتلوها. والى جانب الانكشارية كان نظام الفرسان والسباهية. واستطاع أورخان بهذه القوات في نظامها الجديد ان يواصل حملاته ضد المسيحيين. وجاء من بعده ابنه سليمان سنة 1359م. وقامت الدولة العثمانية بفتح عدد من المدن الأوروبية[4].

وجاء بعد ذلك مراد الأول سنة 1360م الذي اتجه نحو شبه جزيرة البلقان للتوسع والقضاء نهائيا على سيطرة الدولة البيزنطية. وسقط أمراء البلقان تحت سلطته. واستولى على مدينة أدرنه عام 1362م وجعلها عاصمة للدولة العثمانية. ثم جاء بايزيد الأول سنة 1279م الذي قام بمحاصرة القسطنطينية في الوقت الذي كان يواجه الخطر المغولي بقيادة تيمورلنك. وجرت معركة كبيرة قرب أنقرة انتصر فيها المغول. فوقع بايزيد بالأسر وظل في الأسر حتى وافاه الأجل. جاء من بعده ابنه محمد الأول عام 1413م وأعقبه ابنه مراد الثاني 1421م[5].

---

(1) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة السلجوقية، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ص 100.

(2) الدكتور محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق، ص 14.

(3) الدكتور محمد عبدالعزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة 1969 ص 521.

(4) الدكتور محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق، ص 20.

(5) المصدر السابق، ص 28.

وجاء من بعده أبنه محمد الثاني 1451م. الذي تميز عن سائر سلاطين الدولة العثمانية. فقد تعلم العديد من اللغات والعلوم وخاصة علوم الفلسفة وكان شاعرا وجمع الشعراء حوله. وكان بارعا تمكن من حصار القسطنطينية وفتحها. ولم يدمر محمد الثاني القسطنطينية واظهر تسامحا منقطع النظير. ودخل في موكب نصر من باب القديس رومانوس. وحول كاتدرائية أيا صوفيا الى مسجد وأذن مؤذنون للصلاة في عدد من الكنائس التي حولت إلى مساجد. وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية وأطلق عليها اسم " اسلامبول " أي عاصمة الأسلام[1].

وأطلق على محمد الثاني " بمحمد الفاتح ". ومنح أهالي جنوه من سكان حي جلاطة بالقسطنطينية شروطا مناسبة للصلح لأنهم التزموا الحياد أثناء الحصار. فضمن لهم العيش والتملك مقابل تسليمهم أسلحتهم جميعا. ومنحهم حرية التجارة مقابل أدائهم الضرائب المطلوبة[2]. ومنح كبار رجال الدين المسيحي حرية دينية كاملة. وأمر بانتخاب بطريرك وتمت الانتخابات بحريّة كاملة. ومنحهم الحرية الكاملة في إدارة شؤونهم الدينية[3].

وتمكن محمد الفاتح من ضم الصرب والبوسنة والبانيا والهرسك إلى الإمبراطورية العثمانية. وتقدم لفتح البندقية فانزل بجيشها الهزيمة. واضطرت البندقية إلى عقد الصلح وعقدت معاهدة 1479م التي وافقت فيها على ان تدفع للسلطان العثماني مبلغا كبيرا كتعويض عن الحرب وضرائب سنوية مقابل تنازل السلطان عن عدة مدن استولى عليها[4].

وخلفه أبنه بايزيد الثاني سنة 1481م والذي ورث عن أبيه العلم والأدب والفن والفقه في الدين. ومما يؤخذ عليه ان أمر بإعدام أخيه الذي يرث الملك بعده . وظلت هذه العادة متبعة لمدة قرن من الزمان فقد كان السلطان الجديد لا يستقر له الأمر إلا إذا قتل إخوانه[5].

---

(1) للتفاصيل يراجع ادوارد جيبون، الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة الدكتور محمد سليم سالم، القاهرة 1969ص 347.

(2) الدكتور ادوارد جيبون ، المصدر السابق، ص 368.

(3) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة 1969 ص653.

(4) الدكتور محمد كمال الدسوقي ، مصدر سابق، ص 48.

(5) الدكتور محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق، ص 55.

ونرى ان الكثير من المشاكل التي انتابت الدولتين الأموية والعباسية كانت بسبب المنازعات الناشئة بين العائلة الحاكمة، بسبب التنافس على السلطة. وخاصة إذا المُلك عهد لاثنين من الاخوة. فقد يستأثر الأول بالحكم لأولاده وبينما يستعجل الثاني استلام السلطة فيعمد إلى قتل أخيه. غير ان حل هذه المشكلة عن طريق ان يقتل الحاكم الأول أخاه أو اخوته يدل على الوحشية.

ويعد سليمان الذي تولى السلطان بعد أبيه سليم الأول من أهم سلاطين الدولة العثمانية. وأطلق عليه بسليمان العظيم. فقد نشبت العديد من الحروب مع أوروبا. وتقدمت جيوشه لمحاصرة عاصمة النمسا. مما دفع " فرديناند" إمبراطور النمسا إلى عقد صلح مع سليمان عام 1523م اعترف له فيه بالسيادة على المجر[1].

وعقد السلطان سليمان معاهدة صداقة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا في عام 1536م ليتعاونا سويا ضد شارل الخامس. وقد توطدت الصداقة بين تركيا وفرنسا. وقامت أساطيلها بهجمات مشتركة على ثغور إيطاليا وإسبانيا ووصل التعاون البحري بين الدولتين إلى درجة أن فرنسا في شتاء عام 1543م. وضعت ميناء طولون الفرنسي تحت تصرف خير الدين وسفنه ورجاله ليجعل منه قاعدة بحرية يشن منها الهجمات على أساطيل شارل الخامس[2].

ونجح العثمانيون في السنوات التالية في طرد قوات شارل الخامس من ثغور شمال إفريقيا. وكادت هجمات الأساطيل الأسبانية ان تتوقف تماما بسبب ما كانت تتكبده من خسائر فادحة. وسيطر العثمانيون تماما على البحر الأبيض المتوسط. وأصبحت لهم السيادة على سواحل أفريقيا الشمالية الغربية على المحيط الأطلسي وجزر كناريا. وتمت لهم السيطرة على ولايات الجزائر وطرابلس وتونس[3].

وامتدت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي عبر قارات ثلاث. ففي أوروبا كانت تشمل شبه جزيرة البلقان كلها حتى نهر الدانوب شمالا وفي شمال نهر الدانوب كانت تملك ترانسلفانيا ومولدافيا ولاشيا. وأغلب أراضي المجر وإقليم بودوليا

---

(1) الدكتور محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق، ص 58.

(2) المصدر السابق، ص 91.

(3) المصدر السابق، ص 62.

في بولندا. كما كانت تملك كل الشواطئ الشمالية للبحر الأحمر. وفي آسيا كانت الدولة العثمانية تشمل آسيا الصغرى وأرمينيا واغلب القوقاز ووادي دجلة والفرات حتى الخليج العربي جنوبا وكل بلاد الشام وفلسطين وأجزاء واسعة من شبه الجزيرة العربية كما شملت في أفريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر. وفي البحر الأبيض المتوسط كانت تملك أيضا جزيرة كريت وجزيرة قبرص وكل جزائر إيجة[1].

ونرى ان اتجاه الدولة العثمانية نحو الغرب واحتلال العديد من الدول والأقاليم الأوروبية لم يكن بهدف نشر الدين الإسلامي بصورة أساسية. وإنما كان هدفهم التوسع والحصول على الموارد الاقتصادية. ولم يستخدموا المبدأ الإسلامي القائم على الخيارات الثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب. إنما وضعوا قاعدة الخضوع للسلطة العثمانية أو الموت. وقد قبلوا الجزية في بعض الأحيان لا من اجل الاختيار وإنما لعدم قدرتهم على الفتح. وقد فرضوا الجزية على المسلمين من العرب وغير العرب. حيث كان الجباة العثمانيون يقومون بتحصيل الضرائب من الفلاحين والتجار بالقوة. إضافة إلى انهم فرضوا الخدمة العسكرية على جميع المسلمين التابعين لهم.

وخلال هذه الفترة لم يتمكن الصليبيون من التوجه نحو الشرق بسبب تهديد الدولة العثمانية لممتلكاتهم. كما لم يظهر لهم نفوذ دبلوماسي في الوطن العربي.

وكان من الطبيعي في هذه الامبراطورية المترامية الأطراف ان تتعدد الاجناس وتتباين فيها . فكان هناك الأتراك والتتار والعرب والأكراد والتركمان والبربر والمماليك. وكل هؤلاء كانوا يدينون بالإسلام. يضاف إليهم من اعتنقوا الإسلام في بلغاريا وألبانيا والبوسنة. ومن غير المسلمين كان اليونانيون والهنغاريون والسلاف وأهل رومانيا وجورجيا وارمينيا. وكلهم كانوا يتبعون كنائس عدة اهمها الكنيسة الأرثوذكسية. وإلى جانب هؤلاء عاشت أعداد كبيرة من اليهود وفدت من مختلف انحاء أوروبا. لتنعم بما اشتهرت به الدولة العثمانية الإسلامية من تسامح وحسن معاملة لغير المسلمين. فبلغ تعداد الدولة العثمانية اكثر من خمسين مليون نسمة. في حين كانت بريطانيا اكبر دولة اوروبية بلغ تعدادها خمسة ملايين نسمة.

---

(1) يراجع: الدكتور احمد كمال الدسوقي ، مصدر سابق، ص 62.

المبحث الثاني
الدبلوماسية العثمانية بعد احتلال الوطن العربي

كان توجه الدولة العثمانية نحو الغرب لاحتلال وإخضاع الأقاليم والدول الأوروبية عملا كبيرا مهد لتوسع الدولة العثمانية وسيطرتها على أهم الأقطار التي كانت تهددها. ولو كثفت جهودها في التوسع نحو الغرب لكانت الدولة العثمانية قد حققت العديد من المكاسب للدولة الإسلامية. ولاستطاعت ان تتخلص من الأخطار الناجمة من هذه المناطق والتي كانت السبب الرئيس في القضاء عليها وإسقاطها.

ومنذ القرن السادس عشر وفي عهد السلطان سليم الأول 1515- 1520م حدث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية. فخف زحفها نحو الغرب واتجهت نحو الشرق في قلب المشرق العربي مهبط الدين الإسلامي الذي اعتنقه قادة الدولة العثمانية. وقد اتسم الزحف العثماني نحو الشرق بالسمات الآتية:

1. ان الزحف العثماني في القرن السادس عشر قد أوجد وحدة سياسية في المنطقة العربية بعد تفككها بسقوط الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث عشر.
2. ان زحف الدولة العثمانية حتى في أوج عظمتها لم يشمل جميع أرجاء الوطن العربي. فلم يشمل بعض مشايخ أو إمارات الخليج العربي ولم تسيطر سيطرة فعلية على قلب شبه الجزيرة العربية. ومع ذلك فقد ظل العثمانيون يدعون أن من حقهم السيادة على كل شبه الجزيرة العربية .
3. شهد الوطن العربي في ظل الدولة العثمانية عهدين. الأول يبدأ بالاحتلال العثماني للوطن العربي في القرن السادس عشر وينتهي في أواخر القرن الثامن عشر. وهو تاريخ الأنظمة العثمانية غير المباشرة وما أصابها من تدهور. والثاني يشمل القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين. ويمثل اتجاهات الدولة العثمانية الجديدة والتي شهد فيها الوطن العربي ظهور الحركات القومية[1].

---

(1) الدكتور السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1980ص8.

4. ان خضوع الوطن العربي للاحتلال العثماني تحت ستار الدين لم يمنح العرب حرية في قيادة أنفسهم او يساعدهم في النهوض من كبوتهم وتخلفهم. ولم يمنحهم هذا الاحتلال فرصة حكم أنفسهم. فقد كان الولاة يعينون من قبل الباب العالي ومن العائلة العثمانية. وما كان على العرب سوى دفع الضرائب والمشاركة في حروب الدولة العثمانية بصفة جنود دون ان يتمتعوا بأية حقوق تذكر. وقد عامل العثمانيون العرب بوصفهم شعب محتل عليه واجبات دون ان تكون له حقوق تذكر.

5. تحول العرب من عبودية المغول والفرس إلى عبودية العثمانيين. فلم يظهر لهم شأنٌ في السياسة او الدين. وخلال أربعة قرون من الحكم العثماني شهد الوطن العربي اظلم فترة مرّتْ في تاريخه القديم والمعاصر في جميع المجالات وخاصة المجالات السياسية والدينية والعسكرية والعلمية والثقافية والعمرانية.

6. لم يقم العثمانيون علاقة مع الشعب العربي خلال احتلالهم للوطن العربي فقد كانوا غرباء عن الأمة العربية. وغرباء عن التعامل في مشاكل العرب ومحنتهم. ولذلك فقد عد العرب خروج العثمانيين من الوطن العربي بمثابة انتصار للأمة العربية رغم انهم خرجوا من احتلال أجنبي عثماني إلى احتلال بريطاني كان اقسى وأمر من الاحتلال الأول.

وبالنظر إلى ان الوطن العربي قد خضع للدولة العثمانية 1530- 1914 وهو حكم أجنبي غير عربي إلا ان ما طبق في الدولة العثمانية من معاهدات طبق على الوطن العربي.

وشهد القرن السادس عشر زحف العثمانيين على بلاد المشرق العربي فبدأوا بالشام ثم مصر فالحجاز. وعملوا على بسط سلطانهم على اليمن. كما احتلوا العراق من الدولة الصفوية. ويرتبط فتح العثمانيين لليمن بفتحهم لمصر. فما كاد العثمانيون يفرغون من فتح مصر عام 1517م حتى وجدوا أنفسهم مضطرين لاتباع نفس الخطط التي كانت تسير عليها الدولة المملوكية في مدافعة الخطر البرتغالي عن البحار الشرقية فجعلوا من السويس قاعدة بحرية لعملياتهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي

والخليج العربي وإغلاقها في وجه الدول الأوروبية. فكانت هذه القاعدة الأمامية هي اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة[1].

وقد تمكن العثمانيون من السيطرة على سواحل اليمن. واصطدمت القوات العثمانية بالائمة الزيدية والقبائل اليمنية الأخرى. وقد أسرع السلطان سليم الثاني 1566- 1574م بإرسال حملة كبرى عام 1569 لإعادة السيطرة على اليمن وتسمى هذه الحملة بالفتح العثماني الثاني لليمن خلال العصر العثماني الأول. واصبحت اليمن ولاية عثمانية. ولم يتمكن العثمانيون من السيطرة على اليمن بسبب مقاومة اليمنيين للحكم العثماني، فخرجوا من اليمن عام 1635م. وفي عام 1839 تمكن الإنكليز من الاستيلاء على ميناء عدن[2].

وقد اتجهت أنظار الدولة العثمانية للسيطرة الفعلية على الخليج العربي. ومنذ ان تولى مدحت باشا ولاية بغداد أخذ يخطط لبسط النفوذ العثماني على الخليج وخاصة البحرين وقطر والاحساء ونجد والكويت. وكان آل صباح في الكويت يميلون منذ عام 1790 إلى الاعتراف بالسيادة العثمانية بشرط الا يترتب على هذا الاعتراف دفع جزية للسلطان. وان الدولة العثمانية قد لجأت منذ عام 1845 إلى دفع مرتب سنوي لشيخ الكويت نظير مشاركته في الدفاع عن ميناء البصرة بحريا. وقام الأتراك باحتلال الاحساء وعين نافذ باشا متصرفا على الأحساء التابعة لولاية بغداد. وكانت حكومة الهند البريطانية تراقب عن كثب نشاط الأتراك في الأحساء وقامت باحتلال بعض المناطق في الخليج[3].

ونظرا لاتساع الدولة العثمانية وتطور علاقاتها الدبلوماسية مع الدول الأخرى عقد العثمانيون العديد من المعاهدات مع الدول الأجنبية كان في مقدمتها معاهدة عام 1535م مع فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني ألزمت فيها الدولة العثمانية بمنح فرنسا امتيازات متعددة وخاصة في شؤون القضاء. بحيث يكون لممثل فرنسا الولاية الكاملة في مقاضاة الفرنسيين في المناطق الخاضعة للدولة العثمانية في القضايا المدنية والجزائية وصلاحية تنفيذ الأحكام الصادرة من محاكمها في صورة محاكم خاصة

طيب ما العيب من هذا ألم تذكر من حق الرسل و التعطيلات

(1) الدكتور السيد رجب حراز ، مصدر سابق، ص 73.

(2) المصدر السابق، ص 84.

(3) المصدر السابق، ص 167.

يطلق عليها " المحاكم القنصلية " . أما إذا كان أحد أطراف الدعوى من رعايا الدولة العثمانية فإن الدعوى تخضع لمحاكم خاصة في الأستانة[1].

وكان من الطبيعي ان تطبق بعض هذه المعاهدات على جميع الأقاليم العربية باعتبارها من أقاليم الدولة العثمانية، واصبحت المحاكم العثمانية في الوطن العربي غير مختصة بالنظر في القضايا التي تخص البعثات الدبلوماسية[2].

وقد أقام الفرنسيون علاقات دبلوماسية مع الدولة العثمانية فكان لهم سفيرٌ في الإستانة وهو " دي جرميني " . وكانت أول صلات بين العثمانيين والإنكليز منذ سنة 1461 م عندما أسس التجار الإنكليز مركزا تجاريا في مدينة نابولي حيث نشأت الصلات التجارية البحرية في الموانئ العثمانية . وكان التاجر الإنكليزي " انطوني جنكيسن " أول تاجر إنكليزي يحصل من السلطان سليمان القانوني عام 1520 على وثيقة أمرت المستخدمين العثمانيين مساعدته في مشروعه التجاري. وقد شجعت التطورات التجارية بين الدولة العثمانية والإنكليز على إقامة ممثلية تجارية بريطانية في الإستانة. وكان لاستقبال السلطان مراد الثالث 1574- 1595 اثر كبيرٌ في استقبال الممثل التجاري " خوزيه " . وفي عام 1583 عينت بريطانيا " هاربون " سفيرا لها في الدولة العثمانية. واستقبله السلطان مراد الثالث استقبالا حافلا. وقد بعث السفير البريطاني بالقناصل إلى القاهرة والإسكندرية والقدس ودمشق وحلب وطرابلس. وكان هاربون يتفاخر بأنه متفوق على السفير الفرنسي في الاحترام والتقدير[3].

وقد حافظ الإنكليز على تفوقهم الدبلوماسي في الدولة العثمانية حتى نهاية القرن السادس. غير ان هذه العلاقات كانت تتأثر بمواقف كل من الحكومتين

(1) احمد بن سدرين ، دارسة عن الامتيازات القنصلية مجلة القضاء والتشريع التونسية العدد 20 مارس 1976 تونس ص 36.

ومن المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية والتي منح بها الامتيازات للدول الأجنبية والتي يطلق عليها الامتيازات القنصلية. ومن هذه المعاهدات المعقودة مع كل من امارة بيتز سنة 1313 و1357 ومملكة ارغون سنة 1314 وامارة البندقية 1270 و1305 وفرنسا 1270 و 1742 و 1830 و1832 . ومع مملكة إنكلترا 1863 و 1875 . انظر السيد محمد علي منصور مساهمة التشريع والقضاء التونسيين في المحافظة على الذاتية القومية مجلة القضاء والتشريع التونسية العدد (2) لسنة 19 وزارة العدل التونسية 1977 ص 17.

(2) الدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ، دار الكتاب العربي القاهرة 1968 ص 283.

(3) الدكتور باسم حطاب طعمة ، العلاقات التجارية والدبلوماسية الانكليزية العثمانية 1558- 1625 دراسة تحليلية. مجلة آداب البصرة ، العدد 20 السنة 2001 جامعة البصرة ص135.

العثمانية والإنكليزية خاصة بعد ان بدأ نشاط شركة الهند الشرقية بالتعامل مع غير العثمانيين بنقل التوابل من الهند إلى أوروبا عبر موانئ غير عثمانية مما أضر بالمصالح العثمانية . وقد ساهم في العلاقات العثمانية الإنكليزية كثرة الحروب بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية[1].

وعلى الرغم من أن استانبول عاصمة الدولة العثمانية إلا إن الوطن العربي شهد في القرن الثامن عشر بعثات دبلوماسية أجنبية ، وأصبح ساحة للتنافس الدبلوماسي الأوروبي. فقد أنشأ الإنكليز أول ممثلية لهم في بغداد عام 1702 م وأخرى في البصرة عام 1764 م وفي أجزاء أخرى من الوطن العربي، كذلك فعل الفرنسيون والروس . وقد استغل الإنكليز الامتيازات الممنوحة لهم بموجب المعاهدات إلى أقصى درجة مما دفع الفرنسيين إلى تأليب الوالي عليهم الذي قام بمضايقتهم وانتهاك حصانتهم مرات عديدة كان من بينها قيام " داود باشا " بطرد القنصل البريطاني " كلودس رايش "، غير ان النفوذ البريطاني عاد للتفوق على النفوذ الفرنسي والروسي في زمن والي بغداد "علي رضا" الذي أعاد امتيازات المبعوثين الدبلوماسيين البريطانيين بصورة اكثر من السابق، حيث منحت بريطانيا امتيازات تجارية وهمية كان الغرض منها التمهيد لاحتلال العراق والوطن العربي .

وقد اهتمت روسيا القيصرية اهتماما واسعا بالوطن العربي وبدأت بعثاتها الدبلوماسية قبل الاحتلال العثماني منذ عام 1420. وازداد تواجدها في بغداد والشام والخليج العربي في القرن الثامن عشر وتنافسها مع فرنسا بريطانيا منذ عام 1765م، عندما وصلت بعثتها إلى بغداد بهدف وضع دراسة تفصيلية عن أحوال العراق والخليج العربي الاجتماعية والسياسية والجغرافية . وقد استطاع القياصرة إنشاء قنصليات لهم في عدد من المدن العراقية في القرن التاسع عشر ونظموا رحلات استطلاعية أخرى منذ عام 1843 [2].

---

(1) المصدر السابق ص 148.

(2) وكانت البعثات الدبلوماسية قد وصلت للعراق قبل الاحتلال العثماني . فقد بدأ " زاسيم " عام 1420 م ثم بعثة " اكسريفين " عام 1465م وبعثة " اي ن . بيريزن " عام 1818 وبعثة " بز جيريكوف " عام 1849 وبعثة " شيولكوفتيهكوف " عام 1902 والقنصل الروسي في البصرة " ادامون " عام 1012 . وقد قامت هذه البعثات بالتجول في مدن العراق . انظر: الدكتور كمال مظهر احمد ، ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي ، مطبعة الزمان بغداد 1977 ص 6.

وكان النشاط الدبلوماسي الروسي في الخليج قد استرعى انتباه الانكليز منذ عام 1887م، حين قام بعض الضباط الروس الذين يعملون في خدمة الحكومة الإيرانية بزيارة أصفهان وشيراز و بوشهر. وأعقب ذلك قيام أحد المهندسين الروس برحلة من بندر عباس إلى هرمز. وفي عام 1897 عين كروجلر قنصلاً روسيا في بغداد فأخذ يعمل للظفر بميناء أو محطة فحم لبلاده على الخليج العربي. إلى جانب بسط نفوذ الروس حتى الكويت[1].

وفي عام 1898 عين "لوردكيرزون" السفير البريطاني في إيران نائبا للملك في الهند. وذهب إلى الهند وقد ساورته الشكوك عن النشاط الروسي في الخليج العربي. مما جعله يصمم على الدفاع عن مركز بريطانيا ومصالحها في الخليج. وأكد في كتابه " المسألة الفارسية " بأنه يعد منطقة الخليج العربي منطقة بريطانية مغلقة ولا يسمح لأية دولة ان تحصل على قاعدة تجارية او بحرية على سواحلها. وعين في عام 1898م الكونت " فلادمير كابنيست " لدى السلطان عبد الحميد الثاني لبناء مشروع خط حديدي من ميناء طرابلس السوري على البحر المتوسط إلى أحد مواني الخليج العربي، على ان تمتد منه فروع إلى بغداد وخانقين[2].

ولما كان مشروع كابنيست من شأنه ان يؤدي إلى ظهور النفوذ الروسي في الكويت. فقد انبرى لورد كيرزون لمعارضته لانه يضر بمصالح بريطانيا في الخليج العربي. الأمر الذي دفع الحكومة البريطانية الى عقد اتفاقية عام 1899م مع الكويت[3].

وعندما ضعفت الدولة العثمانية ازداد عدد المبعوثين الدبلوماسيين الأجانب في القاهرة وبغداد والبصرة ومنطقة الخليج العربي . واستطاع الإنكليز ان يعقدوا اتفاقا خاصا مع والي بغداد " داود باشا " في عام 1823 يضمن لهم توفير الحماية والحرمة الشخصية ومنحهم الامتيازات والإعفاءات المالية وحق تملك العقارات في بغداد[4] .

وترجع العناية الكبرى من قبل الدول الأوروبية بالوطن العربي إلى حملة نابليون على مصر التي جعلت الإنكليز يتخذون إجراءات إيجابية لمقاومة المشروعات الفرنسية

(1) الدكتور السيد رجب حراز ، مصدر سابق، ص 173.

(2) المصدر السابق، ص 174.

(3) المصدر السابق، ص 177.

(4) محمد اسعد طلس ، تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث ، دار الأندلس بيروت 1963 ص28.

للوصول إلى الهند عبر الوطن العربي. وقد أدت حملة نابليون على مصر إلى استخدام الإنكليز طريق العراق لفترة محدودة إلى الهند وإلى ان يرفعوا من مستوى التمثيل الدبلوماسي لمراقبة النشاط الفرنسي وللإشراف على نقل البريد عبر العراق إلى أوروبا وبريطانيا[1].

وقد اهتم السفير البريطاني في الأستانة " سترانفورد كانتج " بمشروع الملاحة البحرية بين الشرق والغرب. فقد وجد ان التنافس البريطاني الروسي الفرنسي في الوطن العربي كان خطيرا. فنزلت الجيوش الفرنسية في الجزائر ووقعت الحرب الروسية العثمانية وبدأت المنازعات بين محمد علي والسلطان العثماني. وقد أوكلت بريطانيا الى ضابط بريطاني "جسني" كان يعمل في صفوف الجيش العثماني ضد الروس استطلاع أحوال الوطن العربي عام 1832 وإيجاد منفذ بين أوروبا والهند عبر العراق وسوريا وقدم تقريره إلى السفير البريطاني في الاستانة. وفي الوقت نفسه كانت القوات المصرية تكتسح الشام مما دفع الحكومة البريطانية إلى الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية. ولهذا كانت مقترحات السفير البريطاني في الاستانة "سترانفورد كانتج" القيام بجهود دبلوماسية لمقاومة الزحف المصري والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا تسعى إلى الحصول على امتيازات لها في نهر الفرات في العراق وسوريا لا يشاركهم فيه أحد بدلا من استخدام قناة السويس[2].

وقد بذلت جهود دبلوماسية كبيرة من اجل منع استخدام نهر الفرات من قبل بريطانيا كبديل عن قناة السويس. وكانت هذه الجهود قد بذلت من قبل محمد علي باشا وفرنسا وروسيا. وقد نجحت هذه الضغوط على السلطان العثماني ووضعت العراقيل أمام تنفيذه. وقد حرضت هذه الجهات العشائر لمقاومة مشروع استخدام نهر الفرات[3].

وقد كان لهذا التنافس آثاره في احتدام المهام الدبلوماسية الغربية لدى الدولة العثمانية. حيث بدأت كل دولة تقيم لها ممثليات في المدن العربية من اجل مراقبة الأنشطة الدبلوماسية للدول الأخرى.

---

(1) الدكتور عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، دار الكاتب العربي، القاهرة 1968ص242

(2) المصدر السابق، ص 247.

(3) المصدر السابق ص 259.

ومن الامتيازات التي يتمتع بها أعضاء البعثة الدبلوماسية البريطانية في جميع أرجاء الوطن العربي ما يأتي:

1. توفير الأمن الكامل لحياة وشرف كل فرد من أفراد الحكومة البريطانية ورعاياها العاملين معهم والاعتراف بامتيازاتهم وحقوقهم .
2. لا تجبى منهم أموال أو تنتزع منهم ممتلكات.
3. لا ضريبة إلا الضريبة المحددة على القوارب والممتلكات.
4. للبعثة الدبلوماسية في بغداد حق تملك ارض لمنزل رئيس البعثة وحديقة في المكان الذي يحدده هو.
5. حق للبعثة ان تفرض حمايتها على من تشاء من الناس ما دامت هذه الحماية لا توقع الضرر بأحد[1] .

وبالنظر لعدم استطاعة الحكومة العثمانية توفير متطلبات هذه الحماية فقد كانت بريطانيا تحيط بعثتها الدبلوماسية في بغداد بمجموعة من الحرس يطلق عليهم Accompany Sepoys وفي نهر دجلة ترابط باخرة بريطانية مسلحة تقف أمام البعثة باستمرار لحراستها وحمايتها[2].

وبصورة عامة كانت الحكومة العثمانية في الأستانة تعترف للمبعوثين الدبلوماسيين الذين تعينهم دولهم كممثلين لها في بغداد ببعض الامتيازات والحصانات كما يظهر ذلك من الأوامر الخاصة بقبول اعتمادهم[3]. ومن هذه الامتيازات ما يأتي:

1. إن ترفع البعثة الدبلوماسية علم دولتها .
2. الإعفاء من الضرائب المفروضة على البضائع التي تجلب معهم ومن الضرائب المحلية .

(1) انظر علاء موسى كاظم نورس ، مصدر سابق ، ص 122.

(2) الدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص 290 . وعلاء موسى كاظم نورس ، حكم المماليك في العراق 1975 – 1831 ، منشورات وزارة الإعلام ، بغداد 1975 ص74.

(3) في عام 1802 صدر فرمان تعيين " هارفرد جونز " قنصلا عاما في العراق . وقد جاء بالفرمان ما يأتي : " يعين هارفرد جونز قنصلا في بغداد ليحمي مصالح البريطانيين تحت العلم الانكليزي ، وان تحدد الرسوم والضرائب بثلاثة بالمائة من ثمن البضائع ولا يتدخل في شؤونه ولا يسجن ولا تفتش داره ولا توضع فيها عساكر . ويعفى معاونوه وخدمه من الضرائب . وأية شكوى منه تحال إلى السلطان وحده وان يسمح له بالتسلح في المناطق الخطرة وان يساعده رجال السلطان في عمله .

انظر مجلة الف باء العدد 515 السنة الحادية عشر 2 آب 1977 بغداد وزارة الأعلام ص 6.

3. التمتع بالحصانة القضائية الجزائية .
4. صيانة شخصية المبعوث الدبلوماسي وعدم الاعتداء عليه .

ورغم اعتراف الحكومة العثمانية في الأستانة بامتيازات وحصانات المبعوثين الدبلوماسيين في الوطن العربي، فإن هذه الامتيازات والحصانات غالبا ما تنتهك من قبل ولاة الدولة العثمانية بسبب استغلال المبعوثين الدبلوماسيين الأجانب في الوطن العربي وخاصة الإنكليز منهم لهذه الامتيازات والحصانات وتدخلهم في شؤون الولاة[1] .

وغالبا ما ترتبط الامتيازات والحصانات الدبلوماسية بمدى علاقة الدبلوماسي بوالي الولاية. فكلما كانت هذه العلاقة جيدة كلما كان المبعوث الدبلوماسي يتمتع بها بصورة كاملة ، وكلما ساءت علاقته بالوالي فقد امتيازاته الدبلوماسية[2].

أما السبب الثاني فهو تفكك الدولة العثمانية وعدم خضوع ولاة ولايات الدولة العثمانية في بعض الأحيان إلى أوامر الحكومة العثمانية في الأستانة[3] .

وبناء على ذلك فان الامتيازات والحصانات الدبلوماسية التي كانت تعترف بها الدولة العثمانية للمبعوث الدبلوماسي الأجنبي في ولايات الدولة العثمانية غير مستقرة وغير ثابتة. حيث كانت تتوقف على مدى علاقته بالوالي.

واتجهت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد في سنة 1882م الى الإتصال بكل من النمسا وألمانيا. فارسلت ألمانيا بعثة من الضباط الألمان في العام المذكور لتدريب الجيش التركي وتطويره. وكان يرأس تلك الحملة الجنرال "جولتز". وقد استقبلت البعثة الألمانية استقبالا رائعا من الحكومة التركية. وبدأ منذ ذلك التاريخ النفوذ الألماني في الجيش التركي الذي استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. كما

(1) وكان كثيرا ما يتدخل ممثل بريطانيا في شؤون والي بغداد ، وكانت له سلطة تضاهي قوة الوالي حيث انه كان يتدخل في بعض الأحيان في تعيين الوالي . فقد كان " هارفرد جونز " في عام 1808 م مثلا يتدخل في القضايا الداخلية كما لو كان احد اعيان الدولة وان دار رئيس البعثة الدبلوماسية البريطانية كانت مجلساً اجتماعياً محلياً وملتقى لأكثر الموظفين والأشراف ، وكان بيت رئيس البعثة مفتوحا للضيوف ودارا للبحث والتنقيب الأثري وقد كان الولاة ينظرون إلى الممثل البريطاني نظرة احتقار . ففي عام 1809 منع سليمان باشا الصغير والي بغداد دخول الممثل البريطاني إلى بغداد إلا بعد ان يمضي فترة في قرية خارج بغداد ".
انظر علاء موسى كاظم نورس ، مصدر سابق ، ص 75.

(2) انظر علي شاكر علي ، تاريخ العراق في العهد العثماني رسالة مقدمة لكلية الآداب في جامعة بغداد 1976 ص 119.

(3) المصدر السابق ص 120.

تحسنت العلاقات الروسية خاصة بعد مقتل إسكندر الثاني قيصر روسيا عام 1881م. فقد حرص القيصر اسكندر الثالث على تحسين العلاقات مع تركيا مستغلا ما شاب العلاقات التركية البريطانية من فتور[1].

وعلى الرغم من توسع النفوذ الألماني في أوروبا، إلا انه لم يكن لها نفوذ في منطقة الشرق الأدنى سوى الإرساليات الدينية في بلاد الشام. فكان هم بسمارك عزل فرنسا عن أوروبا. غير أن بسمارك اتجه لبناء نفوذ سياسي في الدولة العثمانية وخاصة في الأستانة. وقام بإرسال ضباط لتدريب الجيش العثماني. وبعد انتهاك حكم بسمارك ازداد التغلغل الألماني في الدولة العثمانية. ولهذا فقد توطدت العلاقات الاقتصادية بين الدولتين لدرجة كبيرة[2].

وقد تمكن اليهود في الدولة العثمانية من التأثير على سياسة الدولة العثمانية الخارجية . وقد تزوج بعض السلاطين العثمانيين من اليهوديات كما كانت أمهات بعضهم من اليهوديات وفي عهد السلطان مراد الرابع تحسن حال اليهود في الدولة العثمانية. وساعد اليهود الدولة العثمانية ومدوها بالمال ضد الدولة الفارسية[3]. ويقول الرحالة الانكليزي الذي زار مدن الدولة العثمانية عام 1831م بان اليهود في الدولة العثمانية كان يتاح لهم تسلم أعلى الوظائف في الدولة ولم يكن اليهود من الفقراء وكانوا من ابرز الأغنياء في الدولة العثمانية. وقد أشاد الرحالة " بنيامين " عند زيارته للمدن التابعة للدولة العثمانية عام 1848م بمركز اليهود الاجتماعي والسياسي والمالي في الدولة العثمانية . وازداد موقع اليهود قوة وتحسن وضعهم التجاري خاصة بعد افتتاح قناة السويس عام 1869م[4].

وفي المؤتمر الصهيوني الثالث للمنظمة الصهيونية العالمية عام 1899م أعلن هرتزل بأن هدف حركته هو الحصول على موافقة الحكومة العثمانية للبدء بتنفيذ خطته في

(1) الدكتور احمد كمال الدسوقي ، مصدر سابق، ص 282.

(2) الدكتور السيد رجب حراز ، مصدر سابق، ص 187.

(3) يعقوب يوسف كورية ، مصدر سابق ، ص 12.

(4) الموسوعة العبرية المصدر السابق .

استيطان فلسطين تحت حماية السلطان وان الصهيونية تفضل الحصول على ترخيص من السلطان بدلا من إرسال اليهود بطريق غير مشروع الى فلسطين[1] .

وقد اتصل هرتزل باستاذ جامعي يهودي في جامعة بودابست يدعى "فامبيري" يتحدث باثنتي عشرة لغة. واعتنق خمسة أديان. وكان فامبيري على علاقة شخصية بسلطان الدولة العثمانية ووعده هرتزل بمساعدة مالية إذا أثمرت جهوده مع السلطان. وفي عام 1901 دعا هرتزل لمساعدة مالية للحكومة العثمانية لإطفاء ديونها للممولين الأجانب بواسطة قرض يقدمه بعض الرأسماليين اليهود مقابل السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين [2].

وعكس ما يقال عن السلطان عبد الحميد فقد كان متسامحا مع اليهود لدرجة كبيرة. فعندما قابله هرتزل قدم له طلبا جاء فيه " نحن اليهود نحتاج الى من يحمينا في هذا العالم نريد لهذا الحامي ان يستعيد قوته "[3] اي ان هرتزل يريد للدولة العثمانية ان تكون قوية . وقد استخدم هرتزل الصحافة اليهودية ضد الأقلية الأرمنية في الدولة العثمانية المتمردة ليحوز على رضى السلطان[4] .

وبعد هذه المقابلة استدعى عزت باشا أحد مستشاري السلطان هرتزل للتفاوض معه بشأن اقتراحه لإطفاء الديون العثمانية وابلغه ان اليهود يستطيعون دخول الدولة العثمانية شرط ان يوافقوا على قبول الجنسية العثمانية. ولن يسمح لهم بالاستيطان الجماعي في فلسطين وان الحكومة العثمانية ستعين الأماكن التي سيسمح لهم بالاستيطان فيها . غير ان هرتزل رفض هذا العرض وعلى الرغم من ذلك ، فإن فامبيري عاد وأكد لهرتزل ان السلطان يرفض السماح لليهود بالهجرة الجماعية إلى فلسطين وانه قد يسمح لهم بالاستيطان في آسيا الصغرى أو العراق[5] .

وكان لموقف الحكومة العثمانية الدور الكبير في مناقشة مشروعها أمام المنظمة الصهيونية العالمية باستعمار منطقة من مناطقها الشاسعة . ففي المؤتمر الصهيوني السابع طرح موضوع استيطان العراق كنقطة تجمع لليهود ومن ثم الانتقال

---

(1) صبري جريس ، مصدر سابق ، ص 164.

(2) اسحق درينميم ، الحركة الصهيونية ، ترجمة عن العبرية جودت السعد، الاردن إربد ص 71 .

(3) الدكتور عبد الحميد المستيري ، صهيونية هرتزل العلمانية ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية العدد الرابع المجلد الثالث جامعة بغداد 1975 ص 163.

(4) الدكتور عبد الحميد المستيري ، مصدر سابق ، ص 164.

(5) صبري جريس ، مصدر سابق ، ص 64.

إلى فلسطين بدلا من استيطان أوغندا . وقد رفض المؤتمر مشروع استيطان العراق أو أوغندا كنقطة تجمع لليهود. خرج اليهود المؤيدون لاستيطان العراق أو أوغندا من المؤتمر واسسوا منظمة جديدة أطلقوا عليها اسم " المنظمة الإقليمية اليهودية " . وترأس هذه المنظمة اليهودي البريطاني " يسرائيل زانغويل " وفتحت لها فروعا في بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية. وكانت مطالبتهم ان يكون العراق أو أوغندا نقطة تجمع لليهود ومن ثم الهجرة الى فلسطين [1].

وقد ساعد ضعف سلطان الدولة العثمانية وولاتها على هجرة العديد من اليهود إلى فلسطين وإضفاء الحماية عليهم تحت ستار الامتيازات القنصلية التي منحتها الدولة العثمانية لرعايا الدول الأجنبية في الأراضي العثمانية طبقا لاتفاقيات عقدت لهذا الغرض[2]. وقد تمتع اليهود بموجب هذه الاتفاقيات بوصفهم أجانب بحرية تامة داخل وخارج فلسطين وهذا ما خلق لهم حرية ترتيب أوضاعهم[3] .

ومما شجع اليهود على التفكير بإقامة الدولة في فلسطين هو ضعف الدولة العثمانية وخاصة في أواخر أيامها . وعكس ما يقال عن السلطان عبد الحميد فانه كان متسامحا مع اليهود وخاصة الحركة الصهيونية. وقد تم في عهده إقامة أول مستوطنة يهودية في فلسطين وهي مستوطنة ديانا عام 1882. وقد تمت في عهده ومن جاء بعده موجتان من الهجرة الصهيونية إلى فلسطين الأولى (1882- 1903) والثانية (1904- 1914)[4] .

كانت الهجرتان اليهودية الأولى والثانية اللتان تمتا في عهد الدولة العثمانية باكورة قيام الحركة الصهيونية والتفكير الجدي بإقامة الدولة الصهيونية في فلسطين لما وجدته الحركة الصهيونية من تسامح من الدولة العثمانية. فلو منع العثمانيون من الهجرة إلى فلسطين لما قام الكيان الصهيوني في الوطن العربي. وعندما سقطت الدولة العثمانية خلفت وراءها مشكلة اليهود في فلسطين، ولا يزال العرب يعانون مما اقترفه العثمانيون بحقهم من زرع هذا الكيان في وسط الوطن العربي .

---

(1) يراجع كتابنا الصهيونية حركة استعمارية استيطانية توسعية ، مطبعة عصام بغداد 1990 ص55.

(2)A. Revusky . Jews in Palestine . King and Son . London 1935 . p. 13.

(3)Ben Halpern . The Idea of Jewish State . 2ed. Cambridge 1969,p .105.

(4)Yonathan Shapiro . The Formative Years of the Israeli Labour Party, Sage Publication , London 1976, p. 9.

وكان تعامل العثمانيين مع الحركة الصهيونية ينطلق من اعتبارات سياسية ومالية. فقد اعتقدوا ان استمالة اليهود سوف يجعلهم وسيلة ضغط على الدول الأوروبية، كما ان وعد اليهود بدفع الديون المترتبة على الدولة العثمانية سوف يخفف الأعباء المالية المترتبة عليها. غير ان النتائج جاءت بضياع فلسطين دون ان يحصل العثمانيون على مقابل لذلك.

ومنذ ان بدأ ضعف الدولة العثمانية وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر شغل أذهان الساسة في أوروبا التفكير في مصير هذه الدولة ووراثة أملاكها. أما الدول التي كانت تتأهب للانقضاض على الدولة العثمانية فهي :

1. بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها الى الشرق الأقصى والهند خصوصا بعد سيطرتها عليها. من اجل تأمين تجارتها.
2. روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذا من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالاستيلاء على القسطنطينية ومضيق البسفور والدردنيل.
3. فرنسا التي أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا الدول المسيحية الكاثوليكية في الليفانت والمارونيين على الأخص في لبنان وحماية مصالحها في هذه المنطقة.
4. النمسا التي اهتمت بمصير الدولة العثمانية التي بات من المتوقع هلاكها فسميت لذلك برجل أوروبا المريض[1].

وقد دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وخسرت الحرب وتوزعت ممتلكاتها على الدولة المنتصرة بموجب معاهدة لوزان عام 1923م.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية ما يأتي:

1. توسع الدولة العثمانية في مناطق بعيدة عن العاصمة إستانبول وتوزع قواتها في جميع هذه المناطق. ولم يدخل سكان هذه المناطق الإسلام لفرض تجندهم للخدمة إلى جانب قواتها المسلحة. وقد اضعف ذلك قوة الجيش العثماني بسبب تفرقه في بقاع متعددة من العالم.
2. تغلب العنصر القومي على العامل الديني في توظيف وتعيين الولاة في الدولة العثمانية. فلم يعتمدوا على المسلمين من العرب في فتوحاتهم أو التعيين في الجيش أو الولاة. فكان العرب يستخدمون كالإنكشارية. لا سلطة لهم.

(1) السيد رجب حراز ، مصدر سابق، ص 9.

3. لم يهتم العثمانيون بالإسلام وبمنحه المكانة اللازمة التي يستحقها. فلم يقيموا المؤسسات العلمية الدينية، خاصة في المناطق التي احتلوها.
4. لم يهتم العثمانيون بتطوير المناطق التي فتحوها. فلم يهتموا بالتعليم والصحة ومساعدة المحتاجين ونشر العدالة. وكان جل اهتمامهم هو جمع الضرائب والسوق للخدمة العسكرية. فكانوا عبئا كبيرا وليس رحمة بالناس.
5. اعتمد العثمانيون على نظام "البكات" في تعيين الولاة في الأقاليم التي فتحوها. حيث يعين الوالي من العثمانيين ممن قدم خدمات جليلة لهم أو ممن يخافون من ثورته أو تمرده فأبعدوه بتعيينه في مناطق بعيدة. مما جعل هؤلاء يشعرون بأن المناطق التي عينوا فيها اصبحت ملكا لهم يتصرفون فيها كما يشاؤون دون رقيب. خاصة وان غالبيتهم من الجهلاء الجشمين.
6. لم يحمل العثمانيون روح المسامحة والرفق بأهالي المناطق التي احتلوها فكانوا عبئا ثقيلا عليهم.
7. في الوقت الذي كانت أوروبا تشهد ثورة صناعية كانت الدولة العثمانية تعيش في جهل كبير . فلم تنقل هذه الثورة أو تستفيد منها. فلم يكن العثمانيون يهتمون بالعلم والتطور الصناعي والعلمي.
8. ظهرت العديد من الحركات التركية المنصرية كالحركة الطورانية وتركيا الفتاة وغيرها من المنظمات القومية العنصرية. والتي كانت تهدف إلى القضاء على الإسلام كدين للدولة والاقتداء بالدول الأوروبية القومية.
9. ساهمت الإتفاقيات القنصلية التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية في تثبيت الوجود الغربي في الدولة العثمانية وتفتيتها من الداخل. فأصبحت الممثليات القنصلية محاكم يلجأ إليها رعايا الدولة العثمانية لتسوية مشاكلهم. مما جعلها تتدخل في شؤونها الداخلية.

وقد اجتمعت هذه العوامل في اسقاط الدولة العثمانية. فجاءت الحرب العالمية الأولى لتعلن سقوط هذه الدولة التي امتدت عبر مئات السنين. وتوزعت ممتلكاتها على الدول المنتصرة في الحرب.

صار حقيقة واقعة بعيدا عن التعصب والوثنية القومية
وهو أن الدولة العثمانية في أواخر حكمها ليس فقط ظالمة
بل ارتد عن دينها لذا لا يحسب على الإسلام والمسلمين
ما فعلت من خراب ودمار.

المراجع

أولا : المصادر العربية :

1. إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3 دار صادر بيروت 1965، ص 96.
2. ابو الحسن المرغنياني، الهداية شرح بداية المبتدي، ج2 مصطفى البابي القاهرة 1936 .
3. ابو بكر احمد الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد مطبعة السعادة مصر 1931.
4. أبو عمر احمد بن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد ج 1 ط 2 مطبعة لجنة التاليف 1948 .
5. ابو عمر احمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، ج 2 لجنة الترجمة والنشر 1956
6. ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، ج1، دار الفكر بيروت، .
7. ابو بركات عبد الله ابن احمد بن محمود النسفي تفسير النسفي. ج 3 مصر .
8. الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري تاريخ الرسل والملوك والأمم ، ج2
9. أبو على الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء، رسائل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت 1972.
10. إسماعيل إبراهيم على محمد السامرائي، الحوار في القران الكريم، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة الإسلامية، جامعة بغداد 1989.
11. ابن منظور، لسان العرب المحيط للعلامة، طبعة دار لسان العرب بيروت .
12. الإمام ابو محمد بن حزم، المحلى، المجلد الرابع، بيروت 1354هـ .
13. ابو محمد عبد الملك بن هشام، كتاب السير النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا واخرون، القسم الأول الجزأين الاول والثاني، ط 2 مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1955.

14. احمد بن سدرين، دارسة عن الامتيازات القنصلية مجلة القضاء والتشريع التونسية العدد 20 مارس 1976 تونس.
15. احمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، علي بن أبي طالب.إمام العارفين، مطبعة السعادة القاهرة 1969 .
16. احمد حلمي إبراهيم، الدبلوماسية، البرتوكول، الأتيكيت، المجاملة، عالم الكتاب، القاهرة 1976 .
17. ادوارد جيبون، الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة الدكتور محمد سليم سالم، القاهرة 1969.
18. اسحق درينعيم، الحركة الصهيونية، ترجمة عن العبرية جودت السعد الاردن أربد .
19. الإمام ابو عبد الله الحطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، ج 3 مكتبة النجاح ليبيا 1329 هـ.
20. الإمام أبو محمد بن حزم، المحلى، ج 4 المكتب التجاري بيروت 1352.
21. الإمام ابن عبد الله الخرشي، شرح المحقق الجهبذ، ج3، المطبعة الكبرى الاميرية مصر 1317 هـ .
22. الإمام برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، ج1 المكتبة الاسلامية، دارالفكر، لبنان بيروت.
23. الإمام زين الدين الجبعي العاملي. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ج4 جامعة النجف الدينية .
24. الإمام عبد الله بن محمود بن مردود الموصلي الحنفي، الاخبار لتعليل المختار. تعليق الشيخ محمود ابو دقيقة. ج2 دار المعرفة بيروت 1975.
25. الأمام محمد بن ادريس الشافعي، الأم، ج4، شركة الطباعة الفنية المتحدة 1961 ابن عابدين، رد المحتار، ج 3 مطبعة بولاق القاهرة 1299 هـ
26. الدكتور عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ج1 بيروت 1956 .
27. الأمام محمد بن الحسن البدخشي شرح البدخشي، مناهج العقول، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، ج1 194 و ج2 .
28. البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع، ج3، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

29. الدكتور إبراهيم أحمد العدوي، المسلمون والجرمان، دار المعرفة، القاهرة 1990.
30. الدكتور إبراهيم احمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1963.
31. الدكتور احمد إبراهيم الشريف، الدولة الإسلامية الاولى، دار الفكر بيروت 1969.
32. الدكتور احمد إبراهيم حلمي، الدبلوماسية، عالم الكتاب، القاهرة .
33. الدكتور احمد الشلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج 2 مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1973.
34. الدكتور احمد فكري، التاثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوروبية، مجلة سومر ج1، و2 مجلد 23 سنة 1967.
35. الدكتور اسماعيل سرور شلش، العلاقات الخارجية في عصر النبوة والدولة الإسلامية الاولى مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، العدد 66 / 8، 1984.
36. الدكتور السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1980.
37. الدكتور باسم حطاب طعمة، العلاقات التجارية والدبلوماسية الانكليزية العثمانية 1558- 1625 دراسة تحليلية، مجلة آداب البصرة، العدد 20 السنة 2001 جامعة البصرة .
38. الدكتور بدري محمد فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، بغداد 1973.
39. الدكتور بهجت كامل عبد اللطيف التكريتي، العراق قاعدة نشر الاسلام في المشرق، العراق قديمه وحديثه، شركة الوفاق للطباعة الفنية، بغداد 1992 .
40. الدكتور جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، بغداد.
41. الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1 مكتبة النهضة المصرية 1964.
42. الدكتور حسن فتح الباب، المنازعات الدولية، عالم الكتاب، القاهرة 1976.

43. الدكتور رشدي عليان والدكتور عبد الرحمن الدوري، أصول الدين الإسلامي، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1986

44. الدكتور سهيل حسين الفتلاوي، الحصانة القضائية للمبعوث الدبلوماسي في العراق، مطبعة اسعد بغداد 1980 .

45. الدكتور سهيل حسين الفتلاوي ، قانون الحرب، دار القادسية، بغداد 1984 .

46. الدكتور سهيل حسين الفتلاوي تاريخ النظم القانونية، دار الفكر المعاصر بيروت 1994.

47. الدكتور سهيل حسين الفتلاوي تطور الدبلوماسية عند العرب، دار القادسية بغداد 1984

48. الدكتور سهيل حسين الفتلاوي، الصهيونية حركة استعمارية استيطانية توسعية، مطبعة عصام بغداد 1990

49. الدكتور شاكر محمود عبد المنعم، الأمويون، التاريخ العربي الإسلامي، شركة الوفاق للطباعة الفنية، بغداد 1998.

50. الدكتور صالح احمد العلي، نمو المدن وتوزيعها في العراق في العهود الإسلامية الزاهرة، (المدينة والحياة المدنية) الجزء الاول دار الحرية للطباعة 1988.

51. الدكتور صبري احمد لافي الفريري، الخلافة الراشدة، التاريخ العربي الإسلامي، شركة الوفاق للطباعة الفنية بغداد 1998.

52. الدكتور عامر سليمان، القانون في العراق القديم، جامعة الموصل 1977.

53. الدكتور عبد الأمير دكسن، الخلافة الأموية، دار النهضة العربية بيروت.

54. الدكتور عبد الحسين القطيفي، القانون الدولي العام، بغداد 1972.

55. الدكتور عبد الحميد المستيري، صهيونية هرتزل العلمانية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية العدد الرابع المجلد الثالث جامعة بغداد 1975 .

56. الدكتور عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، دار الكتاب العربي القاهرة 1968.

57. الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة 1969 .

58. الدكتور عبد الكريم زيدان الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، مجلة القانون والعلوم السياسية، الحلقة الدراسية الثالثة، بغداد 1969 الهيئة المصرية للكتاب 1972 .
59. الدكتور عبد الواحد عبد الرحمن، الأنموذج في أصول الفقه، جامعة بغداد 1987.
60. الدكتور عبد الواحد محمد الفار، القانون الدولي العام، جامعة أسيوط 1989، .
61. الدكتور عز الدين فوده، النظم الدبلوماسية، دار الفكر، القاهرة 1961.
62. الدكتور علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة 1963 .
63. الدكتور علي حسني الخربوطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي، مصر 1959.
64. الدكتور علي صادق أبو هيف، القانون الدولي العام، القاهرة، .
65. الدكتور كاظم هاشم النعمة، الوجيز في العلاقات الدولية، جامعة بغداد 1992 ص 25.
66. الدكتور كمال مظهر احمد، ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي، مطبعة الزمان بغداد 1977 .
67. الدكتور مجيد خدوري، الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارمان مطبعة التفيض بغداد 1939 .
68. الدكتور مجيد خدوري الحرب والسلم في شرع الإسلام ، الدار المتحدة للنشر بيروت 1973.
69. الدكتور محمد احمد خلف الله، ابن ابي طالب مندوب فوق العادة، الامام علي بن ابي طالب نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1974 .
70. الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القران والسنة، القاهرة 1970.
71. الدكتور محمد سعيد الدقاق، القانون الدولي، المصادر والأشخاص، ط2 بيروت 1983
72. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ط7 مكتبة الدعوة الإسلامية القاهرة 1978.

73. الدكتور محمد عبدالعزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، القاهرة 1969 .

74. الدكتور محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القران الكريم والسنة النبوية، مكتبة النهضة الإسلامية 1980

75. الدكتور محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، القاهرة 1976.

76. الدكتور محمد كمال عبد العزيز، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي مجلة القانون والعلوم السياسية، الحلقة الدراسية الثانية بغداد 1969، الهيئة المصرية للكتاب 1972 .

77. الدكتور محمد مفيد آل ياسين، العباسيون 132- 656هـ، التاريخ العربي الإسلامي، شركة الوفاق للطباعة الفنية، بغداد 1998.

78. الدكتور مصطفى سلامة حسين، العلاقات الدولية، الإسكندرية 1984.

79. الدكتور هاشم يحيى الملاح، المنافقون في مدينة الرسول، مجلة كلية الدراسات الإسلامية العدد الخامس، بغداد 1973 .

80. الدكتور هشام يحيى الملاح، موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة. سلسلة الموسوعة التاريخية، هيئة كتاب التاريخ ط1 مطبعة جامعة بغداد 1988.

81. الدكتورة عائشة راتب، التنظيم الديبلوماسي والقنصلي، دار النهضة العربية القاهرة 1963.

82. السيد احمد محمد الشحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، منشورات وزارة الأعلام العراقية بغداد .

83. السيد عبد الجليل عبد الرضا راشد، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، مكتبة النهضة، الرياض 1969 .

84. السيد محمد علي منصور، مساهمة التشريع والقضاء التونسيين في المحافظة على الذاتية القومية، مجلة القضاء والتشريع التونسية العدد (2) لسنة 19 وزارة العدل التونسية 1977.

85. الشيخ أبو زهرة محمد احمد، الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، مجلة القانون والعلوم السياسية .

86. الشيخ حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القران، تفسير، الكويت 1987.
87. الشيخ عبد الحي الكتاني نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، ج1 و ج2 دار إحياء التراث العربي بيروت.
88. الشيخ عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية في البيت والمدرسة والمجتمع.
89. الشيخ محمد عبده شرح نهج البلاغة، تحقيق وتعليق محمد احمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا. دار ومطابع الشعب.
90. العلامة زين الدين بن نجم البحر الرائق، شرح كنز الدقائق، دار الكتب العربية القاهرة 1334 هـ 364.
91. العلامة مرعي بن يوصف الحنبل، غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى، ط1 القاهرة 1377 .
92. العلامة مصطفى السيوطي الرحيباني، مطالب أولى النهى في شرح المنتهى، ج2 منشورات المكتبة المركزية، دمشق 1961.
93. جلال الدين عبد الرحمن ابي بكر السيوطي، الخصائص الكبرى ن ج2 دار الكتب الحديثة القاهرة 1967.
94. جورج جرداق، الامام علي صوت الحق والعدالة الانسانية. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1970.
95. حسين محمد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العُمانيين، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة بغداد 1975.
96. شمس الدين السرخسي المبسوط، ج10 مطبعة السعادة مصر 1324هـ
97. شمس الدين المقدسي، عقد الفرائد وكنز الدقائق، المكتب الإسلامي، دمشق 1964.
98. عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث مطبعة دار الكتب بيروت 1975.
99. عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، دار احياء التراث العربي بيروت 1972
100. علاء الدين الحنبلى ، الأنصاف، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1956 . الزيلعي، الكنز، ج3 المطبعة الكبرى الأميرية مصر 1313 هـ ص 269.

101. علي بن حسين علي الأحمدي كتاب مكاتيب الرسول، دار المهاجر بيروت ص3.
102. علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني رسالة مقدمة لكلية الآداب في جامعة بغداد 1976 .
103. عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة السلجوقية، مطبعة الموسوعات، القاهرة.
104. قرني طلبة بدوي، جواهر السيرة النبوية، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
105. كارل بروكلمان، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها ج2 بيروت 1961.
106. كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، تعريب الدكتور بدر الدين القاسم بيروت 1972 .
107. محمد اسعد طلس، تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث، دار الأندلس بيروت 1963.
108. محمد بن الحسن الشيباني،السير الكبير، إملاء احمد السرخسي ج1 تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة مصر القاهرة 1958.
109. محمد حسين هيكل، حياة محمد ط4 القاهرة 1947.
110. محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، مطبعة مصر 1958.
111. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد بيروت 1969.
112. محمد رضا، محمد رسول الله، ط5 دار إحياء الكتب، القاهرة 1966.
113. محمد سليمان عبد الله الأشقر، زبدة التفسير من فتح القدير، ط1 مطبعة الانباء الكويت 1986
114. محمد عبد الحي محمد شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية 600م-750م، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1983.
115. محمد عزة دروزة، تاريخ العرب في الإسلام، تحت راية الخلفاء الراشدين، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
116. محمد عزة دروزة، سيرة الرسول صورة مقتبسة من القران الكريم، ج2 مطبعة الاستقامة، القاهرة 1948 .

117. محمد عمارة، محمد اول دستور للدولة الاسلامية، مجلة محمد نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1972.

118. محمد فرج، الاستراتيجية العسكرية الإسلامية. النظرية والتطبيق. منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1975.

119. محمد لطفي جمعة ، ثورة الإسلام وبطل الانبياء مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1958.

120. محمد محي الدين عبد الحميد، محمد عبد اللطيف السبكي، المختار، ط5 المكتبة التجارية الكبرى مطبعة الاستقامة القاهرة.

121. محمد ناصر الدين الالباني الاحاديث الصحيحة، ج2، المكتب الاسلامي بيروت 1972

122. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الخامس، مكتبة الآداب 1955.

123. محمود شيت خطاب. الرسول القائد، ط3 دار القلم بغداد 1964.

124. محمود شيت خطاب. السفارات النبوية، مطبعة المجمع العلمي العراق، بغداد 1989.

125. ناصر الدين ابي سعيد الشيرازي،تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ج 3 مؤسسة شعبان، بيروت.

126. علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق 1975 – 1831، منشورات وزارة الأعلام، بغداد 1975.

127. يوسف بن إسماعيل النبهاني، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، بيروت .

128. يونس عبد الحميد السامرائي، السفارات في التاريخ الإسلامي حتى قيام الدولة العباسية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، 1976 ص 267.

ثانياً : المصادر الأجنبية :

129. Antoine Fattal. Les Procedures Diplomatiqes des Regiment Differnds Internaux. Libnon Beyroth 1966..
130. Bakhrouchine et E. Kosmink , La Diplomatie du Moyen ag- Histoire la diplomate, Paris , 1964
131. Ben Halpern . The Idea of Jewish State . 2ed. Cambridge 1969,p .105.
132. G.E. Nascimento E Silva, Diplomacy In International Law, A.w,Sijtoff Leiden. 1972
133. Hans Kelsen , Principles of International Law. Second ed. New York,1966,
134. Holder W. E. The International Legal System Butterwrths 1972.
135. Ian Brownlie. Principles of Public International Law.Oxford 1962.
136. L. Oppenheim. International Law. Vol. Lengman. London 1971..
137. Louis Cavare', Le Droit Inernatioal Publie Positif. Tome 2 .Pedon ,Paris,1962..
138. M. Whiteman. Digest of International Law.Vol. 7 Department ,1970..
139. M.Whiteman,Digest of International Law, Vol. 6. Department of State Publication, Washintgon ,1970.
140. Michael Akehurst , A Modern Introduction To International Law. Atherton Press. New York 1970.
141. şer Ernest ,Satow .A Guide Diplomatic Practice,London 1957.
142. Wesly L. Gould. An Introduction to Intrnational Law. New York, 1959,.
143. Yonathan Shapiro ،The Formative Years of the Israeli Labour Party, Sage Publication , London 1976, p. 9.

المحتويات

المقدمة 7

الباب الأول

الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي محمد ﷺ

الفصل الأول : مفهوم الدبلوماسية الإسلامية ومصادرها في عهد النبي ﷺ..... 13

المبحث الأول : مفهوم الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ............ 15

المبحث الثاني : مصادر الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ.......... 18

المبحث الثالث : أعمال النبي ﷺ بصفته رئيس الدولة 32

الفصل الثاني : العلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد النبي ﷺ 55

المبحث الأول : وسائل العلاقات الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ.............. 56

المبحث الثاني : نماذج من العلاقات الدبلوماسية الدولية في عهد النبي ﷺ 88

الفصل الثالث : الشخصية الدبلوماسية الإسلامية ومهامها في عهد النبي ﷺ 129

المبحث الأول : مفهوم الشخصية الدبلوماسية الإسلامية في عهد النبي ﷺ 130

المبحث الثاني : التزامات الدبلوماسي 141

المبحث الثالث : مظهر الشخصية الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ 171

المبحث الرابع : جوهر الشخصية الدبلوماسية في عهد النبي ﷺ 185

الباب الثاني

الدبلوماسية الإسلامية بعد عهد النبي محمد ﷺ

الفصل الأول : الدبلوماسية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين 211

المبحث الأول : الدبلوماسية في عهد أبي بكر الصديق 212

المبحث الثاني : الدبلوماسية في عهد عمر بن الخطاب 213

المبحث الثالث : الدبلوماسية في عهد عثمان بن عفان 214

المبحث الرابع : الدبلوماسية في عهد علي بن أبي طالب 215

الفصل الثاني : الدبلوماسية الإسلامية في العهد الأموي 217

المبحث الأول : الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية في دمشق 218

المبحث الثاني : الدبلوماسية الإسلامية في عهد الدولة الأموية في الأندلس 236

الفصل الثالث : الدبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي 241

المبحث الأول : التاريخ السياسي للدولة العباسية 242

المبحث الثاني : مظاهر الدبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي 253

الفصل الرابع : الدبلوماسية الإسلامية في العهد العثماني 269

المبحث الأول : نشوء الدولة العثمانية 271

المبحث الثاني : الدبلوماسية العثمانية بعد احتلال الوطن العربي.......... 276

المراجع 291

إصدارات المؤلف

1. حقوق المؤلف المعنوية في القانون العراقي، دار الحرية بغداد 1977.
2. الديمقراطية الشعبية، مطبعة اسعد، بغداد 1977.
3. أشكال التاميم، مطبعة اسعد، بغداد 1978.
4. الحصانة القضائية للمبعوث الدبلوماسي في العراق مطبعة اسعد بغداد 1980.
5. قادسية صدام في ضوء القانون الدولي، دار الحرية بغداد 1982.
6. نظام أسرى الحرب في القانون الدولي، دار القادسية بغداد 1983.
7. قانون الحرب، دار القادسية، بغداد 1984.
8. تطور الدبلوماسية عند العرب، دار القادسية بغداد 1985.
9. المنازعات الدولية، دار القادسية، بغداد 1986.
10. الجيش الشعبي، دار القادسية بغداد، 1986.
11. انتهاك حقوق الإنسان العربي في فلسطين المحتلة، دار القادسية 1985.
12. الصهيونية حركة استعمارية استيطانية توسعية، مطبعة عصام، بغداد 1990.
13. الصهيونية حركة عنصرية توسعية مطبعة عصام، بغداد 1990.
14. مبادئ القانون الدولي الإنساني، مطبعة عصام بغداد 1990.
15. تاريخ القانون اليمني القديم قبل الإسلام، دار الفكر المعاصر بيروت 1992.
16. المدخل لدراسة القانون اليمني، دار الفكر المعاصر، بيروت 1992.
17. نظرية القانون، دار الفكر المعاصر، بيروت 1993.
18. حق الملكية في القانون اليمني، دار الفكر المعاصر، بيروت 1993.
19. التامينات الشخصية والعينية، دار الفكر المعاصر بيروت 1994.
20. نظرية الحق، دار الفكر المعاصر، بيروت 1994.

21. تاريخ النظم القانونية، دار الفكر المعاصر بيروت 1994.

22. القانون الدولي الخاص، دار المنار، صنعاء 1995.

23. دبلوماسية النبي محمد ﷺ دار الفكر العربي بيروت 2000.

24. حقوق الانسان في الاسلام، دار الفكر العربي بيروت 2000.

25. ادب المجالس في الاسلام، دار الضياء، عمان 2001

26. تسوية المنازعات الدولية في عهد النبي محمد ﷺ، دار الضياء، عمان 2001.

27. مراسلات النبي محمد ﷺ وبعثاته الدبلوماسية، دار الضياء عمان 2001.

28. القانون الدولي العام، دار الكتب جامعة بغداد، 2001.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
انتهيت من قراءة هذا الكتاب يوم السبت ٥/٢/ جمادى الأول/١٤٢٧
راجيا من الله عز وجل أن يرزقني العلم النافع والعمل الصالح
جملة الكتاب مفيد، وجزى الله المؤلف لما قدم، وهناك
زلات وهفوات بالأخص الترويج للقومية
غفر الله له.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

[illegible]

[illegible]